تمر و رصاص

رواية

عبدالرحيم فرغلي

بسم الله الرحمن الرحيم

ح نادي المدينة المنورة الأدبي ، ١٤٣٨هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
سعيد ، عبدالرحيم فرغلي
تمر ورصاص. / عبدالرحيم فرغلي سعيد.- المدينة المنورة ، ١٤٣٨هـ
١٨٤ص ، ١٧×٢٤سم
ردمك : ٧-٣-٩٠٩٤٩-٦٠٣-٩٧٨
١- القصص العربية – السعودية أ.العنوان
ديوي ٨١٣,٠٣٩٥٣١ ١٤٣٨/٧٢٨٥

رقم الايداع : ١٤٣٨/٧٢٨٥
ردمك : ٧-٣-٩٠٩٤٩-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الاولى ١٤٣٨- ٢٠١٧م
لوحة الغلاف بريشة الفنانة رزان عبدالرحيم فرغلي



نادي المدينة المنورة الأدبي
المملكة العربية السعودية ص.ب ٧٥٠ المدينة المنورة
هاتف : ٠١٤ ٨٤٧١٩٠٥ – فاكس : ٠١٤ ٨٤٧٤٩١٣
البريد الإلكتروني : adabimadina@yahoo.com
الموقع الإلكتروني : www.adabimadina.com

إهـــداء

إلى والديّ وزوجتي وأبنائي ....

إلى كل منساندني في كتابة روايتي هذه ....

إلى عمر الرحيلي ونايف فلاح الجهني ..

وإلى روح الشاعر المديني الكبير محمد العمري القائل :-

دار الهدى خف منك الأهل والسكن　　واستفرغت جهدها في ربعك المحَنُ

منازل شب فيها الدين واكتملت　　آياته ، فاستعارت نورها المدن

ابعد روضتها الغنَّا ، وقبتها الـ　　خضراء يحلو بعيني مسلم وطن؟

ما غوطة الشام؟ ما نهر الأُبلَّة؟　　ما حمراء غرناطة ما مصر ما اليمن؟

كل المُنى في رحاب المصطفى جمعت　　دنيا ودين فما في مثلها ثمن

إلى كل هؤلاء أهدي روايتي ....

(-١-)

(كيف لقلبك أن يعرف النور ، وهو متسخ بكره إنسان)
مقولة كررها سيدي عبدالله مرات ومرات على مسامعي .. حاولتُ يا سيدي .. ليال طويلة وأنا أقاوم ذلك السواد .. أسعى لأن أكون شاباً يحب كل الناس .. لكن ثلاثة جعلوا قلبي متسخاً بكرههم ، بالرغبة في نفيهم ، فالحياة حتماً ستكون أجمل .. بل أستطيع يا سيدي أن أتسامح مع الجميع .. أنسى إساءتهم .. إلا قائد المدينة العسكري فخري باشا .. العثماني البغيض الذي قدِم إلينا من الشام أواخر رجب الماضي وتوالت بمقدمه النكبات، فالمدينة مثلها مثل باقي الحجاز.. يحكمها الأتراك وتأتمر بأمر الخليفة العثماني في الأستانة [١] .
كانت مدينتي طفل ودود ، لا يمل التبسم في نفوس الآخرين ، يفتح ذراعيه مرحباً بزائريه .. يقول لهم ((أحبابي .. كيف أخدمكم)) .. الحرم الشريف يتربع في وسطها كقلب كبير .. مزهوة هي بمرقد النبي الأعظم عليه الصلاة والسلام ، مدينتي فقدت سكينتها .. هدوءها .. برصاصة لعينة أطلقها الشريف حسين من شُرفة قصره بمكة المكرمة معلناً ثورته على الدولة العثمانية ورغبته في الاستقلال عنها ، وسريعاً بسط سيطرته على مكة وجدة والطائف وطرد الأتراك منها .. كان الامتعاض من الأتراك بدأ يتعاظم في قلوب سكان الحجاز بسبب سياسة التتريك .
اتجه بعدها الثوار إلى المدينة .. حاصرها أبناء الشريف حسين من ثلاث جهات ..وتعاون معهم بعض الأهالي في قرى (العوالي وقربان وأبيار علي) الواقعة في أطراف المدينة .. حين علم فخري باشا قائد المدينة العثماني بذلك .. حذر الأهالي من التعاون مع الأشراف الثائرين ..

[١] ـ الأستانة : المقصود بها إستانبول عاصمة الدولة العثمانية بتركيا .

أمرهم بترك مزارعهم هناك والنزول إلى المدينة ليتمكن من طرد جيش الشريف.. كثير منهم استجاب لأمره وبعضهم رفض ترك أمواله ونخله. الأحداث المؤلمة بدأت حين توجهت قوة من الجنود الأتراك برغبة تطهير تلك القرى من الثوار.. نُصبت المدافع .. أطلقت النيران.. أحرقت المزارع .. قُتل كثير من الرجال الأبرياء .. رُملت النساء .. كانت فاجعة لم تكن في الحسبان .. بل بدأت ُحينها أفهم ما يحدث وأتساءل عن أسبابه .. كنت قبلها لا أبالي بما يجري في مدينتنا وأعيش في عالمي الخاص بي .

أسواقنا ومجالسنا باتت متخمة بالضجيج مثل آلام ضرس مزعج لا يريد أن يسكن ، مثل ماء يغلي ، بعضهم يرى الشريف حسين محقاً في تمرده وإعلان ثورته ، فظلم الأتراك طغى وفاض ، وآخرون يستغفرون الله من ثورة على ولي الأمر .. على سيدنا السلطان .. فهذا لا يجوز أبداً ، أتنفس الصعداء من هذا الجدال لأجد الأصوات تعالت بأخبار الهجمات التي لم يزل أبناء الشريف حسين يقومون بشنها على مدينتي ، جدال يصيبيني بالصداع .. بالضجر .. أود لو أهرب بعيداً .. كأن أكون في حلقة مزمار .. أدور حول النار طويلاً وأنا أمسك العصا وأستظهر كل مهاراتي فيها .

* * *

قدم رمضان متلفعاً بصيف حار ، أشعر بالصيام يمتص كل قطرة ماء في حلقي .. يتركني كشجرة يابسة تصفر فيها الريح ، اليوم .. بعد العصر كنت أزجي الوقت مع صديقي عبدالوهاب يخاري عند باب منزلهم المنتصب كمبنى حراسة في بداية حوشنا[1].. حوش فواز .. نترقب صوت الشيخ النجدي يؤذن لصلاة المغرب .. ألمح من مكاني أخي الصغير يخرج من البيت ومعه طبق طعام .. يمضي به إلى بيت أم

---

[1] ـ الحوش : مجموعة من المنازل المتلاصقة المتلاصقة تستدير حول ساحة كبيرة ، وللحوش مدخل واحد في العادة وعليه باب يُغلق بعد صلاة العشاء .

عدنان الملاصق لبيتنا .. كان يسير ويتراقص .. خشيت من سقوط طبق الطعام .. صرختُ عليه لينتبه ، مرّ بنا سيدي محمد علي الدرويش .. يسحب عصاته على الأرض ..جسمه نحيل .. أشعث الشعر .. بشرته سمراء .. لحيته غير متناسقة ، أثر الصيام باد عليه ، كنت أتحاشى السخرية منه .. هكذا يأمرني أبي .. أما الأخرون فيسمحون لصغارهم بالجري وراءه وإطلاق العبارات الضاحكة ، سيدي عبدالله يقول أنه رجل مجذوب ومن الصالحين ، هو حاد الطباع لا يطيق الحوار وكثرة الكلام .. يغيب أياماً طويلة تمتد لأسابيع ثم يظهر، لا نعرف أين كان ولا متى حضر ، أين يأكل وأين ينام ، البعض يراه أحيانا نائما في أحد الخرائب أو بجوار بيت مهجور ، كان حديثي مع عبدالوهاب عن فخري باشا والأحداث الأخيرة ، شاركناه في حوارنا :

ـ سيدي محمد علي : هل تحب فخري ؟

سكت برهة .. كأنما يفتش في داخله عن إجابة ، أطلق نظره للبعيد ، نظراته تشي بصوت يسمعه ، انحنى على الأرض ، شعره الاشعث تتساقط منه بعض الأوساخ ، وجهه يتجعد مع حديث لا نسمعه ، أخيراً أجاب على سؤالنا :

ـ فخري رجل يظن نفسه يسبح في بركة ماء صغيرة .. لكن البركة ستكبر .. ستكون بحر يُغرق فخري .. يبتلع فخري في جوفه .

هكذا هو ، لا يجيبك بوضوح عن سؤالك ، يرمي بك إلى موضوع آخر ، بل يضعك في ألغاز لا تفهمها .

ثم أردف :

ـ وأنت يا منصور .. ستكون من الصالحين بإذن الله .. ستأتيك الأسرار تسعى إليك .. يجلس إليك الكبير والصغير ليأخذ البركة منك .

ضحكتُ في داخلي من هذه النبوءة ، إنني أسخر من أمثال سيدي محمد علي .. من أسرارهم التي يدّعونها .. ثم إنني متسخ بالدنيا .. أريد أن أعب من ملذاتها حتى الثمالة .. كنت أتمنى أن أكون مِشكل الحارة

وكبيرها في لعبة المزمار .. سعيت إلى ذلك .. لكن تنازلت عن أمنيتي بعد مقتل صديق لي في هذه اللعبة العام الماضي ، الآن أمنيتي أن أستقل عن العمل مع أبي في المحل .. لأرتاح من صياحه وتوبيخه الذي لا ينقطع .. نظراته اللاسعة .. تقريعي أمام أصدقائه ، لم تكن أمنيتي يوماً الانكفاء على الكتب ومجالس الذكر وملازمة السبحة .. فكيف ستأتيني الأسرار ؟ .

أكمل سيدي محمد علي وكأنه عرف ما يدور بخاطري :

ـ يا منصور : الشباب شمس حارقة والشيخوخة ظلال هادئة ، يمكنك في الظل أن تتأمل الأشياء أكثر .. أن تلمسها .. أن تجلس بجوارها وتجيل بصرك فيها .

شاركنا عبدالوهاب الحديث :

ـ وأنا يا سيدي ، كيف سيكون حالي .

ـ سيكون فمك حلواً بالرطب .

ابتسمت في داخلي حين لمحت الحيرة على وجه عبدالوهاب .. شعرت بندمه على التفوه بالسؤال .. فكلنا نأكل الرطب الحلو .. فلماذا يكون هو متميزاً بذلك .

التقط سيدي محمد علي حفنة من التراب ، نثرها في الهواء ، لمس ركبته وكأنه يوعز لها بالاستعداد للسير، التفت فجأة لشيء ما ، صرخ صرخة عالية ومد لسانه علامة السخرية ، أخذتنا الدهشة من حركاته وتصرفاته .

يبدو أن أمي علمت بوجود الدرويش .. فها هو أخي الصغير يأتيه بطبق طعام .. هذه عادتها كلما جاء .. تهديه شيئاً من الطعام أو الملابس.. مسكين أخي .. أجزم أنه لم يصم اليوم وإن ادعىّ ذلك ، فلا يبدو عليه آثار الجوع والعطش .. بكل نشاط ينقل أطباق الطعام للجيران ، سيدي محمد علي تناول طبقه شاكراً داعياً .. واتخذت عصاه طريقها تجره ورائها .

استأذنت من عبدالوهاب بالانصراف .. دخلتُ إلى البيت وقد أوشك آذان المغرب أن ينادي في الأجواء بقرب الصلاة .. عليّ أن أرافق سيدي عبدالله إلى الحرم للإفطار هناك ببعض الجبن والشريك والتمر لنكمل بعدها إفطارنا في البيت ، كان سيدي عبدالله قد جاوز عمره السبيعين .. وهن جسده .. ورق عظمه ، لذا هو بحاجة لمن يستند عليه حين سيره .
وجدت أمي تجلس بجوار سيدي كمال (أخي الكبير) ، وجهها قريب من وجهه ، تزيح خصلات شعرها النائمة بحب على جبينها ، الضوء خافت بعدما هرب ضوء الشمس عن المكان وترك فيه لون الخوف من هجوم الظلام ، كانت تُحدثه عن مرض زوجته ، عن كآبتها وضيق صدرها والصرع الذي يأتيها بين الحين والآخر ، اقترحتْ عليه أن تذهب بها لحفلة زار تقيمها إحدى النساء في شارع السيح ، لأول مرة أجد أخي غاضباً ، حاول أن يكتم غضبه .. فبره بأمي لا يسمح له بغير الأدب والترقق في الحديث .. شرح لها بهدوء :
ـ الله يخليكِ لنا يا أمي ، الزار لا يجوز في الشرع ، إن شاء الله مع قراءة القرآن وشرب الماء المقروء عليه تُشفى ، سبحانه هو الشافي .



لا أطيق دموع الأقوياء .. لا أطيق أن أرى جبلاً يستحيل ترابا .
قبل أيام رافقتُ أبي إلى عزاء أحد أصدقائه ، قتله الجنود الأتراك في مزرعته بالعوالي في سعيهم لتطهير تلك القرى من الثوار .. تلك الواقعة تركت ألما وجرحاً في قلوب المدنيين .. وجعلت أهلها يتوجسون مما تأتي به الأيام .
في العزاء ، وبعد أن قرأ كل منا حزباً من القرآن وأهدى ثوابه للميت ، لاحت مني التفاتة لأبي ، تخنقه عبرة يسعى لمداراتها ، يلتفت يمنة ويسرة ، يرخي رأسه للأسفل ، يخشى أن تتجرأ دمعة على النزول ويلمحها الآخرون .. يشغل نفسه بتحريك شفتيه تدعو للميت ، أبي ذلك الرجل المهيب .. المعروف بحدته وصرامته.. ها هو الآن يكاد يبكي ، أسمعه يُحدث ذلك الرجل الجالس عن يمينه بفضائل ذلك الصديق وافتقاد المدينة له كأحد رجالاتها الكبار ، يقول أبي إن الصديق مثل الإبرة والخيط .. نرفأ بهما شقوق الأيام ، هالني الأمر حين وجدتُ أبي قد غلبه البكاء في عزاء الشيخ يحي عباس .. قتله الجنود الأتراك أيضاً في موقعة العليا بقربان ، كان رد فعل فخري باشا قاسياُ مؤدباً للأشراف والمتعاونين معهم ، بعدما أرادوا بسط سيطرتهم على القرى القريبة .. بل اعتلوا جبل عير وتمكنوا من احتلاله ، وأطلقوا النار على القطار وبداخله بصري باشا محافظ المدينة أثناء مروره على جسر وادي العقيق . من وقتها وأنا أشعر بالبغض لفخري باشا بسبب قتل عشرات الأبرياء الذين لم يكن لهم ذنب سوى سكناهم في تلك القرى وعدم الانصياع لأوامره في ترك منازلهم ومزارعهم .
مضيتُ هذا المساء إلى الحرم .. في ليالي رمضان يضج بالمصلين ، تشعر أن الهواء مكتنز بالقرآن .. بالملائكة .. بالنور، بالمستغفرين الذين يجتمعون لينالوا الرحمة والبركات ، تتوزع فيه أكثر من خمسين جماعة

تصلي التراويح ، لكل جماعة إمام ، في ليالي رمضان أشعر أكثر بمعصيتي .. بذنوبي .. وأحشر نفسي مع المصلين لعل الله يراني بين الصالحين ويعفو عني .

كان سيدي كمال يؤم جماعة من المصلين في صلاة التراويح بالقرب من باب الرحمة ، ساعياً لأن يختم القرآن في الخامس والعشرين من رمضان ، اتم حفظ القرآن وهو في العاشرة من عمره .. صوته الخاشع يجعل القلب ندياً .. شفافاً .. يرى الجنة والنار ، حلاوة ترتيله تقع في صدري لتنبت فيه رغبة التوبة وهجر المعاصي ، قراءته تنساب داخلي كروح محبة .

في رجب الماضي ، دخل أبي إلى البيت متهللاً ، زالت عن وجهه صرامته التي نعرفها ، غادرته الحدة والنظرات المتفحصة والمشي بخطواته المنذرة ، بشرنا بتكليف سيدي كمال إماماً في الحرم النبوي بدايةً من شوال ١٣٣٤ هـ ، أي بعد عيد الفطر، بعدما وافقت نظارة الأوقاف الهمايونية على هذا التكليف ، بل أن شيخ الحرم وهو صديق لأبي .. أطلعه على الفرمان الصادر من الباب العالي والممهور بتوقيع سيدنا السلطان ، ومكتوب بالخط الديواني الجلي .

شاعت الفرحة في حوش فواز، أبي أقام وليمة عشاء خُتمت بالمدائح النبوية حضرها كل الجيران ، ثلاثة أيام لم يخل بيتنا من الجارات يهنئن ستي وأمي ، يومها دخلت على سيدي كمال في حجرة المقعد المقابلة لدكة الدهليز ، بعدما امتلأت حجرة الديوان بالنساء ، رأيته وعليه بوادر الحيرة ..الخوف .. الحزن .

ـ خير يا سيدي ، ماذا بك ؟ أحسب أن تكون فرحاً في يوم كهذا .

ـ كيف لي أن أقف في المحراب يا منصور إماماً للمصلين ، مكان رسولنا العظيم عليه الصلاة والسلام ، إنه موقف عظيم ، كيف أجرؤ على ذلك ، كيف أنال شرفاً كهذا وأنا المقصر المتسخ بذنوبي وآثامي .

عدتُ من صلاة التراويح ، التقيتُ بصديقي عبدالوهاب ، نثرثر عن أحوال مدينتنا تحت دخان السجائر ، هو يرى سيطرة جمعية الاتحاد والترقي أو ما يسمى بالاتحاديين على السلطة في تركيا سبباً فيما نحن فيه ، فهم عزلوا السلطان عبدالحميد في ١٣٢٧ هـ .. نصّبوا أخاه محمد رشاد خليفة صورياً لا يملك من الأمر شيء .. فرضوا الثقافة التركية على الشعوب العربية أو ما يسمى بالقومية الطورانية أو التتريك .. حاربوا اللغة العربية .. شاركوا في الحرب الكبرى[١] مع ألمانيا ، انحرفوا عن الإسلام إلى العلمانية ، كان عبدالوهاب يلتمس العذر للشريف حسين في ثورته ويضع كل اللوم على الاتحاديين .. ، ويرى أن محاولاته في تخريب سكة الحديد وقطع أسلاك التلغراف يدل على ذكائه ورغبته في القضاء على الحكم العثماني في الحجاز بل وفي جميع البلاد العربية ، كنت أداري جهلي بكل هذا مصراً على أن فخر الطين وراء مصائبنا .

تركتُ عبدالوهاب .. شعرت بضجر من هذا الجدال .. لأول مرة أسمع عن الاتحاديين والقومية الطورانية والعلمانية .. ما شاء الله عليك يا عبدالوهاب .. من أين لك بكل هذا ؟ .

(دادا حوا) فتحت الباب .. تتقدمني حاملة المسرجة كي تضئ لي الدهليز ، جسمها الممتلئ جبل صغير يحتل الممر الطويل .. حركتها البطيئة تثير حنقي لكنني مجبر على متابعتها فبدون المسرجة لا أستطيع السير ، نبهتني إلى وجود الجارات في حجرة الديوان[٢] .. طلبتها كأس ماء ودلفت إلى حجرة المقعد ، جاءت أختي كوثر .. سألتها عن ستيته سلمى زوجة سيدي كمال :

---

[١] ـ الحرب الكبرى أو العظمى يقصد بها الحرب العالمية الأولى التي اندلعت في عام ١٣٣٢ هجري .

[٢] ـ الديوان : حجرة واسعة في الدور الأرضي ، تستخدم عادة لإستقبال الضيوف ، لها فتحة علوية متصلة بالسطح تسمى الجلا .

ـ الآن هي بخير ، ولكن حين خرجتم لصلاة العشاء ، جاءتها حالة الصرع .
ـ وكيف تصرفتم ، لا يوجد سيدي عبدالله ولا سيدي كمال .
ـ جاءت خالة أم عدنان .. ظلت تقرأ عليها طويلاً ، سقتها أمي بطاسة الفجعة[1] ، حتى أفاقت ، لكن حين عاد سيدي عبدالله .. قرأ عليها و تغيرت ملامحها ..غابت عن وعيها يا منصور.. وتكلم رجل على لسانها.. أقصد جني بصوت رجل .
ـ وبعد ذلك ، أكملي يا شيخة ، لا تموتّي الكلام .
ـ أخبر الجني أنه تأذى من ستيته سلمى بسبب سكب الماء الحار في فتحة تصريف بيت الماء [2] .
وذكر أنه سيخرج منها ، ولكن سيعود إليها ..هدده سيدي عبدالله بحرقه إن عاد إليها ثانية .
حمدت الله على هذه النتيجة ، لا أدري كيف يتلبس الجن بالإنس ، لكن هذا ما تؤكده كل الأقوال المتناثرة في المدينة بل وها هي أختي أمامي تؤكد ذلك ، كانت كوثر لا تخفي عني شيئاً يحدث في غيابي ، وكنت أخبرها بما يكون معي في الخارج .. تقاربنا في العمر وترافقنا في اللعب قبل تحجبها في ساحة الحوش وجلوسنا معاً في البيت جعل بيننا انسجاماً كبيراً .
صعدت إلى السطح ، تمددتُ على فراش النوم وقد أخرجته دادا حوا من حجرة الطيرمة [3] ، كان بارداً ، يغري بالنوم خاصة بعد يوم من أيام رمضان الحارة . السماء فوقي قطعة قماش أسود منثورة بلؤلؤ بديع يتوسطها قمر مكتمل.. أُجزم بأنه سرق النور من وجه حبيبتي بدرية .

[1] ـ طاسة الفجعة : وعاء نحاسي لشرب الماء ، منقوش بآية الكرسي والمعوذات .
[2] ـ بيت الماء : أي دورة المياه ، وفتحة التصريف أي البالوعة .
[3] ـ الطيرمة : حجرة صغيرة تستخدم كمستودع لفرش وحاجيات النوم على السطح .

(-٣-)

أيقظني عم خليل المسحراتي .. يقف عند بابنا ، يردد مع طرقات طبلته :

ستي الفقيها قريني ...... تقول لك أمي هجيني
سورة تبارك والتين ..... علقة صغيرة اعطيني
لا إله إلا الله ... محمد رسول الله
** ** ** **

قول نويت بكرة الصيام ... يعينك رب الأنام
يا صايم قوم واتسحر ... ووحد ربك واتعبد
لا إله إلا الله ... محمد رسول الله
** ** ** **

يا أبو كمال أفندي .... يا منصور أفندي
يا كمال أفندي .... هيا السحور وبكرة الفطور
لا إله إلا الله ... محمد رسول الله
** ** ** **

حملتُ نفسي إلى الأسفل ، الاتريك المعلق في صدر القاعة غير عادل في توزيع ضوئه على الوجوه .. يتمايل كخيالات عاشق ، فتحة الجِلا[١] العلوية تنساب منها نسمات لطيفة ، ستي فاطمة تصيح متعجلة السحور:
ـ يا حوا، يا كوثر، هاتوا الأطباق .. لِمَ كل هذا التأخير؟ ما تصنعون في المطبخ ؟ صدق من قال « ست وجاريتين على قلي بيضتين »
ـ أمي تجلس بجوار أبي تشاوره في مرض ستيته سلمى ، وتحدثه بنوبة الصرع التي فاجأتها هذه الليلة :

[١] ـ الجلا بكسر الجيم : فتحة ممتدة من السطح إلى حجرة الديوان أو القاعة ، ويدخل منها الضوء والهواء .

ـ البنت يا عيني عليها .. بعد ما قرأ عليها سيدي ، ساكتة ولا تتكلم ، وضيقة في صدرها خانقتها .
ـ الحمد لله .. استطاع أبي أن يخرج الملعون منها ، وإن شاء الله ما يعود لها ثانية يا خدوج .
ـ كنت أقول يا سيدي .. لو تروح البنت حفلة زار .. يمكن ربي يشفيها ، لكن كمال رفض .
ـ يا شيخة .. ربنا يبعدنا عن هذه الشعوذة والخرافات.. لا زار ولا غيره .. وهذه السيرة لا أسمعها منك يا خدوج .. إنتِ سامعة ؟ !
ـ حاضر يا سيدي .
تعودتُ رؤية أمي تجلس إلى أبي .. كالماء .. تتجمع عند قدميه .. تتشكل بكلماته .. تنساب بين عباراته طائعة ، أو كعجين مرن .. تتكور بأوامره ورغباته .
تنتبه أمي للوقت وتنادي :
ـ يا كوثر ، يا حوا هاتي حصيرة الأكل بسرعة ، منذ ساعة سمعنا مدفع السحور .. انتبهي للملوخية على الكانون ، وهاتي معها الطرشي[1] والأرز والخبز، هيا لا تتأخروا .
ابتسمتُ لمنظر أخي إبراهيم وهو ينام بشكل مضحك وكأنه قضى النهار يتاجر في محلنا بسوق الحبابة ، ستيته سلمى جاءت من المطبخ وجلست قريباً من باب القاعة بجسمها الناحل ، صمتها وكآبتها جعل وجهها يظهر لي كرطب لفحته الشمس وتركت جلده متغضناً ، لم يخبروها بموضوع مرضها ، هكذا نصحتهم خالة أم عدنان .
سيدي عبدالله يحرك حبات مسبحته الطويلة ، غارقاً بالذكر، اسمعهم ينسبونه لأصحاب الكشف .. لا أدري ما يقصدون تماماً بهذه الكلمة .. بعد أن انتهى من الأذكار .. ناداني :
ـ نعم يا سيدي .. تحتاجوا شيء .

[1] ـ الطرشي بمعنى المخلل .

ـ ما أخبار المدينة يا منصور ؟ .
ـ سمعتُ أن فخري قد أستطاع تطهير كل المناطق حول المدينة من الثوار، بل أنه أجلاهم من جبل عير ولم يزل مستمراً في إبعادهم عن المدينة .
سيدي عبدالله لا يبالي بالدنيا وما يجري فيها .. لكن دوماً يحثنا على الاهتمام بأمر المسلمين .. فهم كالجسد الواحد .. هكذا يرشدنا رسولنا الأعظم عليه الصلاة والسلام ، كان سيدي حين يأتي ذكر الثورة ينبهنا للحديث عن الشريف حسين بأدب ودون تطاول عليه ، فهو من آل بيت رسول الله عليه الصلاة والسلام .
بسرعة أنهيت سحوري ، قابلت أبناء الحارة المجتمعين عند بيت عبدالوهاب .. دخنت معهم عدة سجائر ، رجعت لأشرب الشاي المصنوع بيد دادا حوا على السماور ، ارتفع آذان الفجر.. يصدح به الشيخ النجدي ، إن الفجر كالمطر .. حين يأتي يجبرني أن أبتسم .. وإن كان في داخلي أكوام من الحزن .

* * *

اقترب العيد .. أضحى بيتنا طفل مدلل ، الكل يسعى لأن يمنحه عنايته ورعايته ويدخل السرور على قلبه ، ستي فاطمة تقوم بطي الأغطية الخاصة بفرش الديوان ووسائده ، وتنبه أمي إلى تبخير الزير والكاسات بالمستكة .. دوما أرى ستي تمنح بيتنا روحاً جميلة بأمثالها وحكاياتها .. لا يستطيع أبي أن يرفض لها طلبا .. حبيبها المقرب سيدي كمال .. تأنس إليه وتطلب منه ما تريد .
الأسواق مزدحمة بالحلوى .. بالأواني الخاصة بها ، بمرشات ماء الورد والمباخر ، لكن الوجوه تعلوها حيرة وقلق .. تعلوها الأسئلة .. وماذا بعد وقعة العوالي وقربان وأبارعلي ؟ أينتصر فخري ؟ أيمكن أن يمضي فخري إلى مكة ويقضي على رأس التمرد هناك .. وجوه أخرى تتحسر على فقد أحبابها في تلك الوقائع . أحاديث أسمعها من المتسوقين

عن وصول الشريف علي حيدر بالوابور[1] إلى المدينة ، وقد عينته الحكومة التركية شريفاً لمكة المكرمة بدلاً من الشريف حسين الذي خان السلطان وخرج عن طاعته ، أخبرني صديق لي التقيت به عند محل يبيع اللوزية .. الحلوى الرائعة التي أوصتني أمي بالإكثار منها .. أخبرني أن احتفالات أقيمت لاستقبال الشريف الجديد وكان في استقباله بصري باشا محافظ المدينة وفخري باشا وأعيان المدينة وعلمائها ، وتوالت الخطب المرحبة .. كان فيها ذم للثورة وأخطارها على الأمة ، وذم لأفعال الشريف حسين ، كان استقبالاً حافلا .. ضُربت فيه المدافع وصدحت الموسيقى العسكرية بأنغامها المعروفة في ساحة العنبرية ، وحين تكون الطرق آمنة وينتصر فخري ويستطيع طرد الشريف حسين من مكة .. فإن الشريف علي حيدر حتماً سيذهب إلى هناك للقيام بمسؤولياته .

ليلة السابع والعشرين من رمضان تأتي بروحانيتها ، الكل يؤمل أن تكون ليلة القدر .. ، كنت أرى أثناء سيرى قلوباً مملوءة بالإيمان تلبس أجسادها وتسير بخشوع ، بعض أئمة التراويح يختمون قراءة القرآن هذه الليلة ، أما سيدي كمال فقد ختم يوم الخامس والعشرين .. كل من سمع قراءته يثني عليه ويؤمل أن يكون إماماً مشهوراً له مكانته ، رافقتُ سيدي عبدالله إلى الحرم، ، فيما مضى حاولت أن أكون إنساناً صالحاً لكنني أخفقت ، أردت أن أزيد أعمالي الصالحة هذه الليلة ، صليت بخشوع .. مررت على محلنا في سوق الحبابة .. كان أبي قد جهّز قطع ثياب بيضاء كعادته في ليلة القدر ، أخذتها معي وقمت بتوزيعها على المساكين أثناء عودتي للبيت .

سحورنا كان سمك ، تصر أمي على طبخه في مثل هذه الليلة ، في العام الماضي نهرها سيدي عبدالله عن ذلك ، فاعتقاد الناس بأن من يأكل

[1] ـ الوابور : أي القطار .

السمك هذه الليلة سيعيش للعام القادم أمر لا يجوز ، أما هذا العام فيبدو أن سيدي عبدالله قد يأس منها ، فقال مازحا :-

ـ السمك يهمس لي يا خديجة ، يقول لي (أنت يا ولد ستعيش سنة أخرى) .



القاعة[1] تهيأت تماماً ، النجفة الكبيرة في السقف يومض زجاجها ، أخي إبراهيم يرفض الثوب الجديد ويتمنى لو يرتدي في العيد البدلة البحّاري لتمنحه أناقة أكبر ، كوثر تقيس فستانها القطيفة بلونه الأخضر الضارب للسواد ، لم يستطع أن يخفي قصرها الواضح .. حين رأيتها قلت لها متمثلاً بقول ستي « يا بختك يا قصيرة ، زوجك يشوفك ويحسبك صغيرة » ، أدركت مقصدي الساخر منها ، فكان ردها سريعاً « اللي عاجبه عاجبه واللي ما هو عاجبه ينتف حواجبه » .

جاء العيد .. أمي تبدو نشطة أكثر من المعتاد ، تتفقد صحن الحلوى ومرشة ماء الورد ، تُلقي بعضاً من خشب العود في المبخرة .. تطلب من دادا حوا أن تُبقي الكانون ساخناً لعمل القهوة في أي وقت ، أما ستي فاطمة فهي تملأ صحن الحلوى باللوزية وصحن آخر بالغُريبة ، أمامها مصطفى الصغير ابن سيدي كمال .. تشجعه على المشي :

- تاتا حبه حبه .... تاتا خطي العتبه .

وحين يتعثر ، تشجعه على الوقوف والسير ثانية :

- تاتا حبه حبه .... تاتا خطي العتبه .

أبي كان حريصاً على لبس الساعة المسكوفي وإظهار علبة الدخان الفضية كلما أراد التدخين مع ضيوفه ، فيبدو في غاية الأناقة والثراء .

كنت منهمكاً طيلة العيد باستقبال المهنئين وصب القهوة وتعطيرهم عند خروجهم بماء الورد .

---

[1] - القاعة :حجرة واسعة في الدور الأرضي ، يتم فيها استقبال الضيوف ، ولها فتحة علوية (الجلا) تمتد للسطح مثل الديوان .

عم خليل المسحراتي كان مبتهجاً ، فعيده عيدان ، ففي صباح العيد استلم مكافأته عن تعبه طيلة شهر رمضان ، سمعته ينشد أمام بيت عبدالوهاب :

يا جاريه يا رمانه .... قولي لسِتك النعسانه

هات الغدا من الخزانه .... لا تأكليه كله أمانه .

منحته أمي نصف ريال مجيدي .. مضى وهو يدعو لبيت السيد عبدالسلام القوصي بقبول شهر الصيام .

أخي إبراهيم عاش عيده كأقرانه ، صحبته إلى المناخة ، أكتريتُ له حماراً دار به من باب الشامي وحتى مسجد الغمامة .. ركب عربية كارو مع أصدقائه وسار بهم بين المزارع القريبة ، تناول الأقر[1] البارد وأشتريت له كمية من حلوى السكرية بلونيها الأحمر والأبيض ، كان قلبه سعيداً ، فالصغار كالمرايا .. يعكسون السعادة بإخلاص .. بلا تزوير .. بلا إخفاء لمشاعر أخرى .

ثالث أيام العيد كان مرهقاً ، هو دور حينا .. حي الساحة في المعايدة من بقية أحياء المدينة، لم يخلو بيتنا يومها من المهنئين .. أمي ملأت صحن الحلوى والغُريبة عدة مرات .

تلك المعايدات رافقتها أحاديث قصيرة عما يحدث في مدينتنا ، قليل هم من يؤيدون الثورة ، وجُلهم يرى في التمرد معصية وتهور لا يعلم إلا الله ما ستجرنا إليه من ويلات وخراب ، أثار أحدهم قضية تخريب الأشراف للتلغراف والسكة الحديد وربما نجحوا في ذلك ، وهذا يعني انقطاع الأوامر من الشام وعدم وصول الإمدادات والجنود ، لكن كثيراً من الحضور استخف بهذا الرأي ، فلا قدرة للشريف حسين على ذلك والمخافر التركية على طول الطريق إلى الشام .

بالكاد وجدنا وقتاً لزيارة خالي محمد وستي ناجية (جدتي لأمي) التي تسكن معه في زقاق مظهر بحارة الأغوات .

---

[1] ـ الأقر : نوع من أنواع الحلا .

بعد العيد وصل المحمل الشامي مصحوباً بالصُرة السلطانية ، كان مناسبة جميلة حرصتُ على مرافقة شباب الحارة لاستقباله في محطة العنبرية ، انتظم الجنود صفين بلباسهم العسكري وصدحت الموسيقى الشاهانية وأُطلقت المدافع وأُلقيت الخطب ، كان سماع الموسيقى ومشاهدة المحمل هو كل ما يهمنا .

كانت انتصارات فخري تتوالي على مسامعنا ، استطاع أن يطرد جنود الشريف من أبيار علي وأبيار الماشي ولم يزل يُبعدهم عن المدينة لعشرات الكيلومترات ..لم يعد هناك خطر على المدينة .. أصبح اسم فخري يثير الرعب في قلوب جيش الشريف .. أصبحوا يدركون قسوته وحزمه وإخلاص جنوده في تنفيذ اوامره .. كان سيدي عبدالله يتحسر على الدماء ويردد « اللهم برحمتك .. بلطفك .. بكرمك أحقن دماء المسلمين » كان البعض يدعو لفخري بالنصر، أما أنا فلا أكترث بالدعاء له بل أتمنى لو مات قريباً ، إن قتله الرجال في موقعة العوالي وقربان .. والدموع التي تساقطت من عيني أبي في عزاء الشيخ يحي عباس كلها أمور لن أسامحه عليها .



صرخة مدوية جعلت من حوش فواز قلباً كبيراً يتلفت ويتألم .. العيون يهزها السؤال ، كنت وقتها أدخن سيجارة مع عبدالوهاب عند بيتهم ، لمحت جارتنا أم عدنان وجارتنا أم سالم تدخلان بسرعة إلى بيتنا ، اضطرب داخلي .. تركض الوساوس في رأسي كسيل متسخ يجرف حجارة مسننة ، قطعت المسافة جرياً ووقفت في الدهليز ، أخبرتني دادا حوا برؤية كوثر للساكن[١] في (الحينّية[٢]) فأطلقت صرختها تلك ، وقد غابت عن وعيها من الخوف ، كلنا نعرف أن الساكن يتخذ من الحينية مقراً له .

جاءت أمي حيث أقف ، طلبت مني إحضار الشيخ الزاكور، وحين سألتها عن كوثر ، أجابتني بصوت متهدج ووجه يلونه القلق :-

ـ يا عيني عليها يا منصور، وجهها أصفر لكن الحمد لله أفاقت الآن .. أم عدنان ظلت تقرأ عليها ، ومسحتُ وجهها بالماء المقروء عليه الذي أحضره سيدك عبدالله من المولد الأخير كما أني سقيتها ماء بطاسة الفجعة .

في الخارج كان ينتظرني عبدالوهاب ليطمئن ، حدثته بقصة الساكن .. سرنا إلى حوش البري القريب منا حيث يسكن الشيخ ، كان فارع الطول ، مكتنز الجسم ، هادئ الوجه ، يميل إلى السمرة ، رافقنا .. طلب من دادا حوا اشعال الفحم في الكانون ليلقي فيه أعشابه ، تصاعد الدخان ودخل الحينّية بعدما وصفت له أمي مكان الساكن وقد ارتدت الملاية والبيشة[٣] ، ظل يقرأ حتى أطل الثعبان براسه هادئاً ، وكأنه على معرفة كاملة بالشيخ الذي تناوله ووضعه في حقيبة من قماش ابيض ومضى .

---

[١] ـ الساكن : ثعبان كبير يستقر في البيت القديم ، يتحاشى سكان المنزل آذيته خوفا أن يكون جني متشكل ويؤذيهم .
[٢] ـ الحينية : مستودع صغير تحت الدرج يوضع فيه أكياس الفحم والحطب ومركب الماء والزير .
[٣] ـ البيشة : غطاء لوجه المرأة يثبت على الرأس ولا تظهر منه عينيها .

يُقال أن رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام نهى عن قتل ثعبان المدينة إلا بعد إنذاره ثلاثاً ، لذا اعتاد أهلها على استدعاء الشيخ الزاكور من أتباع الطريقة الرفاعية كلما أرادوا التخلص من الثعبان المقيم في بيتهم ، وعادة يُترك الساكن فلا يؤذي أحداً ولا يتعرض لأذى من أهل البيت .
خرجت الجارات ، شاهدتُ كوثر وقد زالت عنها آثار الصدمة والخوف، قلت لها مازحاً :
ـ ما هذا الصراخ ، طولك شبرين وصوتك لآخر الحوش .
ـ لو كنت مكاني، لكان صوتك سمعه من في الحرم يا منصور، يعني الولد جداً شجاع.. يا شيخ أسكت بس «أعمى ومكسح ويعاير ويتفصح »

*** ***

كالقمر وهالته .. كالزهر ولونه .. كنت أنا وكوثر ، أتصور أننا خُلقنا من طينة واحدة ، الحياة لن تسير بدون ماء وهواء وكوثر ، كنا متقاربين في العمر، لعبنا كثيراً في ساحة الحوش ، ترافقنا إلى المناخة أيام الأعياد ، قبل سنوات كانت تنسى أمر حجابها وتقوم بمطاردتي في الحوش حين أسخر من قصرها الواضح ، وتحاول أن ترميني بحجر فأحيد عنه وبالكاد أنجو من اصطدامه بي .
ذات مرة وهي تلعب مع بنات الحوش ، قام جارنا سالم بمسح خطوط لعبة ((البربر)) التي يرسمنها على الأرض ، شتمته كوثر بل وصعدت إلى السطح وقذفته بحجر سال معه الدم من رأسه ، كتم حقيقة الأمر عن أمه حين سألته عن سبب الجرح ، لا أدري إن كان ذلك شهامة منه أم حياء من الإقرار بفتاة تسيل دمه ؟ كنا دوماً نتذكر هذه الحكاية ونغرق في الضحك .
في أحد الأيام خرجت جارتنا أم عدنان من عندنا ، لاحظنا انزعاج أمي الشديد وضيقها وتوترها ، صور لنا عقلنا الصغير أن أم عدنان سبب ذلك وأنها أساءت إلى أمنا ، صعدنا أنا وكوثر إلى الأعلى ، قذفنا

سطحهم الملاصق لسطحنا بالحجارة ، سكبنا الماء عليهم ، ولكني نلت عقاباً قاسياً من أبي فقد لمحتني ابنتهم وأنا أقذف دجاجهم بالمقلاع (النبيلة) في حين أنها لم تشاهد كوثر .
بل أن ستي لم تسلم من عبثنا ، فكنا نفتح صُرة الودع التي تخفيها خلف المسند ، ونسرق عدداً من حبات الودع وكوثر تردد :
ـ في الغد ، حين تأتي الخالة أم سالم ، سيختلط الأمر على ستي فلا تدري كيف تخبرها عن عريس ابنتها .
الغريب أن حبنا لبعضنا يظهر دوماً بصورة خصام وسباب .. كالنار وخشب العود .. بانسجامهما .. باقترابهما .. تفوح تلك الرائحة الرائعة ، قلت لها صباح العيد الماضي وهي تمشط شعرها :
ـ « ما تفعل الماشطة بالوجه العكر » .
غضبت كوثر، رشت الماء على وجهي من كأس بجوارها ، وكاد يتطور الشجار بيننا ، لكن ستي أنهته بتوبيخي :
ـ عيب عليك يا ولد ، عجيب والله ، « سكتنا له ، دخل بحماره » .
كوثر كاتمة أسراري .. بالطبع ما يليق أن تعرفه أنثى .. نتحدث في كل شؤون الحياة .. إلا الحديث عن ثورة الشريف .. هي تجهل هذه الأحداث تماماً ولا تبالي بها .. فمثلاً حين يتردد اسم فخري باشا وبصري باشا كانت تعتقد أنهما من الباشوات الأتراك الذين يمرون على أبي في محله بسوق الحبابة ويبتاعون منه.. لا تعلم أن الأول قائد المدينة العسكري بل تم ترقيته إلى قائد قوة حملة الحجاز .. والثاني محافظ المدينة وقد عينتهما الحكومة العثمانية بفرمان خاص بهما ، هي تعرف قصتي مع بدرية وكثيراً ما نقلت الرسائل بيننا وتعرف رغبتي بالزواج منها ، أما هي فتتمنى تأجيل زواجها رغم بلوغها السبعة عشر عاماً ، أمي تنزعج كثيراً من ذلك وتردد :

ـ كلما تقدم لها عريس ترفضه ، لا يعجبها أحد ، صدق من قال « بطيخ ما ناكل .. خربز يؤذينا ، قريب ما نعشق .. غريب يروح ويخلينا » .. لا أدري متى تتزوج هذه البنت .. وأبوها أيضاً يطيع رغباتها .

حين تراني قادماً من بيت عبدالوهاب تقول ذلك المثل الشائع :

- « اجتمع المتعوس على خائب الرجا ».

وعند تأخري في المساء تردد :

ـ « تغيب غيبتك وتجي بخيبتك » .

تعودتْ على الصعود إلى السطح للثرثرة مع زبيدة ابنة الجيران ، فالفاصل بين السطحين جدار قصير ، ولا تنزل حتى تناديها أمي أو بمعنى أدق تصيح بها للنزول .



عدت للخروج مع الأصدقاء بعد صلاة العشاء كما هي عادتنا قبل رمضان ، نصلي العشاء في حصوة الحرم خلف حديقة ستنا فاطمة وألتقي هناك بعبدالوهاب وعيسى فلاته وخالد قطان ونسير معاً إلى قهوة البرادي بالمناخة ..وصلناها اليوم متأخرين قليلاً .

جلسنا على كرسي الشريط بالقرب من عم شاكر الحكواتي .. الكل ينصت له .. أكمل قصته عن أبي الفوارس عنترة بن شداد وعرج على مهارة أخيه شيبوب في الجري ومسابقة الغزلان .. ذكر حنان أمه زبيبة الحبشية وتوقف عند قوله :

ـ وكانت سمية زوجة أبيه تحيك له المكائد ومن ذلك أنها قالت لأبيه ذات مرة (إن عنترة يراودني عن نفسي) فغضب أبوه غضباً شديداً .... ونكمل بإذن الله في الليلة القادمة .

رجونا عم شاكر أن يكمل القصة لكنه رفض ، هو دوما يقف عند جزء مشوق من الحكاية ويجبرنا على الحضور في اليوم التالي ، كان صوته جهورياً ، ونبراته تتناغم مع أحداث القصة فصوته حين الغضب غير صوته حين الحب ، غيره حين الحماسة والحرب .

كان حديثي بعدها مع الرفاق عن المدينة وأحوالها ، ففخري لم يزل يطارد جنود الشريف ويبعدهم عن المدينة بل أن هناك أقاويل برغبة فخري بالهجوم على مكة والقضاء على الثورة من جذورها .. تمنيت لو نجح فخري في ذلك .. ليس رفضا لثورة لا أعرف إن كانت على حق أم لا .. بل ليعود الهدوء إلى مدينتي .. تنعم بالرخاء الذي كانت فيه .. تفتح الطرقات وتأتي البضائع الكثيرة إلى أبي من ينبع وجدة .. ويتمكن الحجيج من الذهاب إلى مكة .. عيسى أكد على استمرار أبناء الشريف حسين في تخريب سكة الحديد وقطع أسلاك التلغراف لكن المهندسين الأتراك بارعون في اصلاح السكة كلما احتاج الأمر إلى ذلك ، كالعادة

ثار الجدل بيننا عن فخري الذي يدافع عن المدينة ضد الأشراف ، وعن الشريف حسين وتسببه في كل ما نحن فيه بإعلان ثورته ، عيسى يدافع عن فخري بشدة .. ويتعجب من معارضتي له .. والحق أنه كان أكثر مني إلماماً بالثورة ودوافعها وأخطارها المحتملة .

عند افتراقنا تواعدت مع خالد قطان على لقائه بالغد لنؤدي معاً صلاة العصر في الحرم ، بعدها نمشي إلى سوق الحبابة ، كان محلهم مقابلاً لمحلنا وكان خالد يساعد أبيه في ندف القطن وحشوه في الوسائد والأرائك .

كعادتي أقضي الليل تحت النجوم ، لبعضها ضوء باهت ، أُنزلها .. أمسح عليها .. أحدثها عن بدرية وأمنحها اسماً .. وأعيدها إلى مكانها وقد اكتسبت بريقاً رائعاً ، في الغد سأطرق الباب ، تفتح بدرية نافذة الروشان الصغيرة ..تلتقي نظراتنا .. تولد ذكرى جميلة .. تكبر .. أربيها .. أجمعها مع أخواتها .. كلما كثرت ذكرياتنا الجميلة أصبحنا أطول أعماراً ، سينساب صوتها كنغمات الطيور ، كدواء يشفي من جروح القلب ، وهي تقول .

ـ أخي خالد موجود .. يرتدي ملابسه وينزل ، إن شاء الله .

سمعتُ عن الغابة .. أشجار عالية متداخلة تحجب ضوء الشمس .. العصافير يتداخل غنائها مع خرير الماء.. الظلال تتمدد كبساط يغري بالجلوس ، دوماً أتذكر الغابة حين أسمع صوت بدرية .

*** ***

قضيتُ النهار مترقباً موعدي مع خالد ، الوقت يكون أسرع بالجلوس في المحل ، في مثل هذه الأيام من العام الماضي كانت حركة الشراء أكثر لوجود الحجاج والزائرين .. قلّت أعدادهم بعد نشوب الحرب الكبرى من سنتين .. في هذه الحرب الكونية أغلقت البحار .. لم يعد الحجاج يأتون من شرق آسيا أو إفريقيا كما السابق ، أصبحتُ أكثر يقظة مع أسعار العملات المتنوعة التي تنتشر بأيدي الحجاج والزوار .. يشتكون كثيراً

من غلاء الأسعار وهذا الأمر ليس بمستغرب .. فالبضائع لا تصل بسهولة إلى ميناء ينبع أو جدة من الهند أو مصر .
حين جاء الموعد ، قطعتُ المسافة بين حوشنا وزقاق (كومة حشيفة) بلا اقدام، بلا خطوات .. كنت أسير على نبضات قلبي التي تكبر وتكبر، أسمع صوته وصخبه وشوقه كلما زاد اقترابي من بيت خالد ، هل أفوز بنظرة منها ؟ أو أسمع صوتها فقط من وراء الروشان ؟ أو لعل أخوها الصغير هو من يتعجل في فتح الباب وينادي خالد .
يبدو أن الطريق زاد طوله .. شجرة النبق في شارع الساحة أضحت أكثر أوراقاً وأقل انتظاماً، ها هي بدرية تفتح بحذر نافذة الروشان الصغيرة لتلتقي نظراتنا .. ويفتر فمها عن بسمة كقمر حين تنقشع عنه سحابة ، كحنو الأقدار ، كتنفس الصباح .. ما أروعك يا بدرية .. قلبك الأخضر يجعلني أتسع كسماء حنون تريد أن تهطل مطراً ناعماً يسقيك الحب ، صوتك ينساب بهدوء له رائحة معمول خارج لتوه من الفرن:
ـ سيخرج لك خالد ، انتظر قليلاً
المسافة التي بيننا أصبحت مليئة بالمطر .. بالرياح .. بكائنات غريبة تتجول هنا وهناك .. بالشجر والورود .. ما أجمل أن ينحصر العالم في مسافة .. طولها أمتار .

*** ***

بداية معرفتي ببدرية كانت سيئة ، سيئة جداً ، كنتُ صغيراً ألعب مع خالد أمام بيتهم ، تستهوينا دوماً لعبة الكبوش[1] ، اختلفنا كعادة الصغار، علت أصواتنا ، تماسكنا بالأيدي ، ألقاني خالد أرضاً وبدأ يكيل لي اللكمات ، استطعتُ بقوة أن أدير الوضع ورحت بدوري أكيل له اللكمات ، رغم صغري شعرت بقسوتي وقوتي .

[1] ـ الكبوش : عظام صغيرة تستخرج من كعب الأغنام وهي بمثابة المفاصل الصغيرة ، ويلعب بها الصغار بعد تنظيفها .

جاءت حينها بدرية بجسمها النحيل لتبعدني عن أخيها ، دفعتها بقوة فسقطت أرضاً وقامت يعلو صياحها وبكاؤها وجرت إلى البيت ليلحق بها خالد ويطمئن عليها ، لذتُ بالفرار خوفاً من جرح أو كسر قد أصابها نتيجة دفعي لها .

بعد ساعة حضرت أم خالد إلى بيتنا ، شكتني إلى أمي ، ووصل الخبر لأبي .. نلت ليلتها عقاباً شديداً بعصا الخيزران على ظهري ، كنت أشعر بخطوط الألم تمتد على ظهري وتنهشني ، بل أكاد أعرف ألوانها من كثرة ما رأيتها سابقاً في أنحاء جسمي ، وأعرف درجة الألم الخاصة بكل لون ، ولم يكتف أبي بهذا العقاب ، بل منعني من الخروج أسبوعاً بأكمله ، مما زاد من حنقي وغيظي ومنحني وقتاً لوضع خطة كاملة للانتقام من بدرية .

مضت ثلاثة أيام ، كانت آلام الحبس أشد على نفسي من آلام الظهر ، أجد نفسي أشبه بدجاجة وضعت في القُن ، أو قطعة قماش بالية في صرة الملابس ، رجوت أمي بالخروج إلى الحوش وقت غياب أبي ، رفضت وسمحت لي بالجلوس على دكة الدهليز ومشاهدة الأولاد يلعبون في ساحة الحوش وهذا زاد من ألمي وقهري .

جاء خالد ليبلغنا برغبة أمه في زيارتنا ، أظن أن أمي سألته عن حال بدرية وأخبرته بتعرضي للعقاب بسبب ما كان بيننا ، سمعته يقسم بأني لم أكن أقصد إيذاء بدرية بل تعمدتُ ابعادها عني أثناء العراك ، كان يجتهد في تبرئتي أمام أمي ، شعرت بحبي لخالد ، بل أخبرني بعدها أن بدرية افتعلت الصراخ والبكاء بقصد إيقاف عراكنا ونجحت في مقصدها ، ولكنها لم تتوقع نهاية كهذه .

بعدها توطدت علاقتي بخالد ، أصبحنا متلازمين ، يجدني بجواره كلما احتاج مني أمراً مثل مشاركة في عراك أو مرافقته في نزهة إلى جبل أحد أو أحد مزارع المدينة ، كما كنت أجده دوما إلى جواري في كل ما أحتاج إليه .

كبرنا ، تحجبت بدرية فلم أعد أراها ، ولكن أسمع صوتها حين أسأل عن خالد ، تجيب على ندائي من فتحات الروشان ، مع مرور الوقت أصبحت أحضر إلى بيت خالد كثيراً ، لأسمع صوتها وأدعي أحياناً أني لا أسمع لتكرر تأكيدها بوجود خالد ، كان صوتها يدغدغ مشاعراً في داخلي ، كنت أتمنى المجيء كل يوم للسؤال عن خالد .

ذات مرة رفعتُ عيني إلى نافذة الروشان ، كانت بدرية تطل بوجهها وتطلب مني الانتظار لحين فراغ أخيها من ارتداء ملابسه ، لم يكن هذا معتاداً ، فعادة تنظر الفتاة من فتحات الروشان الضيقة التي لا تسمح للآخرين برؤيتها . صحيح أنها أغلقت النافذة بسرعة لكني تمكنت من رؤيتها ، سبحان الله ما أجملها ، ورثت عن أمها التركية بياضها وزرقة عينيها وجمالها ، ومن أبيها ذي الأصول المصرية استقامة الأنف واتساع جبينه، جمعت من ملامح الاثنين فكانت أية في الحسن والجمال.

في المرة التالية لم تُغلق بدرية نافذة الروشان بسرعة كما فعلت في السابق ، أهدتني كل ملامح وجهها وتفاصيله الحبيبة، وتلك الابتسامة التي أصبحت جزءاً من عمري ترافقني أينما كنت ، علمتُ أن قلبينا يضج بمشاعر واحدة ، وأن كل منا يبحث عن صاحبه وينتظره .. من هنا بدأت قصة حبنا .

كوثر أول إنسانة علمت بحبي ورغبتي بالزواج من بدرية ، أما سيدي كمال فحين صارحته في رجب الماضي وقبل أن تدهمنا الأحداث الأخيرة ، امتدح بيت القطان وما ذاع عنهم من خلق كريم وسماحة في التعامل ، بل وعدني بمكاشفة والدي وحتماً سيوافق بإذن الله ، فقد بلغتُ التاسعة عشر من عمري وأعمل في محل أبي في سوق الحبابة واختياري لأهل العروس اختيار موفق ، يومها شعرت أن النجوم تهبط إلى صدري لتهنئتي وتشيع فيه ضوءاً رائعاً وجميلاً .

صيف المدينة .. قاسٍ جداً ، يبرز مخالبه .. يكشر عن أنيابه كقطة متوحشة ولدت لتوها ، تحسب أن الجو سمٌ وبلاء كما يصفه أبي .. قبل عامين وفي مثل هذه الأيام ، دخلت البيت متأففاً وساخطاً على شدة الحر ، انتفض سيدي عبدالله وصرخ في وجهي :

ــ إن الله اختارك لجوار حبيبه عليه الصلاة والسلام ، لتفوز بأجر الصلاة المضاعف في حرمها ، لتنال الحسنات بصبرك على حر المدينة وبردها ، ثم تتأفف وتتضجر ، اسمع يا منصور لا أحب أن أراك بعد اليوم تشكو من حر المدينة أو بردها .

كنت أسير في شارع الساحة بعد الفجر ، حتى الصباح جاء منتفخاً بالحر ، دخلتُ البيت حاملاً معي الشريك أبو سمسم والجبن والزيتون والفول لطعام الإفطار.. كان أبي يتحدث إلى سيدي عبدالله عن أحوال المدينة .. يتذكر أبي أول حادثة لتخريب القطار .. فجيش الشريف تعمد نزع مسامير السكة الحديد .. مما أدى إلى انقلاب إحدى القاطرات عند مرورها .. كان سيدي عبدالله يتعجب من محاربة المسلمين لبعضهم .. لا يرى مبرراً لمحاربة جيش الشريف لإخوانه المسلمين والحرص على قتلهم .. كان صوت أبي هادئاً كعادته في الحديث مع سيدي ..

ـ يا أبي .. الشريف حسين أوعز إلى جيشه بأن الأتراك ما هم إلا ألمان كفار لا يؤمنون برسولنا عليه الصلاة والسلام ، يقولون يا أبي أن جندي الشريف يوجه سلاحه على التركي وهو يصيح .. نصراني كافر .. وحين يؤذن التركي بالآذان ليثبت لهم أنه مسلم ، يتهمه خصمه بالكذب ويطلق عليه النار .

يحوقل سيدي .. يسأل الله النجاة والسلامة من هذه الفتنة العظيمة .

في الجانب الآخر من القاعة .. سمعتُ ستي فاطمة تقول لأمي :

ـ لازم نقوم بتنظيف البيت يا خديجة ، يا بنتي « كنّس بيتك و رشوا ، ما تدري مين يخشوا »
ـ لِمَ يا خالتي ، لن يكون هناك ضيوف في بيتنا ، دبش[1] مريم سيخرج من بيت أبوها عم يس بخاري ونكون معهم لمساعدتهم .
جاء موعد خروج الدبش .. اجتمع الحمّالون مع كبيرهم ، قرابة مئة حامل .. ساروا في طابور طويل ، يتقدمهم شيخ الحمالين بزيه المميز وعلى رأسه المصحف الشريف وخلفه صاحبا المرايا الكبيرة التركية ، يليه بقية الطابور ، منهم من يحمل وسادة النوم ، وآخر يحمل حنفية الماء ، وعلى الجانبين نساء يحملن المباخر ويزغردن طوال سير الموكب .. خلفنا يجري الأطفال فرحين بالحلوى التي تُلقى عليهم من الرواشين ، كنا نُمسك بأيدي الفرح وندعو لمريم بالسعادة والتوفيق حتى وصلنا إلى بيت زوجها في حوش كرباش بالقرب من المناخة . ، وكنت في داخلي أردد :
ـ متى ينتقل جهازك إلى بيتنا يا بدرية ؟ يومها سأخرج قلبي ليسجد لله.. ويقول يا رب شكراً لك ..قد حققت مبتغاي .
كنت أسير بجوار صديقي عبدالوهاب .. سعادته كبيرة بقرب زواج أخته بعد أيام .. ينّبه الحمّال للحفاظ على أثاث مريم .. لسنوات وعبدالوهاب يعمل في أعمال الحج .. فأبوه لديه تقرير حجاج طاجكستان .. أي هو القائم على توفير كل احتياجاتهم في المدينة وتوفير الجمال والشقادف[2] للسفر إلى مكة ، كان على عبدالوهاب استئجار عربات الكارو وعربات الفيتونة[3] لمرافقتهم إلى زيارة الأماكن المأثورة مثل أُحد والقبلتين وقباء وغيرها.. كانت أسرة يس بخاري تعيش في ثراء ورغد عيش ، حتى

---

[1] ـ الدبش : ملابس العروس وأثاث بيتها ، وكعادة أهل المدينة يخصص أهل العروس يوم لنقل الدبش إلى بيت الزوجية .

[2] ـ الشقدف : يشبه الهودج ، يشد على ظهور الجمال ويصنع من الخشب وله ستائر على الجانبين ، يرتاح فيه المسافر طوال رحلة السفر .

[3] ـ الفيتونة : عربة يجرها حصان أو حصانين ولبعضها ستائر تحجب من بداخلها .

نشبت الحرب الكبرى وقل كثيراً وصول الحجاج بعد غلق البحار ، وضاقت بالأسرة سبل الرزق .. بل وتردت أحوال جميع الأهالي في المدينة .. فالحجاج هم مصدر رزقهم ، ومما زاد الأوضاع سوءاً هذه الحرب مع الشريف حسين ، وإغلاق الطرق إلى مكة .

كنا نحرص على صداقتنا .. نترافق دوماً ومعنا خالد قطان وعيسى فلاته .. شلة رباعية رائعة .. نذهب لمشاهدة القشاع[1] بين أولاد الساحة وأولاد المناخة .. يحلو لنا إذكاء حماس اللاعبين وبث روح القتال في أبناء الساحة .. تعاهدنا فيما بيننا على عدم المشاركة في هذه اللعبة بعدما شاهدنا صديقنا سلمان يُقتل أمام أعيننا .

كان ذلك في العام الماضي حين كنا نشارك في لعبة القشاع وكان سلمان يجيد التمدين .. كان هو مِشكل الحارة وكبيرها في هذه اللعبة عند غياب حمودة الاشتف ، كان قويا له طباع واضحة كرائحة النعناع المديني .. ورغم صغر سنه إلا أنه كان بطلاً في النزال ، لطالما استطاع إصابة (أبو فقشة) مِشكل حارة المناخة إصابات مؤلمة بارعة غير قاتلة وذلك مهارة لا يجيدها أي أحد ، مع مرور الأيام تولد عند أبو فقشة حقد دفين ورغبة في الثأر .

في ذلك اليوم بدأ اللعب بين الاثنين ، كنا نثير حماس صديقنا سلمان ونبدي إعجابنا برشاقته ومهارته ، كاد أن ينتهي النزال بسلامة الاثنين دون فوز أحد منهما ، لكن لحظة غفلة من سلمان انتهزها خصمه ووجه ضربة قاتلة على رأسه ، ضربة لا يأتي بها إلا جاهل أو عدو حاقد ، نزف الدم من رأس سلمان ووقف اللعب ، حاولنا كبس الجرح بالبنّ كما هي العادة .. لم يتوقف الدم .. كان غزيراً وفارق سلمان الحياة ، رحمه الله مات أمامنا .. في منظر لن ننساه طيلة عمرنا .

---

[1] ـ القشاع : فن الدفاع عن النفس باستخدام العصا . وتظهر فيها مهارة استخدام العصا أو ما يسمى التمدين .

تباً لك يا دنيا .. تأخذين الأحباب من بين أيدينا .. الموت يختبئ قريباً منا .. كأسد يظل متوارياً .. ينظر للقطيع ليختار فريسته .. ليقضي عليها .. إنه ماكر لئيم .. لا ندري من يختار .. إن الله أخفاه عنا .. لكنه حقيقة لن ينكرها مسلم أو كافر .

أصبحت من يومها أضمر الكره لأبو فقشة ، وكلما فتشت قلبي لأطهره كما يطلب منا سيدي وجدت فيه فخري باشا وأبو فقشة وعم حسن الفران جاسوس أبي . كرهي لهؤلاء الثلاثة لا يريد أن ينتهي .

ليس هناك قِصاص لهذه اللعبة اللعينة ، .. كان الأمن ضائعاً في مدينتنا ، فبصري باشا محافظ المدينة كان ضعيفاً ويبدو أن الزمام فلت من يده .. تمت حالات قتل في الحماطة ولم يتم فيها القصاص ، بل أن الجميع يعتبر القشاع لعبة يتحمل اللاعبون ما يحدث فيها . وصار هناك عرفاً على توقف اللعب حين ينزف الدم من أحدنا ويعلن المِشكل بأن الدم مدفون أي لا يتم إبلاغ الشرطة ، ليرد الطرف الآخر (على مثلها وسواها) أي أن الثأر يكون في المرة القادمة .

كثيراً ما شاركت في هذه اللعبة ، كنت من المحترفين فيها وأجيد التمدين ، بل لي عصا من شجر السنط أغرقتها بشحم الغنم ودفنتها سنة كاملة تحت التراب اسميتها عين الذيب إشارة إلى يقظتها وذكائها ، كما أني أجيد لعب المزمار والضرب على النقرزان[١] ، وأجتهد في ابتكار أهازيج الزومال[٢] .

كان عبدالوهاب يرجونا للنزول إلى ساحة اللعب ولكن نرفض بشدة ونتجه به سريعاً إلى الحرم .. نجلس في الحصوة .. نصلي العشاء .. لنتجه بعدها إلى عم شاكر الحكواتي في المناخة ونقضي عنده بقية ليلتنا .

---

[١] ـ النقرزان : طبلة صغيرة تُقرع بخشبتين صغيرتين أثناء لعبة المزمار .

[٢] ـ الزومال : كلمات تتناغم مع أنغام رقصة المزمار ، وتشمل الترحيب بالطرف الآخر والتفاخر ومدح الخصال الحميدة .

(-٨-)

مثل حجر يصيب الرأس فجأة .. تأتي أوامر أبي .. تهجم عليّ :
ـ في الغد .. تذهب للمزرعة .. تُحضر ثلاث صفائح من التمر .. ستجد مرجان قد أعدها لك .

مزرعتنا تقع في منطقة العيون .. خطر ببالي خالد قطان لمرافقتي إلى هناك ، طرقتُ باب بيتهم فأنساب صوت أم خالد من الدهليز هادئاً حنوناً كرائحة الورد حين يفوح من كؤوس الشاي :
ـ أدخل يا منصور .. لست غريباً يا ولدي .. على يسارك المقعد .. تفضل الله يحييك .. خالد سيأتي بإذن الله بعد قليل من حلقة الخضار .

جلستُ أنتظر ، أتأمل العوارض الخشبية في سقف المقعد ، الأغطية ناصعة البياض تتمدد بكرم على الوسائد والأرائك ، كل شيء وضع بعناية وعليه لمسة النظافة الواضحة .

سمعت طرقاً ناعماً على باب المقعد ، فتحتُ لأجد صينية عليها كأس عصير الليمون وتحته رسالة ، لابد أنها من بدرية ، خبأتها بسرعة في ثوبي .. شربت العصير متلمساً بشفتي كل مكان من الكأس لعل يد بدرية قد لامسته .

جاء خالد وبعد كلمات الترحيب عرضتُ عليه مرافقتي .. أذنت له والدته وسرنا حتى المناخة .. يا الله كم تثير الحزن في نفوسنا ، أين الجمال والشقادف والباعة التي تفترش ساحة المناخة في مثل هذه الأيام من كل عام ؟ أين الضجيج والأصوات بلغات مختلفة ؟ أين الحجيج الذين يستعدون للسفر إلى مكة ، أين الخيام المنصوبة وبداخلها النساء .. أضحت المناخة مثل صينية بلا طعام ، كثير من الأهالي والمجاورين فقدوا مصدر رزقهم من الحج والحجيج ، وأضحت حالتهم تدعو للرثاء ورغماً عن ذلك يتعففون عن السؤال .

استأجرنا عربة الفيتونة من عم بكر بالمناخة .. مررنا من باب الشامي أحد أبواب سور المدينة ، إلى منطقة العيون ، تعرضنا عند البوابة إلى سيل من الاسئلة عن وجهتنا ، يبدو أنهم يخافون اتصال أحد الأهالي برجال الشريف حسين .

قطعنا المسافة إلى المزرعة ، حدثتُ خالد عن رغبة فخري باشا في جمع تمور المدينة بقصد تخزينه ليكون طعاماً للجند الذين امتلأت بهم مدينتنا ولم يزل القطار مثل أرنبة خصبة .. يلفظ بغيرهم كلما جاء من الشام .

حتى ذلك الحين .. لم أجد مبرراً لفعل فخري باشا .. فهو منتصر والكل يؤمل أن يذهب إلى مكة ويقضي على الثورة هناك .. بعضهم يقول إن المسافة إلى مكة بعيدة ومن الخطر السير إلى هناك .. فقد تهاجمه بعض القبائل المتحالفة مع الشريف حسين ، لِمَ يجمع فخري التمر والوابور يأتيه في كل مرة بكمية من أغذية الشام ؟ ولماذا أبي يلجأ لذلك ؟ لا تبدو بوادر خطر في الأفق .. ولكن حتماً أبي يخشى من استئثار فخري بكل التمر، فهو يقوم من باب الحيطة بتخزين التمر .

أحضر مرجان صفائح التمر ، وضعها في الفيتونة وأحكم عليها غطاء الحنبل حتى لا ينتبه إليها الجند عند دخولنا إلى المدينة ، كان المكان مغرياً بالجلوس تحت النخل ..الاستماع لصوت السانية التي يديرها أحد البغال .. صوتها يشبه نداء عاشقة .. تهبط لأسفل بأمل .. وتصعد والماء يتدفق منها بنجاح ، تمنيت لو نملك الوقت فنشرب الشاي المعطر بالنعناع من يد مرجان ، كم أحبه فهو لم يزل وفياً لنا ، اشتراه أبي قبل سنوات بعيدة من دكة العبيد في مكة بعد الحج و حرره منذ سنوات من عبوديته ورقه ، لكنه أصر على العمل مع أبي في المزرعة مقابل أجر معلوم .

أوقفنا أحد الجنود الأتراك عند البوابة أثناء عودتنا وطلب منا إزاحة الغطاء .. اكتشف وجود صفائح التمر .. سألنا عنها ، أجبته بأنها هدية

من أبي عبدالسلام القوصي إلى غالب باشا شعلان ، لم أكد أنطق اسم غالب باشا حتى سمح لي الجندي بالمرور .

شعرتُ بالزهو بنفسي وبالألم في الوقت نفسه ، كنت لا أجيد في هذه الحياة أكثر من لعبة القشاع والكذب ، القشاع تركته بعد مقتل صديقنا سلمان ، أما الكذب فكلما وقعت في حرج أجده يسبقني إلى لساني حتى قبل أن أفكر ، لو كان الكذب يتجسم .. لكنت أجر ورائي قبيلة من الكذب ترافقني وتشهد عليّ .. كنت بارعاً فيه فلا أتلعثم ، بل أتحدث بكل ثقة حتى أوحي للآخر بمدى صدقي ويقيني ، كنتُ أتألم لأن الكذب يُخرجني من زمرة المؤمنين كما يقول سيدي ، فالمؤمن لا يكذب .

ضحكنا بعد أن نجونا من الجندي ، قال خالد :

ـ التمر أصبح من الممنوعات ، علينا بعد ذلك تهريب النوى تحت ثيابنا.

ـ لا أدري ماذا يريد أن يصنع بنا فخر الطين ، ولا إلى أي مصير سيقودنا .

ـ هو حتما قد ركبه الجنون .. إن مستوري الحال ينتظرون التمر هذه الأيام لتخزينه .. ليكون طعامهم طيلة العام .

ساعدني خالد في إنزال صفائح التمر ، ووضعها تحت فرش النوم في الطيرمة كما أوصى أبي، تعجبتُ حين وجدت كيساً من الأرز وآخر من الدقيق وصفيحة سمن ، قال خالد :

ـ لعلكم تريدون نقل محلكم من سوق الحبابة إلى هنا . ؟

ضحكت من قوله.. لكني متألم من داخلي .. لابد أن أبي يتوجس خيفة من قادم الأيام.

شكرت خالد على رفقته وتجشمه العناء معي ، تركني ليكمل سيره إلى منزله في كومة حشيفة .

أوصلت عربة الفيتونة إلى عم بكر بسرعة ، كنت متلهفاً لقراءة الرسالة المخبأة في ثوبي .

*** ***

رسالتها معطرة بالياسمين .. بأنفاسها .. بألحاظها ، أما عطر حروفها :-

بسم الله الرحمن الرحيم
منصور
انتظرتك .. انتظرتك طويلاً ، أقضي سحابة نهاري أتردد على الروشان ، أفتح النافذة الصغيرة وأمد بصري لآخر الزقاق ، أؤمل نفسي بمجيئك تسأل عن خالد ، فيسعد قلبي بنبرات صوتك ، وتهنأ عيني برؤيتك .. وتزغرد الأجواء بفرحتي .. لكنك لا تأتي .. لا تأتي يا منصور ، في المساء أعود لأفتح نافذة الروشان ، ليس بقصد انتظارك ، بل لأشكوك لكل تفاصيل الزقاق التي حفظتها في النهار .
كثيراً ما أقف أمام شجرة النبق في شارع الساحة لمعرفتي بحبك لها ، أحدثها بترقبي وانتظاري .. بقسوتك وقلة مبالاتك بي ..تبدي موافقتها على ذلك .. أوراقها مسكينة تظل تسمع مني وتذبل بآهاتي وألمي .. أغصانها تميل نحوي تربت على كتفي وتتركني وفيّ أمل بأن تأتي ويبتسم حظي .
حين أراك يا منصور ، تصبح الأوراق الخضراء المنثورة على فستاني أكثر نضرة ، ترقص الزهور المجاورة لها .. حينها أتمنى لو استطعت انزال القمر لأغنى له أغاني النوم فيغفو حالماً فرحاً كما لم يكن طيلة عمره ، حين أراك أرى معك عصفوراً صغيراً يغرد بأحلى الكلمات ، وحين تغيب يصعد هذا العصفور فوق رأسي وينقر بكل الوساوس التي لا أعرف كيف أبعدها وأخرسها .
عند نومي أتدثر بغطاءي وألمي ودموعي ، وعند يقظتي أزيح غطاءي وتبقى دموعي .. تناديك .. ترجوك أن تأتي .. أن ترحمني من شوقي إليك .. بخيل أنت يا منصور .. في حضورك .. في رسائلك .. في كلامك ، تُشعرني أني أقف أمامك بكامل مشاعري وعواطفي وندائي ، فتنتظر إلى رجائي وترقبي .. لتقول لي أخيراً ((الله كريم)) .

متى تدرك أيها الرجل أني لستُ شحاذة تقف بباب قلبك لتتصدق عليها بنظرة أو بكلمة ، أو تقبع عند قدميك ترجوك أن ترحمها من شوقها وعذابها .. أحيانا أجد لك عذراً وحين يزيد غيابك أعود لعتابك .. وكأني جمر يشتعل حيناً ويخمد حيناً لكنه أبداً لا يصير إلى رماد .
دمت بكل الخير

بدرية
٢٠/ ذو القعدة /١٣٣٤ هـ

مضى يومان على تاريخ الرسالة .. يبدو أنها كتبتها ولا تدري كيف توصلها لي حتى أتيتُ اليوم مصادفة ، أردت كتابة جواباً لرسالتها حين وجدتُ الفرصة مواتية بعد العصر، لكن صوت أمي وهي تناديني جعلني أؤجل الكتابة :ـ
ـ نعم يا أمي ، تحتاجوا شيء ؟.
ـ أخوك إبراهيم لم يأت حتى الآن من الكُتّاب .. قد أوشك الشيخ النجدي أن يعلو صوته بآذان المغرب .
ـ حسناً يا أمي ، الآن بإذن الله أذهب للبحث عنه ، لا تقلقوا .
إبراهيم كان في كُتاب الشيخ العريف بن سالم بباب المجيدي ، يذهب باكراً بعد الإفطار ويظل هناك حتى صلاة العصر فيؤديها في الحرم مع زملائه ليعود بعدها إلى البيت .
في أثناء سيري في شارع الساحة .. لمحتُ سيدي محمد علي الدرويش .. كان يمرر يده على شعر طفل فقير .. يظهر ذلك من ثيابه الرثة وعلامات الجوع البادية عليه .. أخرج من جيبه قطعة حلوى ناوله إياها .. بل رأيته يستوقف الطفل وأظنه يبحث عن أحد المارة يأخذ منه قرشاً ليشتري للطفل ما يسد به جوعه .. هذه عادته التي آلفناها ، ولا يخلو جيبه من قطع الحلوى للصغار .. كانوا يحبونه .. لكن شقاوتهم تجعلهم يجرون أحياناً وراءه مرددين كلمات ساخرة منه .

لم يطل بحثي عن إبراهيم فقد وجدته خارجاً من حوش الجمال يتلفت يمنة ويسرة بحذر ، كان تأخيره يعود إلى خصومة وعراك مع زميله طارق صفرجي ، وحكى لي القصة :ـ

ـ أخفقتُ يا سيدي منصور في حفظ سورة الحاقة ، ناداني الشيخ .. امتثلتُ أمره .. مشيت إلى الدكة التي يجلس عليها .. أخذ بضربي على قدمي وظللت أصيح وأبكي من الألم .. حين عدتُ إلى مكاني ظل طارق يضحك ويصفني بـ ((الخرنته)) .. انتظرتُ لحين خروجنا من الكُتاب .. أوسعته ضرباً وهربت ، فهو حتماً سينادي أخيه الأكبر ، جريت وانحرفت إلى حوش الجمال حتى يفقدوا أثري ، فإن وجدوني استنجدت بزميلي حامد وأبناء حارته ، وحين اطمأننت وشعرتُ أنهم فقدوا أثري تماماً ، خرجت من الحوش ووجدتك أمامي .

ابتسمتُ في داخلي ، فكلمة خرنته التي تعني الولد المدلل مسبة لا تغتفر.. فكثيرا ما سببت خصومات أثناء دراستي في كُتاب القبة في المناخة ، عذرتُ إبراهيم على تصرفه ، لكن أبي لم يعذره ، فقد سمعتُ صراخ إبراهيم وهو يتألم من لسعات الخيزرانة :

ـ أتوب يا أبي ، لن أعود لهذا الخطأ يا أبي ، آخر مرة يا أبي .

قبل صعودي للنوم على السطح ، كتبتُ رسالتي إلى بدرية على ضوء الفانوس المعلق :

بسم الله الرحمن الرحيم

بدرية الحبيبة

قرأت رسالتك .. قرأت العتاب الذي فيها ، ولابد أن حبك لي هو سبب عتابك .. ولكن ظلمتني يا بدرية ، فكيف تصفينني بكل هذا ، ولو تعلمي مقدار حبي لك وحنيني الذي يجعل الليل أشواك أتقلب عليها ، نعم يا بدرية لو تعلمي أني أشتاق إليك شوق الأرض العطشى لماء المطر ، شوق ظلام الليل لفجر يُشرق عليه .

لو تعلمي يا بدرية أنك دوماً في قلبي .. حتى وأنا أتحدث للأصدقاء أو أثناء مزاولتي العمل في محلنا بسوق الحبابة ، إن وقتي لو أراد أن يكون له عنوان فأنت يا بدرية عنوانه .. أنت كل حياتي وروحي .

وحين يظلني المساء .. وتخلو الحياة من أعمالها .. أظل أحدث الهواء .. أوصيه أن ينتقل إلى بيتكم في كومة حشيفة ويبلغك سلامي وأشواقي وحنيني .. لكن أظنه قاسياً لا يوصل لك أشواقي من كثرة معاشرته للجند وتلونه بظروف الحرب .

لو تعلمي يا بدرية ، إن بُعدنا جعلني كطائر هائم لا يطيق مخالطة الآخرين ، فقط أظل أتلمس أخبارك وأحوالك ، فإن قالت كوثر أنك بخير ، تصورت ضحكتك وصوتك وصفاء بالك ومزاجك ، وإن أخبرني خالد بمرافقته لكم إلى بيت سيدكم ، تصورت مشيتك .. خطواتك وهي تعطر الأرض . كنت أرى يا بدرية في الشفق الأحمر اعتذار السماء عن تقصيرها في الفرحة لي كما ينبغي حين ألتقيك ، اليوم أرى في الشفق الأحمر بكاء السماء على بعدنا وشقائنا بهذا الشوق الذي يعذبنا .

وتصفينني بالبخل ؟ .. ليتني يا بدرية كنت مزروعاً بين خصلات شعرك أو محشوراً في دمك لأسمع صوتك معطراً بأنفاسك .. أتمنى دوماً لو كنت طفلاً صغيراً .. يجوز له دخول البيوت ومشاهدة النساء .. لكنت وجدتني كل يوم في بيتكم .. لأفوز برؤيتك .. ويكون حظي منك مثل حظ أهلك .. يرون قمراً رائعا يتجول بينهم .

وتتهميني بالعزوف والصدود و كأنكِ تتسولين العواطف مني ، ليتني يا بدرية افترش الأرض تحت روشانكم .. تهبيني نظراتك كلما رأيت أن تشفقي على هذا المسكين ، وترمي إليه بصدقة من كلمات تسكن بها ناره وتهون عليه ترقبه وانتظاره ، وما بخلي إلا خوفاً من افتضاح أمرنا وأن يرميك أحدهم بتهمة لا أطيق معها الحياة ، إنني أتلهف لذلك اليوم الذي آتيك به خاطباً وطالباً يدك للزواج .

دمت بكل الخير

منصور

٢٢/ ذو القعدة /١٣٣٤هـ



(-٩-)

كان أبي على صواب حين قام بتخزين الغذاء في حجرة الطيرمة .. سمعت أن فخري باشا أرسل جنده لجمع التمور من المزارع في قباء والعوالي والعيون حيث يقوم بضغطها وحفظها لتكون غذاء للجند الذين يتكاثرون كالذباب في مدينتنا ، والقطار لم يزل يدفع بغيرهم بين حين وآخر.. لسنا وحدنا من قام بخزن الغذاء بل كثير من العوائل عمدت إلى ذلك كلٌ قدر استطاعته .

أصبح التمر يوجد بكميات قليلة في الأسواق وبسعر مرتفع جداً.. أثر ذلك في أناس يعتبرونه غذاءهم الأساسي طيلة العام لرخص سعره في موسم حصاده مما جعل مستوري الحال في ضيق وكرب ، حتى بقية الأغذية مثل الحبوب والأرز والدقيق أصبحت تصل بكميات قليلة إلى المدينة ، فطرق ينبع وجدة مقطوعة بسبب الثورة .. ولم يتبق غير قوافل تصل من الشرق بين الحين والآخر لذلك فإن أسعارها هي أيضاً مرتفعة جداً ، أما بضائع البادية من السمن والعسل والجبن فتصل بعد تفتيش دقيق على أبواب المدينة.. كان فخري يخشى من اتصال الأهالي بجنود الشريف ، أو اقتحام مفاجئ يقوم به الأعداء ، لم نكن نسمع شيئاً عن تطورات الحرب ولكن آخر ما سمعناه انتصارات فخري وإبعاد خطر الشريف عن المدينة ، على أنه لم يزل جند الشريف يقومون بقطع خطوط التلغراف وتفجير قضبان سكة الحديد .

في صباح اليوم تعاونت مع أبناء الجيران في نظافة الحوش استعداداً لاستقبال الضيوف بمناسبة (قيلة الحناء) الخاصة بمريم أخت عبدالوهاب .

سمعت أمي تتعجل كوثر :

ـ اسرعي يا بنتي ، ((النصاصة)) التي تقوم بعمل الحناء لمريم قد وصلت .

كانت الزغاريد تنطلق من بيت عم يس بخاري وتتردد في أرجاء الحوش ، في المساء انطلق الغناء بصوت شجي مختلط بالتصفيق ، كنا بحاجة لمثل هذا اليوم لننسى ظروف الحرب وارتفاع الأسعار .
يومها مازحت كوثر قائلاً :
ـ متى يأتي اليوم وتتزوجي ونرتاح منك ؟
ـ لماذا تريد لي الزواج ، أنا جالسة على رأسك ؟
في اليوم التالي لقيلة الحناء كان زواج مريم ، حضرت الفيتونات بخيول على ظهورها حبال طويلة تنتهي بكتل ملونة جميلة ، ومعلق على أعناقها أجراس تصدر نغماتها مع كل خطوة تخطوها ، كانت ست عربات ، صعدت العروس وأمها في إحداها ، وبقية العربات للأقارب والجارات ، ونساء يحطن بموكب العربات يحملن المباخر الفضية ويقمن بالزغاريد ، استقبلنا أبو العريس وأقرباؤه وقادونا إلى سفرة التعتيمة[1] ، بعدها صدح المغني محمد بناني بصوته الشجي والمحبوب لأهل المدينة إلى وقت متأخر من الليل .
كان أبو جميل المخبول يتمايل بجسمه بشكل يثير الضحك ، لا يتحرك جسمه مع نغمات الأغنية بل مع إيقاع داخلي خاص به ، يترنم بكلمات من عنده ، كان يشارك معنا ولكن يعيش أغانيه وأنغامه .
رغماً عن الظروف التي يمر بها أبي وتراجع تجارته بعد الحرب الكبرى وثورة الشريف إلا أنه كعادته ساهم بما يستطيع في زواج مريم إضافة لمساهمة الجيران المعتادة .
في الأسبوع الماضي حضرنا مولد أقامه عم يس بخاري تعبيراً عن فرحته بمريم ومعنا سيدي عبدالله .. سيدي كان في السابق يقرأ السيرة النبوية وحين كبر في السن أصبح يدعو بدعاء ختم القرآن في مجلس المولد ، منذ سنوات طويلة لم يغير عاداته ، يصلي العصر في الروضة

[1] ـ التعتيمة : طعام العشاء في الأفراح والمناسبات والسهرات ويتكون من الهريسة والششني والجبنة البلدي والحلاوة الطحينية والخبز المسمى الفتوت .

الشريفة ويبقى للعشاء في الروضة .. يقرأ بين الصلوات في نسخ القرآن المخطوطة وأحياناً في كتاب { دلائل الخيرات } التي توجد نسخ منه في مكتبة قريبة من الروضة .
يحرص سيدي عبدالله على حضور مجالس الذكر وختمة القرآن والموالد في زاوية السنوسية بحي الكاتبية .
حين انتهاء مراسم الزواج ، اخبرتني كوثر بلقائها مع بدرية .. قالت لها وهي تناولها رسالتي إليها :-
ـ ما يعجبك في أخي منصور ؟ أسمر .. نحيل مثل المسواك ، عيناه كأنهما تحدقان طيلة الوقت في قتيل ، أنفه له أرنبة نافرة لا تبدو أنها من جسمه .. أصحابه « صوير وعوير واللي ما فيه خير » إلا أخوك خالد الله يحرسه .
ضحكت كثيراً في داخلي ، لعلمي أن كوثر يستحيل أن تقول مثل هذا الكلام .
عند نومي تأملت النجوم .. سرحت في بدرية ، قلبك كبير يا بدرية .. لابد أنك سامحتني .. عذرتني على غيابي .. إن لك نفساً متسامحة.. مثل الإسفنج .. تُمسك بماء آسن .. لكن بضغط لطيف .. تُخرج مائها ،
ما أروع صوتك
يا بدرية له رائحة النعناع التي تتسلل بهدوء إلى أنوفنا ، صوت أبيض يشبه بياض السحب والقمر المكتمل .



كان أمامي داخل الحجرة الشريفة سيدي هارون الضو أحد أغوات الحرم .. تناول مني أكياس الشاش المليئة بالقمح من الشباك .. الأكياس بعدد أفراد أسرتنا ، هي عادة سنوية يحافظ عليها الأهالي ، يهدون أكياس القمح إلى الحجرة في السابع والعشرين من ذي القعدة ، لا أدري ما سر هذه العادة ولكن سمعت أنها بنية سداد الدين وسعة الرزق .. سيدي كمال يرى فيها عادة لا ينبغي أن تستمر والقضاء عليها واجب .

في مثل هذه الأيام من العام الماضي أدى أخي إبراهيم حج السرارة [١] .. ليلة سفره إلى مكة سهرنا في ترتيب أمتعة الرحلة ، وتجهيز صواني المعمول المحشي بالتمر والغُريبة والبقسماط على ضوء لمبة نمرة أربعة ، كانت هذه الأغذية هي الزاد الرئيسي للسفر الذي يمتد إلى تسعة أيام للوصول إلى مكة ، في الصباح أخذتُ الجمل إلى حيث راية ركب الداغستاني أمام مسجد الغمامة ، وبعد العصر رافقت أبي وإبراهيم وقد لبسا لباس الإحرام إلى مكان الركب .. انطلقت الزغاريد وتساقطت الحلوى وحبات الحمص من الروشان على المجتمعين والمودعين بالأسفل ، لم أترك أبي حتى صاح الحادي ((الفلاح .. الفلاح)) إيذاناً بالسير إلى مكة .

انقضت أيام الحج ، سرت مع عبدالوهاب لاستقبال الركب في منطقة عروة التي تبعد ثلاث كيلومترات ، قضينا ليلتنا هناك ، سيدي كمال ذبح خروف وقام (عم بدنجانه حمرا) بطهي طعام العشاء للجميع.. هذا هو أسمه الشائع بيننا .. ولكن حين يسمعه من أحد فإنه يجري وراءه حتى يتمكن منه ويكيل له الضرب .. كانت ليلة جميلة ، تنقلت فيها مع

[١] ـ حج السرارة : الحجة الأولى للطفل الصغير برفقة الكبار .

عبدالوهاب من لعبة المزمار إلى حلقات الزير ونمنا هناك وقد أجهدنا التعب .
في الصباح سار الركب إلى المدينة .. وعند الدخول من باب العنبرية ألبستُ إبراهيم الثياب التي أوصت بها أمي ، كانت ثياباً مزركشة ، وضع العقال المقصب على رأسه ، وأرتدى العباءة الموشاة بخيوط الحرير على كتفيه ، وركب الحصان .. تتقدمه فرقة موسيقية نسميها الطاسة ، وكانت لا تمل عزف مختلف الألحان .
سرنا في شارع العنبرية وعند باب السلام نزل أبي وإبراهيم وصلينا ركعتين في الروضة الشريفة وقمنا بواجب السلام على رسولنا عليه الصلاة والسلام ، عدنا بعدها إلى البيت تتقدمنا الطاسة وظلت تعزف أمام البيت حتى وقت الغداء .
أصبحت كوثر كلما أخطأ إبراهيم ذكّرته بحجه ، فعليه أن لا يخطئ وأن يسمع كلام أبويه وإخوته ، بل يجب أن يناديها بـ ستيته كوثر لأنها أكبر منه ، وحين يعترض على غسل الدكة والدهليز ، تذكره بوجوب الطاعة .. فالحاج إنسان طيب يقوم بمساعدة الآخرين ، لقد استفادت منه إلى أقصى حد ، يا لها من ماكرة .. الحذر كل الحذر ممن اقترب من الأرض .
قبل أن تغتالنا الأحداث الأخيرة .. كانت كوثر تسمى هذا العام عام إبراهيم فبعد أن أدى حج السرارة قام أبي في شهر محرم بعمل حفلة بمناسبة طهوره { ختانه } لبلوغه السابعة من عمره ، كان سعيداً بتجواله على الحصان في اليوم السابق لختانه وايضاً بغيابه عن الكُتاب ، لكن الآلام التي عانى منها بعد قيام الحلاق بختانه جعلته يفضل الكُتاب عليها.
في صفر وبعد عودتنا من مولد سيدي العريض الذي استمر أربعة أيام وأقيمت فيه مجالس الذكر وختمة القرآن ، أقام والدي حفلة لإبراهيم بمناسبة حفظه ثلاثة أجزاء من القرآن ، سار إبراهيم في طابور مع زملائه يتقدمهم الشيخ العريف بن سالم وعبروا شارع الساحة حتى بيتنا

في انتظام ، وكانوا يرددون أناشيد جميلة .. قاموا بتهنئة أبي وتناول طعام الغداء معنا .
أما في شهر المولد فقد خفنا أن يفقد حياته بسبب الضرب الشديد الذي تلقاه من أبي ، فقد هددته ستي بإبلاغ أبي عن تأخيره المتكرر في الكُتاب .. ، فأغتاظ وقام بشتم ستي :
ـ اسكتي يا عجوزة .. يا أم أسنان مكسرة وأرجل عرجا .
بل قام بإسقاط الشيشة وكاد أن يُحرق السجاد ، فكان جزاء فعلته رادعاً وقاسياً . يبدو أنه نسى حكاية الحاج إبراهيم والأخلاق التي يجب أن يكون عليها وعاد لطباعه .
في الشهر الذي يليه تلقى صفعة قوية من عم حسن الفران ، فقد لمحه وهو يقذف بحجارة صغيرة بالمقلاع { النبيلة } على المارة بشارع الساحة ويختبئ سريعاً وراء جدار متهدم ، كثيرا ما كنتُ أحذر حسن الفران في صغري ، لا أدري كيف يظهر في المكان الذي أخطئ فيه .. في المناخة ، في سوق الحبابة ، في العنبرية .. صباحاً أو مساء وأتعجب كيف لا يراني وأنا أقوم بعمل طيب ، ودوماً يطير إلى ابي ليخبره بخطئي وأجد عقوبة ساخنة تنتظرني في البيت ، لذا كنتُ اسميه دوما بجاسوس أبي ومن حينها وأنا أبغضه في داخلي أشد البغض .

*** ***

تداعت ذكريات أخي إبراهيم العام الماضي حين رأيت المناخة خاوية من الجمال والشقادف والحجيج الذين ينوون السفر إلى مكة ، لأول مرة لا يستطع أهالي المدينة والحجاج الذين وصلوا مبكراً في رجب الذهاب إلى الحج بسبب الحرب مع الشريف ، بل أن فخري منع الخروج لأي كان وأحكم السيطرة على أبواب السور .
لا يشك أبناء المدينة بانتصار فخري باشا ، فجنود السلطان العثماني التي قهرت الجيوش الكافرة في آخر الدنيا وبسطت شريعة الإسلام وكانت هيبتها ترعب قلوب الأعداء ، لن يعجزها هزيمة الشريف حسين

وجيشه الهزيل ، وهذا ما حدث .. فقد توالت انتصارات فخري باشا ، استطاع أن يُبعد الشريف زيد بن الحسين إلى رابغ على مسافة تقارب ثلاثمائة كيلو متر، وطارد الشريف فيصل بن الحسين إلى ينبع النخل ، لكن هجوم بعض أبناء القبائل على الجيش التركي وتوجيه القنابل من البوارج الإنجليزية على معسكر فخري القريب من ينبع النخل ، اضطره للعودة إلى المدينة خوفاً من محاصرته هناك لبعده عن مقر قيادته في المدينة .

في هذه الأيام قام فخري باشا بإصدار جريدة الحجاز نكاية بالشريف حسين الذي كان يصدر جريدة القبلة في مكة ويبث فيها أفكاره وأسباب ثورته وتمرده ، لم يكن أهالي المدينة يقلقهم تطورات الحرب فهي بعيدة عنهم ، ما يقلقهم قلة الأقوات وارتفاع اسعارها ، فقد اشتكي لي خالد عجز والده عن شراء الأرز أو الدقيق بهذه الاسعار العالية ، كان غذاؤهم من مخزون العام الماضي من التمر وما تبقى من الأرز والدقيق وبعض الخضروات وأسرته خائفة من استمرار هذه الأوضاع .

ليت بيدي حيلة يا خالد .. ليت لدي المال فأمنحه لك لتشتري ما تحب أسرتك من الطعام .. لكن لا أملكه يا خالد .. سامحني لا أملكه .



سمعت طرقاً على الباب .. حجرة الديوان تضج بالضياء المتسلل من فتحة الجلا .. بلثغة مصطفى الصغير .. بنداء ستي على دادا حوى لتجلب لها الماء ، أمي وكوثر في المطبخ تعدان طعام الغداء ، في مثل هذا الوقت يبعث الجيران بأطباق الطعام .. لذا اتجهت للباب متوقعاً أحد الأطفال يحمل طبقاً على يده ، خاب ظني .. كان اثنان من جنود الجندرمة يقفان كأعمدة الحرم بزي عسكري مهيب ، كلماتهم العربية تثير ضحكي لكن اوامرهم صدمتني ، عبرتُ الدهليز راجعاً ، كانت أمي خارجة من المطبخ حيث تقوم بإعداد طعام الغداء :-

ـ أكيد بيت عمك يس بخاري ، بعثوا كعادتهم بطبق طعام ، هم دوما يحبون أن يتعبوا أنفسهم .

ـ لا يا أمي ، هؤلاء الجندرمة يريدون سيدي كمال بأوامر من فخري باشا .

ألجمت الصدمة لسانها للحظات ، وجهها تلون بالخوف والجزع ، عيناها طفل ضائع لا يدري أين يمضي ، الحيرة تتلبسها وتربكها :

ـ خير يا رب ، ماذا يريد منا فخري باشا ، ماذا يريد من كمال .

ستي فاطمة تقف بجوارها ، صوتها السبعيني قد جعدته الأيام :

ـ سترك يا رب ، إن شاء الله خير يا خديجة .

أما ستيتة سلمى التي كانت تهز مصطفى الصغير المتمدد على قدميها .. تهدهده (يا الله يرقد يا الله ينام ، على مخدة ريش نعام) ، حين سمعتني صكت صدرها بيدها ، خرجت منها الأسئلة لتصطدم بعيون لا تعرف الإجابة ، ألقت مصطفى على كتفها وأخذت تجري للأعلى ، عادت بعد قليل ومعها سيدي كمال بطوله الفارع .. بعمة بيضاء تزين رأسه ولحية خفيفة تمنحه سمة العلماء وقد لف وسطه بحزام أبيض مرتدياً الجبة ، هو كما تقول عنه أختي الصغيرة كوثر : شيخ صغير .

آلمه منظر أمي ، اقترب منها وقبّل رأسها .. انحنى يلثم يدها ، حاول تهدئتها :

ـ لا تخافي يا أمي ، لعلها بعض الاسئلة وأعود بإذن الله ، ثم يا أمي لا يستطيع فخري ولا عشرة أمثاله أن يؤذوني ، كله بأمر الله يا أم كمال ، أنت فقط أدعي لي .

ـ قلبي غير مطمئن يا ولدي يا كمال ، منذ أن جاء هذا الفخري ونحن لم نر خيراً ، لا أدري ما أقول ، ربي يحميك ويحرسك من كل شر يا ولدي .

تقدم سيدي كمال وقبّل رأس ستي ثم رأس أمي ثانية التي اختنقت بالدموع ، كانت ستي تحاول أن تخفف عنها :

ـ صل على النبي يا خديجة ، إن شاء الله أمر بسيط ويرجع ، اطمئني يا شيخة ، كمال ولد الستر ، إنتِ نسيتِ ؟ ، وأنت يا ولدي لا تحمل هم في نفسك ، والمثل يقول « صفي النية ونام في البرية » وأنت نيتك صافية يا ولدي .

سيدي عبدالله بدوره يأمر أمي بالصبر والاحتساب ، حضرت كوثر من المطبخ وفهمتْ ما يدور ، حاولت تلطيف الجو كعادتها :

ـ لا يهمك يا سيدي ، قل لهم أنك ابن عبدالسلام القوصي وأنت ترى كيف يملأهم الخوف .

اتجه سيدي كمال إلى باب البيت ، رؤوسنا تشتعل بالوساوس والاحتمالات ، ألقى نظرة ابتسام وحنان على ستيته سلمى وابنه مصطفى ، وجهه مكسو بالسكينة .. تشع من عينه علامات الرضى واليقين ، كيف له كل هذا الثبات وهو لا يدري إن كان بعض اسئلة ويرجع ام تُهمة تُلفق له فيُحبس .

سار أخي محاطاً بالجند ، انطلقتُ وراءهم لأعرف إن كانوا سيمضون به إلى القلعة بباب الشامي أم القشلة تلك الثكنة العسكرية في العنبرية ،

سمعتُ صوت بكاء يصدر من خلف الروشان ، حدست أنه لأمي وستيته سلمى ، كان بكاء مريراً ، رددت في نفسي :
ـ حسبي الله عليك يا فخر الهم والحزن والنكد .

*** ***

القلعة السلطانية أو قلعة باب الشامي تنتصب كأسد رابض يُخيف كل من ينوي مدينتنا بشر ، منعني الأنباشي الواقف على باب القلعة من اللحاق بسيدي كمال ، حملت أقدامي المثخنة بآلامي إلى حيث أبي يجلس في المحل بسوق الحبابة .. أبلغته بما حدث ، ملامحه لم تتأثر كثيراً ، وجهه منحوت من جبل لا يأبه لمزاح الرياح ، يظل محتفظاً بصرامته .. بثباته ..لا يفرط فيهم وكأنهم بعض ثروته ، أكملتُ سيري إلى البيت ، جلستُ مثل كومة حزن يابسة على دكة الدهليز ، طلبت الماء فالعطش يحتل حلقي ، الجميع في الداخل ، أمي تتعجل كوثر ودادا حوى للانتهاء من عمل الغداء ، فتحتُ نافذة الدكة المطلة على الحوش ، كان الصغار يلعبون لعبة الكبوش ، ربما شعرتُ نحوهم بالحسد .. لا يعانون من التعب والقلق مثل الكبار ، كانوا يملؤون فناء الحوش ضجيجاً لا يعادل الضجيج الثائر في صدري ، فكلما نبت في داخلي سؤال تفرع إلى آخر ، حتى تشجر داخلي بأسئلة عارية تنتظر أن تكسوها الأجوبة ، لا أعرف لِمَ ناديت أخي الصغير إبراهيم ، لكنه حين وقف أمامي متذمراً من قطع اللعب مع أبناء الجيران ، أمرته بدخول البيت وإزالة ما علق به من تراب ، رجاؤه جعلني أتسامح معه بدقائق إضافية يقضيها مع أقرانه.
في الجمعة الماضية خطب بنا سيدي كمال في الحرم .. كانت ثاني خطبة له منذ أن تعين خطيباً للجمعة وإماماً في الصلوات ، كان يثير مشاعري وهو يشير إلى الحجرة الشريفة كلما ذكر حديثاً من أحاديث نبينا عليه الصلاة والسلام ، صوته أثار الخشوع في قلوب المصلين .. ربنا معك يا سيدي .. ربنا يكفيك شر فخري وأمثال فخري .

الشمس تغيب لتأتي، هكذا أراد الله لها، لتلقي علينا تحية الصباح، وسيدي كمال سيأتي بإذن الله، أليس هو ولد الستر كما قالت ستي فاطمة؟

قبل سنوات حدثتني أمي بسر هذه التسمية :-

ـ حين أكمل أخوك أربعين يوماً على ولادته ، حملتُه إلى الحرم كعادة نساء المدينة ، ترافقني ستك فاطمة وخالتك زكية ، كان جسمه الصغير ملتفاً بقطعة قماش موشاة بالزهور ومنثورة بحلي ذهبية وفضية ، بعد العصر ذهبتُ به إلى سيدي " الآغا عنبر" .. تناوله فرحاً بحفيد الشيخ عبدالله الذي أعلمه بحضورنا وأوصاه بنا ، وضعه تحت ستارة الحجرة الشريفة ملتصقاً بالجدار الغربي ليكون قريباً من الوجه الشريف عليه الصلاة والسلام ، لا تدرك يا منصور مقدار العناية التي أوليتها أخاك قبل ذهابي إلى الحرم ، استحمامه كان بماء الورد وجسمه مدهوناً بالمسك ، وملابسه مبخرة بالعود ، كلما تذكرت أنه سيفوز بتلك الدرجة من القرب ، سرت في داخلي قشعريرة وكأني أنا التي ستكون هناك وزاد حرصي أكثر لأن يكون لائقاً بهذه المكانة .

بعد صلاة المغرب لمحني الآغا عنبر منتظرة إياه ، أحضر لي كمال فتنحيت به في تقفيصة النساء ، أرضعته .. أبدلت ملابسه .. مسحت عليه بعطر الورد ، وتناوله مني الآغا ليعيده ثانية تحت الستارة ، بعد صلاة العشاء مضيت به إلى البيت بعدما منحت الآغا ربع ريال مجيدي مع بعض الشاي والسكر .

كانت تفوح من أخيك يا منصور رائحة عطر فوق العطر ، ظلت منتشرة في أرجاء البيت لأيام ، يشع من عينيه بريق روحاني جميل ، ابتسامة رائعة مرسومة على شفتيه لا تفارقه ، وكل من رأى وجهه

مكسواً بالنور، بادر إلى التسبيح والصلاة على الحبيب عليه الصلاة والسلام ، بل أني كنت أغسل وجهه كل ساعة وأشرب الماء رجاء أن يتغلغل هذا النور إلى جسدي .

لا يخالط أهل المدينة ظن باستقامة ابن الستر أو ابن الستارة كما يسمونه أحياناً ، وإن مرت به ضائقة تنفرج بإذن الله من حيث لا يعلم .

تغيرت هذه العادة الآن ، فبعد بلوغ الرضيع أربعين يوماً ، يوضع على صدره أثناء زيارته القصيرة للحجرة الشريفة قرصين من خبز أسمر معجونان بالسمن ، ويوزعان كهدايا مباركة للجارات والأحباب ، هكذا فعلوا مع مصطفى ابن سيدي كمال .

- غداء سيدي كمال جاهز ، أمي توصيك بالإسراع لتعود وتلحق الغداء معنا ، بلّغه سلامي ، قل له إننا كلنا ندعو الله أن يفرج كربته و.... ولم تُكمل كوثر كلماتها، خنقتها العبرات واستدارت إلى الداخل .

صوت كوثر يبدو عليه الانكسار ، رغم صلابة أختي وحرصها على إشاعة الفكاهة في المواقف الصعبة ، إلا أن اعتقال سيدي كمال كان ثقيلاً على أنفسنا جميعاً ، هو حبيب الجميع ، يمنحهم ما يستطيع .. يظل مراعياً لحالتهم ومواسياً لهم ، إنه مثل النخلة تمنح رطبها لكل من مد يده إليها .. صالحاً أو شريراً .

عبرتُ شارع الساحة متجهاً للقلعة ، اجتزتُ المناخة غارقاً في أفكاري ، لم تهدأ المصائب بعد قدوم فخري .

سمح لي الأنباشي بالدخول حين أعلمته برغبتي في إيصال طعام الغداء لأخي ، هم أودعوه السجن ، قضبان الحديد تقف بيننا كعيون طويلة يدفعها الفضول لسماعنا ، لم يزل محتفظاً برزانته وابتسامته ، الدنيا لديه حجر يتسلى به بين يديه .. لا يضيره إن ألقاه بعيداً ، كان قلقاً فقط على أمي وستيته سلمى ، طمأنته برضى الجميع .. تسليمهم بقضاء الله .. بعدما صاح فيهم سيدي عبدالله :-

ـ اسكتي يا بنت انتِ وهي ، وصلوا على الحبيب ، ربنا ما يكتب لعبده إلا الخير .
قلتها محاولاً تقليد صوت سيدي عبدالله وطريقة صراخه لأخفف عنه بعض همه ، سألته بعدها بالسؤال الذي أتعبتني الإجابة عليه .
ـ بأي تهمة يا سيدي يسجنوك ؟
ـ يا منصور ، حين تُدار البلد بالأحكام العرفية ، فليس هناك حاجة لتهمة كي يسجنوك أو حتى يقتلوك .
تذكرت حين رأيت جنود فخري باشا يلصقون إعلانات على جدران المدينة تفيد بخضوع المدينة للإدارة العرفية وأن كل من يتحدث في الأمور العسكرية أو شؤون الحكومة يعرض نفسه للعقوبة الشديدة .



(-١٣-)

أمي تجلس بجوار أبي على دكة الروشان وتناقشه فيما جرى اليوم :
ـ أموت وأعرف يا سيدي ، لِمَ قام فخري بسجن ولدنا ؟ .
ـ سجنوه يا خديجة بالظن .. بالشبهة ، فبعد حادثة العوالي وقربان وفخري باشا يسجن كل من يشك فيه .. كل من يُظن بتعاونه مع الشريف حسين ، أصبح يردد كثيراً (عرب خيانات .. عرب خيانات) ، يسجن كل من صرح بمعارضة التتريك أو أظهر حنقه على الاتحاديين ، هل تعرفين يا خديجة إن حدث وتشاحن اثنان وذهب أحدهما لفخري وأتهم خصمه بالتعاون مع الشريف حسين ، فإنه يسجن الخصم بلا تردد .
ـ (وه يا سيدي) ألا يتأكد فخري من صدق التهمة ، مصائر الناس لعبة في يده ، على الأقل يستقصي .
ـ لا تقلقي ياخدوج ، فليس ابننا فقط ، بل (كبارية البلد) مسجونون ، الشيخ يحي دفتردار والشيخ زين الجفري وغيرهم كثير ، وهذا ما يجعلني مطمئناً .
ـ لا أفهم يا سيدي .
- لا يُعقل أن يؤذي أكابر البلد ، وإلا ثار عليه الأهالي ، أظن والله أعلم يا خديجة ، يسجنونهم حتى تهدأ الأمور ثم يطلقون سراحهم .
ستي تنصت للحوار، أخيراً وجهت حديثها إلى أبي :
ـ اسمع يا عبدالسلام ، في الغد ربنا يمتعك بصحتك ، تبعث بكيس أرز ومعه كيس دقيق لفخري باشا ، يعني « اطعم الفم تستحي العين » و« واللي ما تقدر تداريه ،،، سايسه وجاريه » .
ضحك أبي بصوت مرتفع ، نادراً ما يضحك بهذه الصورة ، بل نادراً ما يحاور أحد في البيت ويناقشه ويسمع رأيه ، هو رجل الأوامر والتوبيخ والصوت الذي يرعد إن طلب .. يبطش بيده إن غضب .
قال لستي :-

ـ مع فخري يا أمي لا يجدي ذلك ، ربي يخليكِ لنا ، هو لا يقبل رأياً أو شفاعة حتى من كبار ضباطه ومرافقيه ، الكل يهابه .. يخاف منه .
ـ يا ولدي هذا ما أهتديت إليه ، وإنتِ يا خديجة لا تصدقي جارتنا أم عدنان ، سمعتها اليوم وهي تحاول أن تُدخل الرعب إلى قلبك ..وتدّعي أن فخري سيفعل الأفاعيل بكمال ، يهينه ويعذبه ، احذري أن تصغي لكلامها ، أم عدنان كما قالوا « مجنونة وقالوا لها غطرفي » .

*** ***

في اليوم التالي زرتُ سيدي كمال .. قبل أن ألقي عليه السلام رفعتُ صوتي بالهتاف :
ـ مرمحين يا وجه القملة .
ضحك أخي بصوت عالٍ ، شعرتُ بأقمار تتجول في المكان ، أخذني الفخر بنفسي ، فإدخال السرور على قلب أخي الحبيب في حاله تلك يدعو للفخر .
تحاورنا في الأحداث الأخيرة ، عن جرأة الثائرين المؤيدين للشريف حسين في مهاجمة المخافر .. احتلال قرى قباء والعوالي .. قطع أسلاك التلغراف ، كل ذلك جعل فخري يقوم بمهاجمتهم وابعادهم عن حدود المدينة ، بل طلب الكثير من المؤن والعتاد من القيادة العسكرية في الشام .
عرج بنا الحديث عن سخط الأهالي .. تذمرهم من سجن المشايخ والأعيان .. قتل الأبرياء في العوالي وقربان ، ودعتُه .. كان في داخلي بعض عبارات المواساة وتلك التي تدعو للصبر، قد هيأتها في داخلي قبل قدومي .. خجلت من ذكرها وأنا أراه في ثباته ، هو غير محتاج لكلماتي .. أنا من يحتاج إليها.. سألت الرب الرحيم أن يرأف بنا جميعاً.. ونرى سيدي كمال قريباً بيننا .. هل نحتاج إلى المصائب والمحن لنكون أقرب إلى الله ؟ .

في الطريق تذكرت تفاصيل الحكاية التي ذكرها لي سيدي كمال وكانت مدعاة لضحكه عند زيارته ، كان يحكيها لي وعلى وجهه ابتسامة ساخرة :

ـ في العام ١٣٢٤هـ ، قام الباب العالي بإصدار فرمان خاص يقضي بتعيين على باشا مرمحين محافظاً للمدينة، كان رجلاً متهوراً ..
متغطرساً .. فيه كبر .. لا يقيم وزناً لأحد ، فرض ضرائب على أهل المدينة مخالفاً ما دأبت عليه الدولة العثمانية منذ أن حكمت الحجاز بإعفاء السكان من الضرائب والتجنيد إكراما لهم ، .. قام بإهانة بعض رجالات المدينة مما جعلنا نثور عليه .. أحد المتجمهرين قام بإطلاق النار عليه في المناخة عند خروجه من قصر الحكم بالقرب من الباب الصغير ..التجأ إلى عشة المحتسب (مبنى البلدية) ، وأُطلقت أصوات البوق ، اجتمع العسكر من كل مكان وسار بحمايتهم إلى بيته ونحن نردد من خلفه هاتفين :ـ

مرمحين يا وجه القملة ... مين قال لك تعمل دي العملة

قام بعدها السلطان بعزله وتعيين محافظ آخر .

* * *

في البيت التقيت بأختي الكبيرة .. ستيته عيشه ، لابد وأنها سمعت بخبر اعتقال سيدي كمال ، كانت تقف عند باب القاعة .. ورثت عن أبي قامته الفارعة واكتناز الجسم ، تلف شعرها بالمحرمة ، ووجهها الأبيض يعلوه قلق وتساؤل ، قلت مازحاً حين سألتني عن سيدي كمال :ـ

ـ أكيد يتمنى الجلوس في السجن على أن يشاهد هذه الوجوه الكئيبة ، اطمني هو بخير والحمد لله .

تهللت أسارير وجهها .. كثيراً ما أشعر بالرثاء نحوها ، فلم يأت خبر عن زوجها عبدالرحمن منذ سفره إلى السويس متطوعاً للجهاد ضد الإنجليز هناك، كان وجهها يكسوه الحزن.. بياض بشرتها قد تلون بالقلق والانتظار فمال إلى السمرة .. هكذا يبدو لي .

أقبل ابنها محمود ، ألقى التحية بعد مصافحتي ومحاولة تقبيل يدي بأدب جم ، هو في عمر أخي إبراهيم ، كان متسخاً والتراب يملأ ملابسه مما أثار غضب ستيته عيشه وسحبته من يده :

ـ أنت تحتاج أن تستحم يوماً بأكمله كي تنظف وتصبح بني آدم .

حين عاد محمود كان مكتئباً ، شفته السفلي تبرز بشكلٍ أثار ابتسامتي ، حاولت أن أنسيه التوبيخ الذي لقيه من ستيته عيشة :

ـ اين ذهب أبوك يا محمود ؟

ـ أبي أخذ معه البندقية ، يترصد وراء الشجرة ، يطلق النار على الكفار ، طخ .. طخ .. طخ .



(-١٤-)

حين أوصلت الغداء لسيدي كمال في اليوم التالي ، كان القلق والتوتر بادياً عليه... عيناه زائغتان لا تستقر في مكان، كأن بداخله حديثاً متردداً بين الإفصاح والإخفاء ..اشتعل صدري بالوساوس .. بالخواطر القاتمة .. أخبرني بعد إلحاح بنية فخري باشا ترحيله هو ومن معه إلى دمشق ليتخذ جمال باشا والي الشام العثماني ما يراه مناسباً بشأنهم .

جمال باشا ذلك التركي النقي ، أعرفه .. زارنا في شهر المولد الماضي برفقة أنور باشا وهما من زعماء جمعية الاتحاد والترقي التي استلمت زمام السلطة في تركيا .. استقبلهم علية القوم يتقدمهم بصري باشا محافظ المدينة ، وأقيمت احتفالات كبيرة لمقدمهم في محطة العنبرية وصدحت الموسيقى الشاهانية .

سار بعدها جمال باشا مع رفقائه إلى داخل المدينة ، عند اقترابه من الحرم أصبحت مشيته هادئة ، بطيئة كأنما أنتقل لقدميه الخشوع والأدب ، خافض الراس ونظره للأسفل ، حين دخل من باب السلام طأطأ رأسه ، صلى ركعتين في الروضة أتم ركوعها وسجودها كأنها صلاته الأخيرة ، امتلأ هيجاناً وكسته المهابة وهو يستلم شباك الحجرة الشريفة .. أخذ يمسح وجهه بها .. يبكي بصوت عالٍ كطفل صغير ، وكلما قلنا اشتفى عاد ليمسح وجهه بالشباك ، عانق بعدها رجالات المدينة بحب وود ، كأنما هم أهله الذين افتقدهم زمناً طويلاً ، أحببتُ كثيراً هذا الرجل وتمنيت لو أزوره في فندق دار السلام الذي ينزل فيه لأقول له كم أحبه .

سألتني أمي عن سيدي كمال وكيف كانت زيارتي له ، تلعثمت ، بحثت في مخيلتي عن مقدمات تمهد لقولي .. زالت عني قدرتي على الكذب .. الكل يؤمل أن يقضي فترة سجنه في المدينة ، ليتم بعدها إطلاق سراحه ، وجدتُ نفسي ألقي الخبر كما هو :

ـ الحمد لله يا أمي ، هو بخير ، أخبرني أن فخري ينوي ترحيله مع البقية إلى دمشق ليتخذ جمال باشا نحوهم ما يراه مناسباً .
وافق قولي دخول أبي إلى القاعة ، فكأنما لدغته عقرب ، فصرخ :
ـ جمال باشا .. السفاح .. السفاح .
آلمني هذا الوصف للرجل الرقيق الذي شاهدته يبكي ويتمسح بشباك الحجرة الطاهرة ، علمتُ فيما بعد أن جمال هذا أحد أسباب ثورة الشريف ، كان يقيم المشانق في ساحة البرج ببيروت وساحة المرجة بدمشق ليُعدم الإصلاحيين والمثقفين الذين يعارضون سياسة الاتحاديين في العالم العربي .. يلفق لهم تهمة التخابر مع انجلترا وفرنسا ضد الباب العالي ، ورغم الشفاعات الكثيرة التي انهالت عليه للعفو عنهم إلاّ أنه كان قاسياً فلم يتراجع عن تنفيذ حكم الإعدام فيهم .
أمي جلست .. أعجزتها الصدمة عن الوقوف .. صوتها يغلبه الألم والقهر :ـ
ـ حسبي الله عليك يا فخري ، الله ينتقم منك .
أبي كان يرى أخذ أقوال المسجونين والتثبت منها ، وتنفيذ العقاب على المذنب منهم كافياً لفخري باشا بدلاً من إرسالهم إلى دمشق ، سألني إن كنت أعلم بموعد تسفيرهم فأجبته :
ـ غداً يا أبي ينوون إرسال جميع من سجنوهم بالوابور (القطار) إلى دمشق .
ستي توجه حديثها إلى أبي :
ـ يا عبدالسلام ، آلا يستطيع أحد معارفك من كبارية البلد أن يشفع لكمال ، الولد لم يفعل شيئاً حتى يعاقب .
ـ يا أمي حاولت كثيراً بلا فائدة ، أنت لا تعرفين فخري .
ستيته سلمى تستمع إلى ما يجري حاملة مصطفى الصغير على كتفها والدموع تنساب بصمت ، كوثر أخذتها الصدمة فلا يبدو على وجهها أي تعبير .

أمي تجهش بالبكاء .. وكأنما تذكرت شيئاً وسط بكائها، استدارت إلى أبي ترجوه :
ـ لابد أن أراه يا أبا كمال ، كيف يسافر بعيداً قبل أن أملأ عيني منه ، هو ذاهب إلى رجل لا يرحم ، أخاف أن يتجبر هذا السفاح و..........
لم تستطع أن تُكمل ، وستي تؤنبها :ـ
ـ لا تقولي هذا الكلام يا خديجة ، أحسني الظن بالله يا شيخة .
الحيرة تبدو على وجه أبي .. كيف يمكن أن تراه وهو في قبضة الجند .. لكن حين رأى اصرار أمي ورجاء ستيته سلمى ، وعدهم أن يبذل محاولته مع غالب باشا شعلان لعله يوصي أحد الجند بالسماح لأمي بمشاهدته .
سيدي عبدالله كان هادئاً ، وجهه يطفح بالأمل وعلى شفتيه ابتسامة رضى ، قال بصوته المبلل بالذكر :ـ
ـ كأني أرى الرؤيا التي كانت بالأمس ، سبحان الله ، نفس الحديث ونفس المكان ، اطمئنوا سيتم ترحيل كمال ويقضي زمناً هناك ليعود بعدها إلى المدينة سالماً معافى بإذن الله .
كسا الارتياح جميع الوجوه .. كانوا بحاجة لمن يخفف عنهم هذه المصيبة .. فكانت رؤيا سيدي عبدالله .. كان الشك يملؤوني من تصديق هذه الرؤى ، لا أجرؤ على تكذيب سيدي .. يقولون أن رؤياه دوما تتحقق لكن لا أعرف كيف أصل إلى اليقين .

***　***

في الصباح أحضرتُ عربة الفيتونة من المناخة ، صعدت عليها ستي وأمي وكوثر وستيته سلمى ، وركبتُ بجوار الحوذي الذي يقود العربة ، الصباح المعجون بالوداع لن تكون نسائمه لطيفة ، نود لو نصنع حبلاً طويلاً نشنق عليه الوقت فلا يجرؤ على السير ويتوقف كل ما نحن فيه من ألم ، لكن الشمس تسير .. تُطلق سهامها لتطعننا في قلوبنا ، أبي سبقنا إلى المحطة الغاصة بأناس يأملون إلقاء نظرة أخيرة على أحبابهم

قبل رحيلهم، تنحينا جانباً وانضممنا إلى بعضنا البعض ، حضر أحد الجنود ومعه سيدي كمال، يبدو أن ذلك كان بتوجيه من غالب باشا شعلان .
كانت دقائق لكنها مشحونة .. بالدموع .. بالكلمات .. بالدعاء.. بالصمت حين لا تفي الكلمات بفيض المشاعر ، أمي ترفع عن وجهها الشيلة التي تغطي بها وجهها وقد تبللت بعبراتها .. تحتضن سيدي كمال بعينيها ، يتقدم منها ليقبل راسها ويدها وهي تدعو :
ـ ربنا ينصرك يا ولدي على من ظلمك ، ويعيدك لنا سالماً .
يصافح ستيته سلمى التي يختلط كلامها بنشيجها .. هي تؤكد له أنها ستراه مرة أخرى بإذن الله ، يوصيها بالاهتمام بنفسها وبمصطفى رجل البيت القادم ، ، بدوري عانقته طويلاً ، ذكرته بقراءة الآية (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) وأن لا يتركها أبداً كما أوصاني سيدي عبدالله ، اجتهدت أن أتماسك وأبدى تفاؤلي بعودته ، انحني سيدي كمال وقبّل يد أبي ، ودخل إلى عربة القطار الذي سار مطلقاً صافرة عالية نافثاً دخانه الكثيف كأنما يقول : تباً لظلمك يا فخري ، أي ذنب ارتكبه هؤلاء العلماء والمشايخ والأفاضل .. أتريد أن تبعث بهم لجمال باشا ليحكم عليهم بالإعدام كما فعل بغيرهم .. تباً لك يا فخري .. متى يأتي اليوم وترحل أنت عن مدينتنا .. ونرتاح منك ... رحل سيدي كمال .. رحل مشيعاً بدموعنا وخوفنا ..لا ندري أنستقبله ثانية ، أم تستقبله مشانق ساحة المرجة بدمشق ؟ .

حين تُجلي أمي الأواني النحاسية يعود لونها .. بريقها ، لكن فخري باشا غير متأهب لأن يجلو الحقيقة ، هو لا يرى من سيدي كمال غير تذمره من سياسة التتريك ، من محاربة اللغة العربية بفتح ثمانية عشرة مدرسة تُدرس باللغة التركية، من اشتراك الأتراك مع ألمانيا في الحرب الكبرى ، ورغم ذلك فأخي يرفض هذه الثورة ، يراها خروجاً على ولي الأمر ومقدمة لتفتت الأمة وضعفها ، ولكن من يُفهم فخري هذا
« مين يقول للغوله عينك حمرا » .

رحيل أخي ترك فينا جرحاً نحاول أن نتناساه.. لكن حزننا مثل كلب لا ندري متى يخرج علينا ، من وراء بيت مهجور ، من جوار شجرة ضخمة تنتصب كتاريخ قديم ، حزن معجون بالقلق والترقب .. فهو كلب مسعور يعض بلا رحمة ، فأمي تعاودها نوبات البكاء .. تجلس على دكة القاعة وتطلب كأس ماء من دادا حوا تبتلع به دموعها ، ستيتة سلمى تلبس فستانها المصبوغ بلون السماء ومنثور بزهور وردية ، كل ما فيه يوحي بالفرح .. بالأمل ، لكن نظرة واحدة إلى وجهها تكذّب كل هذا . تنتقل في البيت وفيها ذلك الانكسار والألم .. تحمل من الحزن أكثر من وزنها ، كثيراً ما تخيلتُ سيدي كمال داخلاً إلى القاعة لمشاركتنا الحديث أو لتناول الغداء معنا ، كانت قلوبنا قلقة على مصير أخي ، كأنها أُلقيت في النار فهي تتألم وتتلوى ، المدينة أصبحت تقف على قارعة الأخبار ، تتلقف أي حديث عن الذين رحلوا عنا وأخذوا معهم راحتنا وفرحتنا ، تريد أن تسمع عنهم أي شيء ، أي شيء وإن كان إشاعة كاذبة .

بعد صلاة ظهر اليوم ، كان هناك طرق شديد على الباب ، أخبرتني كوثر أنه صديقي طاهر الفاسي وقد لمحته من الروشان ، كان طاهر يعمل بتعبئة الفحم في موقد القطار ، يسكن في حوش طوطو بالقشاشي

بالقرب من مسجد سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، كان وجهه يطفح بالفرح ، أخبرني بوصوله قبل ساعة ، لم يذهب إلى بيتهم بل جاء ليبشرني بسلامة سجناء المدينة في الشام ، قال لي إن جمال باشا وبعد محاكمة صورية سريعة أمر بإعدام السجناء وتعليقهم على مشانق ساحة المرجة بدمشق ، لكن وبقدرة الله عز وجل جاءت أوامر من أنور باشا بتوزيعهم على سجون دمشق وحلب وغيرها ، وكان سجن أضنة بتركيا هو من نصيب سيدي كمال وبعض رفاقه ، لحين انتهاء الحرب الكبرى والحرب مع الشريف ليتم بعدها اطلاق سراحهم .
أمي تلعثمت بالصمت لكن وجهها مدينة أفراح ، عيناها تلمع ببريق يتحدث، ستيتة سلمى تنادي مصطفى فيجيب مسرعاً وقد أتقن المشي فتأخذه بين يديها وتقبّله بهستيريا ، ستي دخلت إلى القاعة ولا تدري سر فرحتنا فتقول بصوتها العذب :
ـ يا جماعة قولوا ماذا جرى، يعني « في الحزن مدعوين وفي الفرح منسيين » .
حين أخبرناها بسلامة سيدي كمال، أطلقت زغرودة عالية ، كوثر أحضرت الحلوى والمعمول وقامت بتوزيعها علينا وهي تردد بخفة دم
ـ كل سنة وأنتم طيبون .
لتُشعرنا بعيد نعيشه مرة أخرى .
لن أنسى لطاهر صنيعه هذا وتجشمه عناء حرارة الظهيرة لإبلاغي ومن ثمّ العودة لبيته ، عرفته قبل سنوات ، أشعر فيه الشهامة والطيبة ، أخته زينب صديقة كوثر .. درسا معاً في كُتاب الفقيهة عائشة لفترة ، ولم تطق كوثر المكوث طويلاً ، بعدما تعلمت القراءة والكتابة ، كانت الشيخة عائشة تشكو لأمي من عبث كوثر مع زميلاتها ، وعدم اهتمامها بحفظ القران الكريم ، فخرجت من الكُتاب لتجبرها أمي على تعلم التطريز بالمنسج وأعمال البيت .

في غمرة فرحتي بسلامة سيدي كمال تذكرتُ سيدي عبدالله ورؤياه التي لا تخيب ، مضيتُ إليه ، قلت له :
ـ علّمني يا سيدي بعض الأسرار .
أجابني ضاحكاً :
ـ بسيطة يا منصور ، لكل غاية طريق ، ومحبة الله بداية الطريق .

*** ***

أصبحت معاني النعناع المغربي تتجول في بيتنا ، تشيع فيه السكينة والراحة ، نسينا القلق الذي شوانا على جمر الأسئلة ، العبرات التي نزفت على المخدات النائمة ، اطمأنت قلوبنا على سيدي كمال ، قامت أمي اليوم بزيارة سيدي فاروق (جدي لأمي) في البقيع كعادتها القديمة في كل خميس ، منحتْ الشيخ عبدالمعطي ربع ريال مجيدي جزاء قراءته للقرآن على ضريح سيدي والدعاء له بالمغفرة ، كما قامت بتوزيع الماء على الفقراء ووضع الريحان على قبره .
عند خروجنا من البقيع لم تنس أمي زيارة قبة أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن وقبة سيدنا إبراهيم بن النبي صلى الله عليه وسلم وقبة آل البيت العظام .
حدثتني أمي من سنوات عن سيدي فاروق رحمه الله .. كان صديقاً مقرباً من سيدي عبدالله ، انتسبا إلى الطريقة السنوسية ودأبا على الحضور إلى زاوية الطريقة بالكاتبية لإحياء الموالد ومجالس الذكر وختم القرآن ، وحين حضرته الوفاة كان يقرأ القرآن وقد لبس أجمل ما لديه من الثياب بعدما اغتسل وتطهر .. فجأة أثناء قراءته حدّق في شيء ما .. توقف عن القراءة وافتر فمه عن ابتسامة رائعة رافقته حتى دفنه ، وقد وقف سيدي عبدالله على قبره وقرأ له سورة ياسين ولقنه إجابة الأسئلة التي سيلقيها عليه الملائكة الكرام .

بعدها مضينا إلى الحرم ، أظن أن كوثر لم تزل تغالب الضحك ، هكذا شعرت وإن كنت لا أرى وجهها المحتشم خلف البيشة ، فهي بدأت بالضحك حين قامت أمي بسرد كل الأحداث التي مررنا بها لسيدي فاروق النائم في قبره ، أوصلتُ أمي وكوثر حتى باب النساء من أبواب الحرم كي يصلّوا المغرب ويكملوا بعدها طريقهم إلى البيت ، أما أنا فأكملت سيري بعد الصلاة إلى محل والدي في سوق الحبابة بباب المصري .

*** ***

في اليوم التالي وعند اجتماعنا على مائدة الإفطار ، كان وجه سيدي عبدالله متهللاً ضاحكاً ، سرد علينا تفاصيل الرؤيا التي شاهدها بالأمس .. رأى سيدي كمال مع خمس من كبار المدينة ، والسجان يلبي طلباتهم .. يحرص على إرضائهم .. يريد أن يتقرب من أهل المدينة وينال دعواتهم .. فهم المجاورن للرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام .

أردفت أمي بعدها :

ـ ربنا يعيدك لنا سالم ونراك قريباً يا ولدي يا كمال .

تهلل وجه ستيته سلمى وستي فاطمة أما كوثر التفتت إليّ قائلة :

ـ كان على فخري أن يسجن منصور بدلاً من سيدي كمال ونرتاح منه .

ـ أسكتي يا كوثر .. وقصري لسانك .. عجيب والله « لسانها طولها والباقي لفطورها » .

ـ ما شاء الله عليك « الطول طول الباب ،،، والعقل عقل الذباب »

أشرت إليها أن حسابها عسير فيما بعد ، فلا يليق بي الرد عليها وقد دخل أبي إلى القاعة بعد الإفطار ، اقتربت من سيدي قبل أن يقوم لصلاة الضحى وسألته :

ـ كلنا نحب الله يا سيدي ، نعلم مقدار نعمه علينا ، ولكن ليس لنا مواهبك ، لماذا يا سيدي ؟

ـ يا منصور ، من أحب الله أقبل عليه ، بالذكر ، بالطاعة ، بالبعد عن المعصية ، يقترب من الله .. فيقترب الله منه .. يمنحه الأنوار .
شعرت أن داخلي مبلل بالخجل ومات على لساني الكلام .

*** ***

تركتُ سيدي عبدالله .. أتعجب من رؤياه التي لا تخطئ .. نظرته للحياة ، هو يرى الدنيا في مصائبها كالقطن المنفوش .. ينتفخ مباهياً بعظمته فيأتي طفل صغير ويبعثره بقدمه ، أو كصراخ مصطفى يملأ البيت ضجيجاً والأمر تافه ، لا أدري من أين يأتي بهذا القمر الذي يدسه في وجهه فيبدو الناس حوله قطع ليل متناثرة .

دخلت إلى حجرة المقعد .. تلك الحجرة التي أهرب إليها كلما أردت أن اختلي بحزني أو بفرحي .. أجد فيها راحتي .. وأتذكر ذلك اليوم الرائع .. أسميته يوم المقعد .

يومها فتحتْ دادا حوا الباب .. نبهتني إلى وجود جارتنا أم عدنان في الديوان ، دخلت إلى حجرة المقعد القريبة من الباب .. تسمرتُ في مكاني ، كانت بدرية تقف قبالة كوثر وظهرها ناحيتي ، شعرها الفاحم مسدل كذكريات نائمة .. كضوء أسود له بريق ولمعان .. خصلات شعرها حكايات لا تنتهي .

التفتت بدرية على وقع صوتي وأنا ألقي السلام ، الدنيا تركت كل أحداث العالم وتكومت هنا عند باب المقعد لترى بدرية في مشهدها ذاك ، فهي تبدو في ارتباكها كعطر زجاجة اهتزت بيدٍ عابثة ، وفي حيائها كهلال آخر الشهر متردداً بين البقاء والرحيل ، واهمٌ من يظن عمر السعادة قصير ، فعمرها طويل يأخذ كثيراً من أعمارنا ، فلحظة التفات بدرية تلك أعيشها قبل نومي كل يوم .

كوثر أدركت مدى ارتباكنا واشارت إليّ بالصعود إلى المجالس العلوية ريثما تخرج جارتنا أم عدنان . حدث ذلك في نهاية شهر المولد الماضي

.. شعرت إن أقدارنا مثل أجواء الطقس .. فجأة تتقارب السحب ، تمطر السماء بغزارة ، فجأة تمنحنا الحياة مالا ننتظر .
الأحداث السعيدة تأتي تباعاً .. فبعد أن اطمأننا على سيدي كمال .. جاءت والدة أحمد الحداد ومعها بعض النسوة من أقاربه وأفصحت عن رغبتها في خطبة كوثر .. كان رأي والدي تأجيل الموافقة حتى تتضح أمور الحرب الدائرة والأوضاع غير المستقرة ، تعجبت من سعادة كوثر بهذا التأجيل ، نعم هي دوما لا تبدي رغبة في الزواج لكن كنت أظن الحياء مبعث ذلك ، أما وقد جاء العريس فالأمر غريب . قلت لها مظهراً أني ناصح أمين :
ـ يا ليت أبي يغير رأيه وتتزوجين ، يا كوثر العمر يمر وسنك كبر يا بنت .
ـ يا أخي .. أنظر إلى نفسك أول .. حتى الآن لم تتزوج .
ـ سأتقدم من بدرية قريباً بإذن الله .. بس تزوجي أنتِ.. دعينا نرتاح من وجهك العكر .
ـ لن أتزوج يا منصور « وإن كان هذا يكيدك ،،، أنا أزيدك » .
ـ أجلسي يا شيخة .. لغاية ما تعنسي .
ـ جالسة يا منصور على قلبك زي الجبل .
ـ يا شيخة ، أحمدي ربك لقيت أحد يوافق على الزواج منك ، وكما تقول ستي (اسمها قمر وأبوها شهاب وشكلها زي الهباب) .
اغتاظت من قولي ، ومدت لسانها ساخرة مني ، وتوارت إلى الداخل .

لم يزل أهل المدينة يتعجبون من ثورة الشريف حسين على الباب العالي وشق عصا الطاعة ، لكن تحالف الشريف وهو من سلالة نبينا عليه الصلاة والسلام مع الإنجليز الكفار لمقاتلة الجيش التركي المسلم أمر يصعب تصديقه ، ، إن تزاوج الأبيض والأسود يلد لوناً رمادياً هجيناً ، تشعر به لقيطاً لا هوية له ، إن تزاوج الكفر والإيمان ينجب ولداً مسخاً لا تؤمل رجولته ، وما ينجب تزاوج ضوء الشمس والجدار غير ظلٍ مهينٍ تدوسه الأقدام ، سيدي كمال كان لا يصدق هذا التحالف لكن تواتر الأخبار وكثرتها جعلتني أصدق بحزن .

مضى زمن على عودة فخري باشا إلى المدينة بعد مطارته لجيش الشريف.. كان من رأيه التراجع إلى المدينة خوفاً من هجوم قد يتعرض له جيشه من قبائل الشمال وهم على خبرة عالية بطبيعة الصحراء ومجاهلها وخوفه أيضاً من مدافع البوارج البحرية الإنجليزية ، يبدو أن هذا التراجع كان خطأ كبيراً، فمن حوالي الأسبوع تقريباً تواترت الأخبار بانتصار الشريف فيصل بن الحسين على الحامية التركية في ينبع البحر مما يضمن له وصول إمدادات الإنجليز إليه عن طريق البحر، كما أن الشريف علي بن الحسين زحف إلى المدينة .. استطاع الوصول إلى الفريش وهي على بعد أربعين كيلومتر تقريباً عن المدينة وأقام معسكره هناك الذي عُرف باسم { عُرضي الشريف } وبدأ بحصار المدينة من تلك الجهة .

هذه الأخبار أعادت الضجيج للمجالس .. للأسواق .. هل هي بداية الهزيمة لفخري باشا .. هل ينجح الشريف في اقتحام المدينة وطرد الأتراك منها كما فعل في مكة وجدة وينبع .. أم يحاصر المدينة ويمنع دخول الطعام والغذاء ويتركها فريسة الجوع فلا تجد حلاً غير الاستسلام والتسليم .. كنت أرى العيون مشنوقة على حبال الأسئلة .. لا

تدري ما الله قاض في أمرها .. كل الاحتمالات ربما تصبح حقيقة .. خير يا رب .. ألطف بنا يا رب .. هكذا تردد ستي دوما .

اليوم زارتنا خالتي زكية .. عاتبتني كثيراً على غيابي ، فمنذ زمن قطعتُ عادتي الأسبوعية في زيارتهم ، كانت تسكن في زقاق الطيار وكان ابن خالتي طارق له مودة خاصة في قلبي .. تزاملنا في كُتاب القُبة بالمناخة وكثيراً ما شاركني لعبة القشاع وابتكار الزومال ، كان عتاب خالتي شديدا ، وضعتُ أمامها كل الأعذار الحقيقية وغير الحقيقية لكنها لم تلاق عندها قبولاً ، هي لا تشبه أمي في طباعها ، حادة ولسانها لاذع وفيها قسوة كبيرة على أبنائها وكثيراً ما كان طارق يشكو لي من أمه .

فاجأتني خالتي بعزمها على السفر إلى جدة استجابة لنصيحة أحد أصدقاء زوجها خوفاً من المخاطر التي تتهدد المدينة ، إذن بدأ الأهالي في البحث عن حل ، تريد الهرب من القادم ، انتظري يا خالتي .. لعل الله يبدل الأحوال .. لعل الشريف حسين يُهزم وتنتهي هذه الأزمة .

كانت الحراسة مشددة على أبواب سور المدينة ، لذا لم يكن رحيل خالتي واسرتها سهلاً ، فعليهم أن يتجهوا إلى الجرف شمال المدينة ، متوارين عن مخافر الشرطة ، ثم يواصلون سيرهم إلى عُرضي الشريف ليزودهم بالطعام والمال وييسر لهم السفر إلى جدة ، هكذا كان يصنع الشريف مع من يريد الخروج من المدينة ويعلن ولو كاذباً أنه من أنصار الشريف حسين والمؤيدين لثورته .

رافقت أمي وكوثر لوداع خالتي زكية ، كان الوقت صباحاً والجمال تقف أمام البيت وقد شُدت عليها أمتعة السفر ، كما وضعت الشقادف على جملين لأفراد الأسرة ، حضر طارق وعم صالح زوج خالتي من الحرم بعد أن صليا الفجر والضحى وزارا حبيبنا عليه الصلاة والسلام وقاما بشرف السلام عليه وتوديعه كعادة أهل المدينة حين ينوون السفر أو يعودون من سفر .

كان صباحاً بملامح اليتم ، الشمس ترسل أشعتها كأصابع حانية تربت على أكتافنا وتدعو لنا بالصبر ، زوج خالتي يتأمل تفاصيل البيت يريد أن يختزنها في ذاكرته ويمنحها وعداً بالعودة قريباً ، منال ابنة خالتي تثرثر مع كوثر وتشير إلى إحدى جهات الروشان ، علمتُ فيما بعد من كوثر أنها الجهة التي تختبئ فيها حين تطرق جارتهم ثقيلة الدم (أم السعد) الباب وتقذفها منال بحجارة صغيرة ليأخذها الضيق وتمضي ..
وتردد منال « مع السلامة يا جربة ،،، أكسر وراك شربة » وحين تشتكي أم السعد لخالتي فإن منال تدّعي أنها كانت تكنس السطح وترمي بالحجارة الصغيرة من الأعلى دون أن تنتبه لوجود أم السعد، يبدو أن لحظات الوداع تجعلنا نستدعي ذكرياتنا كنوع من العهد والميثاق أن لا ننسى .
أمي تعانق خالتي ويتبادلان الدعاء والنصائح والأمنيات باللقاء القريب ، كل ذلك مختلطاً بالبكاء والآهات ، ركبت خالتي ومنال على الشقدف المثبت على أحد الجملين ، وركب زوج خالتي وطارق الجمل الآخر ، همست لخالد قبل صعوده الشقدف :
ـ الحياة حلوة في جدة ، وصحبت قولي بابتسامة عرف طارق مغزاها .
إن مشاعرنا في لحظات الوداع تنقسم بين رغبتين ، رغبة أن نبقى مع من نحب وقتاً أطول ورغبة أن ننتهي منها بسرعة .. لنرتاح من قسوتها ومراراتها ، شعرتُ أن الروشان عيون خشبية صغيرة تنظر للراحلين بحزن ، بابهم مدهون بطعم الفقد .
الله معك يا طارق دوماً كنت ترى أن قسوة الحياة تجعلنا أجمل .. أكثر تصالحاً مع أنفسنا .

*** ***

أصبحت أفهم لماذا يلجأ أبي إلى زيادة مخزون الغذاء في بيتنا ، فقد ينجح أبناء الشريف بحصار المدينة ومنع أي أغذية من الدخول إليها ، ولكن ما تعجبت منه إخفاء هذا المخزون في حجرة الطيرمة بل قام أبي

ببناء جدار في الديوان وتخزين كيس من الأرز وكيس من الدقيق خلفه حتى لا يراه أحد .. أحجمت عن سؤال أبي عن السبب فما تعودت أن أبادره بسؤال .. فصرامته وحدته لا تسمح لي بذلك .

بعد أسبوع من رحيل خالتي زكية ، دار المنادي ثلاثة أيام في الأسواق ينصح أهل المدينة بالرحيل ، فالأقوات بالكاد تكفي الجند ، وفخري يخشى عليهم من مجاعة يتعرضون لها والحكومة ستتفرغ لمقاتلة الأعداء ، هو لا يعلم أن خروجنا من المدينة معناه خروج أروحنا من أجسادنا .



أغلقتُ المحل بسوق الحبابة وانطلقت إلى الحرم عبر سوق (جوه المدينة) .. كان يضج بالحياة .. بالناس .. أشعر أن الله خلق قلباً واحداً كبيراً ثم قسمه إلى قلوب صغيرة أودعها صدور هؤلاء البشر، قلوبهم تتجه لخالق واحد ، أمنياتهم تتشابه ، كلهم يريد الجنة .. أناس بقلب واحد وألسنة مختلفة ، تتأمل .. فإذا أنت سائح في أزقة قلب كبير .

أثناء مروري في السوق سمعتُ عم خليل تركستاني يتحدث إلى بائع يبدو أنه يعرفه :
ـ لا أدري يا ناصر أين أسافر ؟ لديّ سبعة أبناء وأمهم الله يحفظهم ، والحال كما تعرف مستورة .
ـ حسبي الله عليك يا فخري .
ـ يعني أحتاج يا ناصر أجرة الجمال وأجرة سكن جديد وشراء حاجيات للسفر ، وكيف أعيش في البلد التي أسافر إليها ، الموضوع صعب يا ناصر ، صعب جداً .
ـ اجعل توكلك على الله يا خليل ، ربك يدبرها .
بعدها سمعت أحدهم يحدث صاحبه :
ـ والله لن أترك المدينة ، ولو قطّعوا رقبتي .. لو قطعوني قطع .
ـ وأنا مثلك يا عبدالحليم ، يعني تحملنا عناء ومتاعب الله عالم بها ، وهاجرنا من بلادنا ، وبعد ما أكرمنا ربنا بجوار نبيه عليه الصلاة والسلام نتركه . مجنون فخري هذا .. أكيد مجنون .
كانت الناس في حيرة ، فبعد ذلك النداء في الأسواق ونصيحة فخري باشا للجميع بالسفر، وقع الجميع في اضطراب وألم ، إلى أين ؟ فالكثير لا يملك ما يكفيه زاداً للسفر .. إلى أين والغربة عذاب .. إن الرحيل عن الوطن ليس هيناً ، فما الحال والمدينة المنورة هي الوطن .

بعد صلاة العشاء توجهت إلى بيتنا ، دادا حوا تفتح الباب وبيدها المسرجة لتنير لي الدهليز ، في اتجاهي للديوان سمعتُ أمي وقد اختلط صوتها ببكائها :ـ

ـ كمال وأختي زكية ، من يا ترى سنفارقه أيضاً ، منك لله يا فخري .

إن الاسى يستدعي الأسى ، كأنما سيدي كمال غادر لتوه ، ، تذكرتُ زياراتي لأخي في السجن ، وعليه مسحة الهدوء والاطمئنان واليقين كأنما هو في صلاة لا تنتهي .

تعجبت من ستي فاطمة ، تشرب الشيشة في وجود سيدي عبدالله ، هو يرى أن رائحتها تُبعد الملائكة ، يبدو أن نفسها ضاقت بالأخبار الأخيرة ولم تجد حيلة لنفث همومها غير الشيشة ، في العادة كانت ستي تترصد خروج سيدي لشرب الشيشة ثم تفتح النوافذ لتطلق البخور حتى لا يشم رائحتها .. صرح سيدي بانزعاجه لكنه مازح ستي أخيراً :

ــ ما رأيك يا فتو ، تذهبي إلى خالك في جدة ، سمعتهم يقولوا الحُمِّي[١] رخيص هناك ، ومنه أنواع أيضاً ، يعني تدخني شيشة للصبح .

ــ والله ما أذهب لأي مكان وأتركك ، أنا هنا جالسة معاك .

ــ حسناً ، ما رأيك يا فتو ، لو أذهب معك إلى جدة حتى تنتهي الأزمة .

تدرك ستي أن سيدي عبدالله يمازحها ، فليست هناك قوة مهما عظمت تستطيع أن تزحزحه عن المدينة التي هاجر إليها منذ زمن بعيد وفاز بجوار رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام ، فكيف يفرط في هذا الجوار وإن أُعطي كنوز الدنيا ، وإن دارت حوله شتى المخاوف .

أما كوثر فقد زاد من آلامها سفر صديقتها حصة إلى ينبع النخل هرباً مما قد يحدث في المدينة ، قلت لها ممازحاً لأهون عليها :

---

[١] ـ الحمي : يوضع على حجر الفخار الخاص بالشيشة بديلاً عن الجراك .

ما رايك لو حدثتُ أبي في موضوع العريس لعله يوافق عليه ويتم الزواج سريعاً ، ألا تري الدينا تتغير من حولنا وأخاف أن لا يأتي عريس آخر ويوافق عليك .
تجاهلت قولي وأجابت :
ـ منصور .. أيمكن أن يأتي يوم ونسافر عن المدينة ؟
ـ يا شيخة « فال الله ولا فالك » ، تحبي النكد يا كوثر .
في اليوم التالي ، وبعد أن أديت مع عبدالوهاب صلاة العشاء بالقرب من حديقة ستنا فاطمة بصحن الحرم ، ترافقنا إلى المناخة حيث شربنا الشاي واستمعنا إلى عم شاكر الحكواتي ، الأحاديث تدور حولنا عن الأسر التي سافرت وتلك الأسر التي تنوي المغادرة ، والكثير يصر على الجلوس في المدينة مهما حدث ، بعضهم يمنعه الخوف من الغربة ومتاعبها ، وآخرين يُقعدهم قلة ذات اليد حين يفكرون في تكاليف السفر ، وهناك من يرى مفارقة المدينة والتخلي عن أجر سكناها وعدم الصبرعلى أحوالها قلة إيمان وجري وراء دنيا فانية .
عدتُ إلى البيت في الثالثة والنصف مساء بالتوقيت الغروبي [١]، كان والدي لا يسمح بالتأخير أكثر من ذلك .
لم تزل ستيتة سلمى عليها مسحة الحزن تداريها باللعب مع مصطفى الصغير ، وكوثر تقول لها :
ـ يا شيخة ، لو أن سيدي كمال رآك بهذه الحالة لتمنى أن لا يعود ، يا أم مصطفى « أتركي الهم ينساك ،،، وإن نسيتيه يسلاك » .
وستي فاطمة تقترب من المائدة وتنادي ستيتة سلمى :
ـ بسم الله يا سلمى ، يعني يا ابنتي « هم وقلة مم » .
حين قدمت أمي من المطبخ تتهادى بصحن الفول ، وأبي غائب عن وجبة العشاء لسهره مع أصدقائه ، بادرتها كوثر بقولها :

[١] ـ التوقيت الغروبي : توقيت قديم ، يبدأ اليوم فيه من آذان المغرب في الساعة الثانية عشرة فيكون آذان العشاء الواحدة والنصف .

ـ يا سلام على خصلات الشعر النازلة على الجبين ، يا حظك يا أبي .
ـ عيب يا بنت .
هكذا هي كوثر، تستطيع أن تواري كل أحزانها وتشيع الفرح في البيت .
صعدتُ بعدها سريعاً إلى السطح ، لأتمدد على الفراش وأتأمل النجوم ، وأرى أمامي شعر بدرية الرائع وهو مسدل على ظهرها .



أعجبني تشبيه عيسى للشريف حسين بالقطة التي انتفخت وأبرزت مخالبها تريد طرد الحصان من الإسطبل الخاص به والجلوس مكانه ، ففخري لديه من المدافع والعتاد والمؤن وجند بخبرة قتالية عالية ما يفوق الشريف حسين بمراحل حتى وإن سانده الإنجليز، وفي اسوأ الأحوال إن نجح في حصار المدينة ، فلن يطول به الأمر .. حتماً سيجعله اليأس ينسحب مهزوماً مخذولاً .. ففخري قام بخزن كميات كبيرة من السلاح .. ولجأ إلى حفظ التمر والخبز المجفف بما يكفي لسنة وأكثر ، أبي يرى سلامة أهل المدينة من الأمور التي سيراعيها الشريف حسين إن نجح في اقتحام المدينة في يوم من الأيام ..فكيف له أن يؤذي جيران الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام .. كما أن أبي يطمئن للمخزون الكبير من الغذاء ويراه يكفي عاماً بأكمله بإذن الله ، ويتعجب من تعجل بعض الأسر في الخروج من المدينة ، وهي أسر قليلة على أية حال ويردد :-
ـ يا جماعة هذه المدينة .. المدينة .

*** ***

أصبح كل يوم يأتي بجديد .. بألم، فاليوم حضرت ستيته عيشه وعلى وجهها مسحة حيرة ، تُمسك بولدها محمود بتوتر وتحاول أن لا تتركه يخرج إلى الحوش للعب مع إبراهيم ، صدمتنا بعزمها على السفر هي الأخرى .. جاءت لوداعنا، فأهل زوجها أجمعوا أمرهم على السفر إلى مصر هروباً من مخاطر محتملة في الأيام القادمة وأملاً في معرفة خبر عن ابنهم عبدالرحمن بعدما ذهب لمجاهدة الإنجليز في السويس .
تماسكي يا أمي .. لينهار العالم من حولنا إلا أنتِ ، أنتِ ماء الحياة .. نور الأمكنة ، فراق الأحباب موجع يا أمي ، سافر سيدي كمال ، كان دوماً ينزل من الأعلى ويناديك .. لا يخرج من البيت حتى يقبل يدك ورأسك ويطلب منك الدعاء ، بعده سافرت خالتي زكية ، كنت تثرثري

معها دوماً لساعات طوال ، وحين تغادرنا إلى بيتها تقولي « الله يخلي أختي وأخويا ،،، أشم فيهم ريحة أبويا » والآن ستيته عيشه .. تتباسطي معها في الحديث كأنها صديقة لك ، تماسكي يا أمي من أجلي ، من أجل أسرتنا ، من أجل أهل الحوش لتكوني معهم كعادتك في أزماتهم فأنت كما تقول عنك ستي « شاركت جارتها في أفراحها ،،، ونسيت آساها وأتراحها » .

الغريب أن محمود تعلق بكوثر رافضاً الذهاب مع أمه ، لم تكن هذه عادته ، لعله يدرك مرارة الفراق ويريد أن يبقى زمناً أطول ، أو هو يرفض السفر ومفارقة المدينة ، في النهاية أغرته ستيته عيشه بقطعة حلوى لوزية ومعها قطعة معمول ، واحتضنته طويلاً ودست أمي في يده قرشين وأوصته بالانتباه على ستيته عيشه ، فنسى ما كان فيه وانتصب كرجل ذي هيبة قائلا :

ـ لا تخافي يا ستي ، أنا معاها ، والله لا يجرؤ أحد على أذيتها .

كلماته أثارت الضحك رغم مرارة الموقف .

عند الباب أوصتها أمي بقراءة الآية { إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد } وتظل تكررها طوال السفر ، سرت معهم وأوصلتهم إلى بيتهم في زقاق الرستمية بحارة الأغوات وودعتهم هناك .

حين عدت ، جلستُ مع عبدالوهاب على الدكة الحجرية بجانب باب بيتهم أريد أن أنسى وداع ستيته عيشه ، ثرثرنا تحت سحابة سجائرنا عن أحوال المدينة ، مرّ بنا سيدي محمد علي الدرويش ، لم يزل يلبس ثيابه المتسخة .. شعره الأشعث مختلط بالتراب ، عادة لا يُرى في مثل هذا الوقت المتأخر ، فصلاة العشاء انتهت من وقت ليس بالقصير ، كنا ونحن صغار نجري وراءه ونقذفه بالحجارة مرددين :

محمد علي يا مجنون .... هات القرش يا مهبول

ولاّ نقول للسلطان .... هذا يآذي الجيران

وأمه نفيسة على الدرجان .

كانت أمي تحرص على الاحتفاظ بالخبز الصغير(الحناني) بعد أن أُحضر طاولة الخبز من فرن طه سمسمي لتعطيه إياه ، وكان أبي يغضب كثيراً حين نؤذيه .. يخاف علينا من دعوة قد تصيبنا منه .. في العام الماضي كان يدور بين الأزقة والأحواش ويدندن :

عربية غريبة .... تجري وتتمرجح

لا يجرها حصان .. ولا حيوان

وعلى أربعة تمشي وتتصدر

كنا نضحك عليه .. نتعجب من عربة تسير على أربع ولا يجرها حصان ولا حيوان ، حتى شاهدنا فخري باشا يركب سيارته الصفراء ويتجول بها على المخافر والثكنات العسكرية في باب الشامي والعنبرية ، لم نشاهد سيارة قبلها ، وكثير من أهل المدينة أخذهم العجب منها ، وتذكروا تخاريف سيدي محمد علي .

سأله عبدالوهاب :

ـ يا سيدي .. من ينتصر ؟ فخري أم الشريف حسين ؟

ـ ستعرف حين ترى طيوراً بلا ريش في السماء ، والمدينة بلا كلاب .

كان عبدالوهاب يريد أن يشبع فضولنا في استشراف الغد ، لكن اجابة سيدي محمد علي أثارت عجبه وألجمته ، لم نستحثه على التوضيح ، سيقول كعادته ألغازاً تستعصي على أفهامنا ، ينسبونه دوماً لأهل الخطوة ، ففي أحد الأعوام شاهدوه يحج في مكة ، في الوقت الذي كان يصلي العيد في المسجد النبوي .

صديقي عيسى يرى سيدي محمد علي ولياً من أولياء الله ، فقد رآه في سوق { جوه المدينة } وحدّث نفسه بأن هذا الرجل مجنون وكل ما يُقال عنه مبالغة وخرافة ، فجاءه سيدي محمد علي وقال له :

ـ المجنون من ترك طريق المحبة ، وتلقفته المعصية .

دأب على أخذ القروش من هذا وذاك ليوزعها على الفقراء والمحتاجين ولا يترك لنفسه منها شيئاً ، كان لا يقبل الأعطية إلا بمن يثق في تقواه وورعه وطهارة ماله .



الهواء لا يهدأ في الأجواء ، مثل مدينتنا هذه الأيام .. تعج بكثرة الأخبار ، بالإشاعات ، بتفسير يشرح هذه الأخبار وتفسير آخر ينقضه ، لا ندري أي مصير ينتظرنا ، فبعد تلك النصيحة التي دار بها المنادي في أسواق المدينة لمدة ثلاثة أيام ينصح الجميع بالرحيل والناس في تخبط وحيرة .

في صباح كأن شمسه خرجت من بيت أرملة حزينة ، ، أخبرني عبدالوهاب بنزع النخيل في حديقة العيني بُغية شق شارع يبتدئ من باب السلام باتجاه المناخة لمد سكة القطار ، وبعد أن تم فخري باشا ذلك شاهدنا الجنود الأتراك يقومون بتغليف كنوز وهدايا الحجرة النبوية بعناية فائقة ويودعونها إحدى عربات القطار بقصد إرسالها إلى الأستانة بتركيا .

انتاب الغضب سكان المدينة بعضهم يرى ذلك سرقة لهذه الكنوز التي لا تقدر بمال ، بُغية اقتسامها هناك في تركيا ، فما عاد للاتحاديين أمان بعد عزل السلطان عبدالحميد وتولي الحكم ، وبعضهم يرى أن فخري يخشى من نجاح جيش الشريف في اقتحام المدينة وسرقة هذه الكنوز الثمينة .

يقولون أن بين هذه الكنوز مصحف سيدنا عثمان رضي الله عنه الذي نزف عليه دمه الطاهر حين اقتحم الثائرون منزله وقتلوه وهو صائم يقرأ القرآن ، وكان شائعاً وفاة من يقرأ في هذا المصحف من ليلته أو بعد ثلاث ليال على الأكثر .

تمضي الأيام ، الحكاية تولد في المساء لكنها تكبر في الصباح وكأنها عاشت أعوام ، نسى الناس قليلاً ارتفاع الأسعار في الأسواق .. اختفاء التمر من الأسواق والمصير المجهول الذي ينتظرهم ، كان الحديث يدور عن فخري وحمل كنوز الحجرة الشريفة إلى الأستانة ، فهذه الكنوز ليست حقاً له فيتصرف فيها كيف شاء ، أهل المدينة يشعرون

بالقهر والغيظ لعجزهم عن فعل شيء ، لكن ماذا نفعل ونحن كحصاة لا تملك من أمرها شيء أمام السيل .

عاد القطار محملاً بالجند والذخيرة والمؤن للحامية العسكرية ، وبعدها بأيام قام الجند بتغليف مخطوطات مكتبة عارف حكمت ووضعت في إحدى عربات القطار ليتم سرقتها أو انقاذها هي الأخرى ، رفضت ابنة الشيخ عارف حكمت ذلك ، بل وأوضحت لفخري أن أبيها أوقف هذه المخطوطات لخدمة أهل المدينة وزوارها ولا يجوز التفريط بوصية أبيها ، إلاّ أن فخري ركب رأسه ولم يستمع لها .

حمدتُ الله أن سيدي كمال لم ير هذه الكارثة وإلا كان القهر والألم ملأ قلبه طيلة عمره ، كثيراً ما أخبرني بوجود ما يقارب أربعة آلاف مخطوط في المكتبة ، وكان يقضي الوقت بين العصر والمغرب يقرأ فيها ، لكن يوم ولادة مصطفى لم يتمكن من الذهاب ، فمازحته قائلاً :

ـ اليوم اجازة من المكتبة ، لا أدري ما يعجبك في هذه الكتب .

في اليوم التالي جلس فيها من العصر وحتى العشاء تعويضاً لما فاته بالأمس .

كان سيدي كمال شغوفاً بالعلم ، فقبل سنوات كان حريصاً على حضور المجلس الأدبي في بستان الآبارية للشاعر عبدالجليل برادة يرحمه الله ، وأحياناً يحضر مجلس الشيخ إبراهيم اسكوبي رحمه الله الذي توفي من حوالي سنتين ، وهو شاعر مديني مشهور ويحفظ قصيدته { يا آل عثمان } التي بسببها أُبعد عن المدينة وتمت محاكمته في تركيا ، لم أحفظ غير البيت الأول بسبب كثرة سماعه من سيدي كمال وصديقي خالد :

يا آل عثمان فالمغرور من غّرا ....

بأهل أوربةٍ أو عهدهم طرا .

بل يحفظ قصيدته التي ذاع صيتها عن السفينة والقطار والمفاخرة بينهما وتسمى المزدوجة ، وكثيراً ما يتردد على مجلس الشيخ محمد العمري وهو من شعراء المدينة الكبار .

كان المخبول أبو جميلة أثناء نقل الجنود لمخطوطات المكتبة يختبئ خلف شجرة كبيرة ويصرخ بالجنود :

ـ يا حرامية .. يا كلاب ، يا حرامية .. يا فيران .

حتى ضج منه الجنود وأوثقوه وكمموا فمه لحين انتهاء عملهم .

كل سكان المدينة يعرفون المخبول أبو جميلة ، يسير في الطرقات .. يحرص على حضور الأفراح ومجالس العزاء .. يتحدث بصوت عالٍ وكأن هناك شخصاً يحادثه ، يخلع كل ملابسه أحياناً ويتعرى تماماً ، يجلس على القهوة ويجد من يُحسن إليه ببراد الشاي والشيشة ، يقولون أن جميلة حبيبته لم يوفق بالزواج منها ، فجن وسُمي باسمها ، رأيته كثيراً ينام في الخرائب وتحت الشجر ، يعجبني حين يأتي ذكر فخري باشا ، يتغير وجهه بشكل مضحك ، وعيونه يملأها الشر ، ويشمر عن ساعده ويمد لسانه ، ثم يبدأ بسب فخري بكل مسبة يعرفها .



(-٢٠-)

جاءت الأخبار بتراجع فخري باشا وانسحابه إلى ضواحي المدينة ، وبزيادة قوة جيش الشريف بانضمام بعض قبائل الحجاز إليه ، وتزويد الإنجليز له بالمدافع والأسلحة الحديثة .

الخوف بدأ ينهش الصدور ، زادت الحيرة في القلوب ، العيون تتساءل : إلى أين ؟ النفوس لم تعد قادرة على اختراع الآمال . المرايا لم يعد فيها غير وجه واحد يجزم بحدوث الحصار . أسعار الأغذية ارتفعت بشكل فاحش مع قلة المعروض منها ، اتجهت القلوب إلى الله بالدعاء ، حتى أن المولد الشريف الذي تم الاحتفال به في صحن الحرم الشريف خُتم برفع الأكف الضارعة إلى الله أن يحفظ المدينة وأهلها . أن يخزي جيش الشريف ويرد كيده في نحره ، أن ينصر فخري وجنده ويُعلي مكانتهم فهم يحمون الحرم والمرقد الشريف من دنس الإنجليز الكفار .
بعد نهاية الدعاء تم توزيع (الشربات) والحلوى على الوجهاء والأعيان والحضور .. حين عدتُ من المولد مازحتني كوثر بقولها :
ـ والله والله « كنا في جرة وطلعنا لبرة » .
ـ إيش تقصدي ؟
ـ أعني بعد القشاع والعراك ، أصبحنا نحضر موالد ومجالس ذكر .
ـ من زمان وهذا حالي .
ـ يا شيخ حرام عليك ، سيدي كمال كان يسحبك للحرم سحب .
وأحبت أن تُكمل ، لولا أن ستي فاطمة أوقفتنا قائلة :
ـ يكفي إنتِ وهو ، ما عمركم تتحدثون مثل الناس غير خصام ومزاح ثقيل ، صدق من قال « مزح الحمير ... عض ورفس وتحفير » .

بعد مضي أيام ، سمعنا بأسر أشرف بك التركي واستطاع أبناء الشريف محاصرة المدينة من الشمال والغرب والجنوب .. ولم يبق منفذ للمدينة غير القطار وطريق الشرق المؤدي إلى نجد حيث تصل بعض المؤن من ابن رشيد حليف الأتراك ، وابن سعود الذي سمح بمرور بعض القوافل إلى المدينة وأكثر هذه المؤن تذهب للجند ، بل أستطاع عبدالله بن الحسين الاقتراب من شرق المدينة جهة العاقول ومنع القوافل والأغذية من الوصول إلى المدينة .

مع تلاحق هذه الأحداث ، أصبح الناس يبحثون عن طريقة للخروج من المدينة ، فالحصار الذي يخاف منه الجميع قد وقع .. لا أحد يعلم أي مصير مؤلم ينتظر أهلها ، بل إن المنادي يدور في الأسواق ، ينتقل من حوش إلى آخر ، يمر على الأزقة والأحياء ، يرفع عقيرته حاثاً الجميع على سرعة السفر .

يعود السؤال يطرق القلوب بقوة : إلى أين ؟ فكل طريق يُبعد عن المدينة طريق مؤلم .. كيف يعيشون بغير الحرم .. بغير جوار رسولنا عليه الصلاة والسلام ، بغير صوت النجدي يؤذن للصلاة والشيخ أسعد توفيق يؤم المصلين ، كيف يتنفسون هواء غير هوائها .. ليس عجباً أن يتلكأ أهل المدينة في خروجهم، وأي بديل عن سيدة الدنيا تلم أرواحهم العالية.

هناك تحت الشجرة يجلس أبو جميلة ، فرحاً بقطعة خبز يلتهمها ، يمر سرب من الطيور فيحاول الوقوف ليصطاد أحدها ، يتحدث مع شخص وهمي ويكيل إليه السباب ، يجلس ويحك فروة رأسه المتسخة ، ما أسعدك يا أبا جميلة ، لا تدري عن ما يحدث في عالمنا ، تعيش في عالم آخر .. أنت من يصنع ضحكه وبكاءه .

فخري المجرم لم يناسبه تأخر أهل المدينة في السفر، فبعدما سرق كل تمورها وخيرات مزارعها ، ها هو يرسل جنده إلى المنازل ليسرق قوتهم ، ويجبر أهلها على الرحيل .

حزنت من أجل صديقي يوسف ، اقتحم الجنود بيتهم وعثروا على صفيحة تمر وكيس دقيق .. صادروهما ولم يتركوا لهم سوى كمية من الأرز والسكر تكفي الأسرة لبضعة أيام ، كان يحدثني ويضرب كفاً بكف .. فمن اين لهم المال للسفر وإلى أين ؟ لم يكن هذه حال أسرته وحدها ، بل أسر كثيرة تتردد في السفر لقلة ذات اليد ، رغم أن فخري باشا وعدهم بتوفير الطعام لهم في الشام إن رغبوا السفر إلى هناك ، لم تبق هناك وسيلة للخروج غير القطار بعدما حُرست أبواب السور بحراسة شديدة خوفاً من اقتحام جيش الشريف للمدينة ، أو خروج أحد من أهل المدينة والتعاون مع الأعداء ، فبعد حادثة العوالي وقربان العام الماضي لم يمل فخري باشا من ترديد عبارته { عرب خيانات } .

في الصباح شاهدت الجنود يخرجون من بيت جارتنا أم ياسر يحملون كيس من الأرز وهي تصيح وراءهم :

ـ حرام عليكم ، هذا طعام أيتام ، حسبي الله عليكم ، حسبي الله ونعم الوكيل .

بعد أن خرج الجند ، قامت أمي بالذهاب إلى أم ياسر لمواساتها في مصيبتها ، ووعدتها بتوفير الطعام لها ولصغارها الأيتام ، كانت أمي تعدها وهي مطمئنة إلى مخزوننا الكبير من الغذاء .

أما أبو سمير جارنا في الحوش فقد رفض دخول الجند إلى بيته واتهمهم بمحاولة السرقة ، لكنهم أوسعوه ضرباً ، وأخذوا كل الطعام من بيته حتى طعام ذلك اليوم نكاية به .

بعدها دخلوا إلى بيتنا ، لم يجدوا أمامهم غير مؤونة تكفي لأسبوع واحد في المطبخ ، أبي نصحنا بذلك لإقناعهم أن تاجراً مثل عبدالسلام القوصي لا يحتاج للاحتفاظ بمخزون غذاء أكثر من ذلك ، ولكن بالمقابل استطاعوا أخذ عدد من أكياس الأرز من محلنا في سوق الحبابة كهدية إجبارية منه لفخري باشا .

هذا كثير .. كثير ما يحدث لنا.. كان يمكن للحرب أن تدور رحاها خارج أسوارها .. أن نتجنب هذا الحصار .. فيخرج فخري بجيشه ويظل يقاتل حتى ينتصر أو يهزم .. أصبحت الأمور واضحة الآن .. ففخري يزيد من قسوته ليجبر أهل المدينة على مغادرتها خوفاً من حصار يميتهم جوعاً أو اقتحام يحصدهم قتلاً .



(-٢١-)

حين تكبر المصيبة ويمتد زمنها ، تتغذى الألسن بحب الجدال ، فالبعض يرى الاتحاديين سبب الكوارث التي نعيشها بسبب سياسة التتريك ، وبعضهم يرى فخري باشا ، وآخرون يرون الشريف حسين ، ولستُ أبالي أكان السبب هذا أم ذاك ، ما يشغل بالي هي أمي .. أصبحت تتخذ مكانها بجوار الروشان ، وتمد نظرها إلى الحوش ، أحياناً يأخذها البكاء وأحياناً تسرح في اللاشيء ، تركت شؤون البيت على دادا حوا وكوثر، لا معنى لكل الأحاديث التي تحاول بها ستي فاطمة التخفيف عنها ، كلما وقع نظرنا عليها ارتد بالصمت .. بالرغبة في عمل شيء ، فلا نجد غير عجزنا نبتلعه ونسأل الله لها الصبر والفرج ، لم يكن هيناً مفارقة سيدي كمال وخالتي زكية وستيته عيشه .
ما تريد منا يا فخري ، لن أنسى لك بيوت العزاء بعد مذبحة العوالي وقربان .. ترحيل سيدي كمال ، النخل الذليل وقد سُرق تمره ، البيوت المفجوعة بمصادرة غذائها ، وها هي الغالية يتسلل إليها الحزن ويحتل قلبها.
في الحرم .. صليت ركعتين في الروضة .. أشعر أن الملائكة تتزاحم فيها وتزهر روضة رائعة داخلنا .. دعوت الله أن يهون مصائب أمي .. ويمنح قلبها الصبر .
بعد صلاة العشاء ترافقت مع الأصدقاء إلى المناخة ، استمعنا إلى جزء مثير من قصة عنترة بن شداد ، تألق عم شاكر الحكواتي في وصفه لمواقف فروسية عنترة ولقائه مع عبلة ، كنا نجلس على كراسي الشريط وبراد الشاي يسكب نعناعه في جوفنا ، يختلط دخان السجائر مع دخان الحُمّي من شيشة عيسى ، والجميع متلبس بالصمت ، كان الواحد منا يخشى أن يفاجئه العطاس فيثير ضيق المنصتين لعم شاكر .

أثناء عودتنا على ضوء الأتاريك المنتشرة في المناخة وشارع الساحة ، كنا نثرثر عن أصحابنا الذين غادروا إلى القرى القريبة مثل المسيجيد وبدر ، فاجأني خالد بعزم أسرته على السفر إلى مكة فلا قدرة لأبيه على تحمل أسعار الأغذية المرتفعة بل لا يرى فائدة من شرائها وجنود فخري يدخلون البيوت ويصادرونها ، ومحل التنجيد لا يقف عليه أحد ، فمن يفكر في عمل وسائد وأرائك وسط هذه الظروف ، فلم يبق غير الرحيل ، وأي حل آخر مغامرة لا طائل منها ، هكذا كان يرى عم أبو خالد .

يا الله امنحني الصبر .. امنحني القوة ، بدرية سترحل ، كرة سوداء تقف في حلقي وتخنقني ، النخل يسقط على الأرض ويحتضر ، أذني تسمع عيسى وهو يثرثر مع خالد عن مكة وأصدقائنا هناك ، تصلني كلمات متباعدة بصوت عبدالوهاب وهو يجزم بتوفر الغذاء والأمن والطمأنينة هناك بعدما نجح الشريف حسين في طرد الأتراك ، يتأسف على سفر خالد والوحشة التي سوف نلاقيها بغيابه ، كنت في دنيا تناديني بعيداً عن كل هذه الأحاديث ، أحاول الفكاك منها ولكن بلا فائدة .

أكملتُ الطريق لوحدي بعد أن دخل عبدالوهاب إلى بيتهم ، ونقل لي رغبة أبيه في السفر أيضاً ولكن لم يحدد وجهته حتى الآن ، وقبل أن يدعوني أهلي للعشاء ، أخذتُ لمبة أم فتيلتين ودواة الحبر ومعها قلم البوص ، إلى إحدى الحجرات العلوية ، وعلى ضوئها كتبت رسالة إلى بدرية .

بسم الله الرحمن الرحيم

حبيبتي بدرية

أخبرني خالد بأمر رحيلكم إلى مكة ، قلبي لا يستطيع أن يصدق هذا ، كيف احتمل فراقك يا بدرية ، كيف يخلو المكان من أنفاسك .. كيف للهواء أن يرقص دون أن يلامس ملامحك .. إني أشتاق لك وأنت هنا .. بالقرب مني .. فما يصنع بي الشوق حين ترحلين بعيداً عني .

لا أدري ما أقول يا بدرية .. الخبر يلجم كلماتي .. كنت استلقي على فراشي بالسطح وأزجي الوقت بعدّ النجوم ودوماً أحتار من أين أبدأ .. هي مبعثرة غير منتظمة ، واضطراب مشاعري الآن وتزاحم الكلمات في صدري تجعلني لا أدري كيف أبدأ .

هل تعرفين يا بدرية .. مرات قليلة هزمني بعض الشباب في لعبة القشاع ، ما كنت أهتم بالدم النازف من رأسي .. ولا أشعر بألمه .. ما كان يؤلمني هو مرارة الهزيمة تأكل داخلي أكلاً ، وحين عرفتك ، عرفت هزيمتي في الحب .. لأول مرة اشعر بجمال الهزيمة .

منذ أن جاءنا فخري باشا .. وأنا بين حين وآخر أعد مصائبي على أصابع يدي .. الخنصر لدموع أبي في عزاء الشيخ يحي عباس .. والبنصر لترحيل سيدي كمال .. ثم سفر خالتي .. بعدها ستيته عيشة ، فإن قطعت إبهام يدي .. هل يتوقف أمر رحيلك يا بدرية ؟ .

كثيراً ما أتخيلك في بيتنا زوجة رائعة ، تكتبين للجدران والحجرات عمراً جديداً ، تمنحين القمر القدرة على أن يغني أغان جميلة ، سيكون للهواء أفراحه التي يفتخر بها ، سيسعد الشجر والنخل ، سأدخل القاعة حيث تثرثرين مع نساء العائلة ، فتقول لي ستيتة سلمى :

ـ منصور، لو سمحت ، دع عنك الفضول وتنح بعيداُ ، فنحن نتحدث في شؤون نسائية .

وبعد العصر نجلس معاً ، نشرب الشاي برائحة { الدوش) ، إنه نعناع المحبين ، فيه من قوتهم وعزيمتهم ، فيه من رقتهم وخضوعهم ، فيه رائحة اللقاء ووشوشة العتاب ، وفي خضم الحديث يُقبل ابننا محمد وهو يتعلم المشي ليقع في حجرك ويعبر لك عما يريد بلثغته الجميلة التي لا يفهمها غيرك ، كنتُ يا بدرية أنتظر قادم الأيام لزواجنا ، فكيف أقبل منها بفراقك .

يوم أحَبك قلبي .. حفرتُ على جذع شجرة النبق تاريخ تعارفنا ، ذلك التاريخ الذي أصبحت بعده الشمس تُشرق بحنان وجمال .. في الغد

سأكتب على جذع الشجرة تاريخ فراقنا هذا أسفل الشجرة لئلا يعبث بها أحد ولأن حياتي بعدك أسفل .
إنني أمني النفس أن تكون شهوراً قليلة وتنتهي هذه الحرب وتعودين يا بدرية ، اعتن بنفسك من أجلي .

منصور
٢٦/ شهر المولد /١٣٣٥هـ

قبل يوم السفر صحبتُ خالد إلى المناخة حيث اتفق مع الجمّال للحضور من الغد ومعه الجمال والشقادف الخاصة بركوب المسافرين ، أوصيتُ خالد بإبلاغ سلامي إلى صديقنا محسن المكاوي ، الذي تعودنا رؤيته سنوياً في مولد سيدنا حمزة حيث يُقام لمدة خمسة عشر يوماً تحت جبل أحد ، كانت ساحة أحد تمتلئ بالخيام لمكوث المصاحبين للركب المكي بل يأتي أناس من جدة والطائف ، وتُقام الموالد ومجالس الإنشاد ، وكنا نبتعد قليلاً لنقيم المزمار، كان محسن بارعاً فيه ولديه عصا يقول أنه تركها في الزيت لمدة ثلاث سنوات بأكملها حتى تكون عصية على الكسر .
في صباح السفر لم أستطع منع نفسي من إلقاء نظرة وداع على بدرية ، لم يكن لائقاً الحضور إلى بيتهم وقد قدم أقاربهم لوداعهم ، اختبأت خلف أحد المنازل ، كانت الجمال قد شُدت عليها أمتعة السفر وشقادف الركوب ، خرجتْ أم خالد وكانت تتحرك بحيوية فلا أثر للفراق في حركتها أو مشيتها، أو هكذا خُيل إليّ ، أما بدرية فخرجت ورأسها مطأطأ للأسفل ، حركتها متراخية كمن يريد أن يطيل وقت الوداع ، أكاد أجزم أن دموعاً تنساب من وراء البيشة التي تغطي بها وجهها ، ليرعاك الله يا بدرية ، ليساعدني ربي على تحمل هذا الغياب ، انتبهي لنفسك يا بدرية ، من أجلي ، من أجل أبنائنا القادمين ، انتظرتُ في مكاني حتى

غاب الركب عن عيني ، كنت أشعر أن الهواء قادم من جوف ذئب لئيم أو من صدر قاتل أعماه حقده وكرهه .
حين عدتُ كانت كوثر تكنس الدكة ، ناولتني رسالة من بدرية ، .. تلقفتها لأقرأ ما فيها :-
بسم الله الرحمن الرحيم
حبيبي منصور :-
كنتُ أعجن العجين في المطبخ ، وأراه مثل حبنا يتمدد ليشمل حياتي كلها ، وأرى أجزائه تلتصق بيدي التصاق تفاصيل حبنا بروحي ، فإن ضممته عاد بحجم قلب مكتنز بالعشق ، حينها نادتني أمي .. تتعجلني لإنهاء عملي والجلوس معها .
علمت منها أن والدي لا يجد حلاً غير السفر إلى مكة ، حيث توفر الأمن والغذاء والأصدقاء الذين قد يعينونه في البحث عن بيت مناسب لنا وفتح محل للتنجيد إن طال زمن الحرب .
كان المساء يومها قطعة قماش سوداء تلتف حول عنقي وتخنقني ، والنجوم عيون شامتة ، والقمر فم كبير يضحك مني ومن ألمي .
تقول أمي أن للأرض قلبين ، مكة والمدينة ، فإن خرجنا من قلب أسكننا الله قلبها الآخر ، تعرف يا منصور أن أهل المدينة مثل نعناعها لا يجود في غير أرضها ، مثل هوائها المعبق بالصلوات على نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام ، المكتنز بخطواته فيها ، فما اشد ألمي وأنا أغادرها ، فما بالك وأنت فيها .
قطفتُ اليوم عدة أوراق من شجرة النبق التي في الساحة لأنك تحبها ، ولأنك تثرثر لها عني ، فلعلها تعزيني في الغربة وتخبرني كلما سألتها عن حبك ومكانتي عندك ، اذهب إليها دوماً يا منصور ، تحدث إليها ، والورقات التي لديّ لن تعدم الوسيلة في الاتصال بأخواتها ومعرفة أخبارك .

كيف أحتمل غيابك يا منصور .. كيف أصحو الصباح ولا أمل لي في رؤيتك .. كيف تسير الحياة وعيني لا تقع عليك .. أخاف من الشوق يا منصور .. أخاف من بُعدك .. يا رب رحمتك .

تركت لك في رسالتي خصلتين من شعري ، لا لتتذكرك بي ، فحبك لي أكبر ، لكن لأن منبتهما واحد كما روحينا، احتفظ بهما متجاورتين، لأعلم أن روحك لن تفترق عن روحي وإن ابتعد جسدانا .

ليتك تقنع والدك بالسفر إلى مكة فلا يأكلني القلق عليك ، ولا يعلم إلا الله ما ستؤول إليه هذه الحرب .

سأشتاق إليك .. سأشتاق إلى نظرتك الدافئة ، إلى سؤالك عن أخي وأنت تقف تحت الروشان ، إلى قامتك وأنت تمشي . إلى كل شيء فيك ، لتحرسك عين الله التي لا تنام .

بدرية

٢٨/ شهر المولد /١٣٣٥هـ



أيام مضت على رحيل بدرية ، صورة رحيلها تأتي في أي وقت .. أثناء حديثي مع كوثر، عند جلوسي في محلنا بسوق الحبابة وسط أكياس قليلة متبقية ..لا يشتريها أحد لغلاء سعرها ، الهواء يتمدد كمرآة لوجهها .. لابتسامتها ، ويُشعل فيّ الشوق إليها . أهرب من حضورها ، وأمضي إلى عيسى ، نتحدث عن أحداث المدينة ، كان فخري يقوم بتخزين الأسلحة والذخيرة في القلعة بباب الشامي وداخل الثكنة العسكرية بالعنبرية ، لكنه زيادة في الحيطة ومخادعة للأعداء وضع بالأمس بعض أسلحته في شمال الحرم النبوي بالقرب من باب المجيدي ، أثار ذلك حفيظة أهل المدينة .. هذا بيت الله يا فخري وليس بيتاً للأسلحة ، هنا مثوى حبيبنا عليه الصلاة والسلام ، هنا السلام والحب ، كيف هان عليك يا فخري أن تلوث هذا الطهر وهذا النقاء . لعل البعض يلتمس لك عذرا فيما سبق .. ما دام من أجل الدفاع عن مدينتنا .. أما تخزين الأسلحة في الحرم فلن يعذرك أحد يا فخري .

ومما زاد في سخط الناس عليه أن أوعز لبعض عائلات المدينة بوجوب السفر مبدياً خوفه عليهم من قادم الأيام ، فانصاع له شيخ الحرم وعائلات أخرى وغادروا المدينة .. انقياداً لرغبته أو لأوامره كما شاع على بعض الألسن .

بعد مفارقتي لعيسى التقيت بسيدي محمد علي، سألته عن حاله، فأجاب :

ـ كبرت الطيور يا منصور ، وقريباً تغادر أعشاشها ، والكلاب تصبح ماضياً يتذاكره الناس .

صدري يضيق بألغازك يا سيدي ، أي طيور وأي كلاب ، ألا تستطيع أن تجيبني بما أفهم، طلبتُ منه الدعاء..اتجهت إلى صديقي (الصاحي) هكذا نسميه فهو نادراً ما يكون واعياً بسبب إدمانه لشرب (العرق) ذلك المُسكر المصنوع من التمر ، أمضي إليه كلما أردت الهرب من

نفسي ومما أشعر به ، يستطيع أن يُنسيني كل مصائبي بضحكه وسخريته من الناس ومن الحياة ومن نفسه ، يقوم بترديد بعض المجسات والموالات التي يحفظها ، هو يشبّه الجنود الأتراك بالأغنام الحمراء اشارة إلى لون طرابيشهم وبشرتهم وانقيادهم بكل الطاعة للباشوات.. يستبدل كلمة الجندرمة والتي تعني جنود الشرطة بالكُندرمة من الكندرة وهو حذاء القدم ، يبدع في السخرية منهم .. فهو قد عانى منهم مرات ومرات بسبب إدمانه.. ضربوه كثيراً وفي أحيان قليلة أودعوه السجن بسبب مضايقته للناس حين غيابه عن الوعي ، كان يسكن في (مقعد بني حسين) في نهاية سوق جوه المدينة ، جلست معه في حديث وأنس .. تركته عند الثالثة بالتوقيت الغروبي ، حاولت في أثناء عودتي إلى البيت أن استعيد حديثي مع الصاحي حتى لا تتسلل أحزاني وآلامي إلى نفسي .

حين اقتربت من باب السلام سمعتُ أصواتاً ولغطاً وصراخاً ، وقفت لأستطلع الأمر، وجدتُ الجند الأتراك يُخرجون الناس من المدرسة المحمودية المجاورة لباب الرحمة بالقوة ، كان الناس يعترضون ويأبون الانسياق مع الجند ، على بعضهم سمة العلماء والمشايخ بالعمة البيضاء والجبة ، وبعضهم طلاب علم في أعمار مختلفة ، هالني الأمر .. اختبأت خلف جدار حتى لا يرونني .. أخرجوا على ما يبدو جميع من في الداخل ، في اليوم التالي اتضح أن فخري أجبر القاطنين في المدرسة المحمودية وسكان بعض الأربطة والزوايا على صعود عربات القطار وتسفيرهم إلى بلاد الشام في الصباح .

لا أشك بعد الآن بجنون فخري .. بحمقه .. بظلمه .. بعدما لاحظ تلكؤ أهل المدينة في الخروج .. في ترك مدينتهم والفرار من الحصار ، الحيرة أصبحت بادية على الوجوه ، العيون تملؤها الأسئلة .. إن ما حدث إنذار للجميع ، ما يمنع هذا المجنون المتغطرس أن يفعل بهم ما

فعله بالمدرسة المحمودية وأهلها .. إنها مدرسة تعج بعشرات الطلاب .. بالمشايخ .. بالعلماء الذين سكنوا فيها وعمروها .
بل أن فخري طلب من أبي مغادرة المدينة مصطحباً أسرته ، لكنَّ أبي استأذنه بالجلوس مع سيدي عبدالله الذي يصر على البقاء في المدينة فوافق فخري لمكانة سيدي عبدالله لديه ، فقد كان أحد مشايخ الطريقة السنوسية وله تقدير واحترام عند الجميع .
أصبحت تمتلكني رغبة كبيرة في قتل فخري باشا ، أتمنى لو كان لديّ بندقية فأصوبها إلى صدره وأريح العالم منه ، لكن جهلي بالرماية جعلني لا أدري كيف أحقق رغبتي ، فكرتُ أن أطلب من حليفنا عودة الحازمي أن يعلمني الرماية واشتري منه بندقية ، لكن خوفي من معرفة أبي بالأمر جعلني أحجم عن الفكرة .
حين عودتي إلى البيت بصحبة سيدي وقد أدينا صلاة الفجر في الحرم ، وقف طويلاً أمام المدرسة المحمودية واستعبر قائلاً :
ـ حفظك الله يا شيخ عبدالمجيد ، اللهم كن له صاحباً ومعيناً .
كان الشيخ عبدالمجيد من العلماء الأجلاء ويسكن في المدرسة المحمودية وأجلاهم فخري إلى الشام .
أردفت معقباً على كلام سيدي :
ـ آمين يا سيدي ، ويرزقه الصبر على فراق المدينة .
ـ حين تحب الله يا منصور ، فأنت ترتقي لدرجة أعلى من الصبر .
ـ وما أكثر من الصبر يا سيدي .
ـ لا يملك المبتلى غير الصبر ، رغماً عنه يصبر ، وحين تحب الله فإنك ترضى بقضائه فيك ، بل تفرح بالبلاء فرحك بالرخاء .
تعجبتُ من قول سيدي ، لم استوضحه كيف يفرح العبد بالبلاء ، فقد رأيت شفتيه تعودان للذكر ، ما زلت أجزم أن هناك قمراً في السماء وقمراً آخر يسكن وجه سيدي ويشع نوراً طيلة الوقت .

بعد أن أتممنا فطورنا ، أخذتْ كوثر ركناً وانكبت على المنسج ، كانت تقوم بتطريز محرمة نسائية توضع على الرأس وتغطي الجزء الأكبر من الشعر ، كانت بارعة في عمل المنسج ، هكذا كانت تقول ستيته عيشه ، فبعد أن تعلمت القراءة والكتابة في كُتاب الفقيهة عائشة ، أجبرتها أمي على الذهاب إلى الشيخة فاطمة فولاني وتعلمت منها أصول الخياطة والتطريز على المنسج ، قلت لها :-

ـ يا خايبة ، الناس مشغولة بمصائب الجوع والسفر ، وأنتِ تجلسين على المنسج .

ـ ماذا أفعل يا منصور، ألا ترى حال أمنا ؟ كلما نظرت إليها ركبني الحزن وهربت إلى المنسج لعلي أنسى قليلاً .

هذه طريقة كوثر في علاج حزنها وألمها ، تنكفئ على المنسج تحرق وقتها فيه ، كأنما هي لا تغرز إبرتها في قماش بل في أحزانها وهمومها.

بعد ثلاثة أيام من حادثة المدرسة المحمودية كان المنادي يدور في أسواق المدينة وشوارعها محذراً الناس من الجلوس ، ويأمر الجميع بالسفر وإلا كان الرحيل بالقوة .



(-٢٣-)

عشر عائلات بأكملها تستعد للرحيل من حوشنا ، لمحت عربة الكارو تقف أمام بيت السُبحي.. لابد أنهم ينوون السفر إلى الشام والعربة ستوصلهم إلى محطة القطار .. ساعدتهم في وضع أمتعة السفر .. العيون منكسرة .. القلوب تتشبث بالمكان .. ما أصعب الخروج من أوطاننا .. ما أصعب أن يتجرد القمر من نوره ويبقى معلقاً كقطعة فحم بائسة .

حزنتُ كثيراً لسفرهم ، فناصر السبحي صديق عزيز، كنا نترافق إلى سفح جبل أحد أيام المطر مع بعض أصدقائنا ، نشتري الارز والعدس والحوت الناشف .. نجلس من بعد الفجر وحتى العصر مستمتعين بذلك الجو الرائع .. الغيوم جاثية عند قمة الجبل .. الأمطار قبلات حنونة على وجوهنا وأيدينا .. نسمات الهواء عطر عاشقة تبوح بحبها ، كان ناصر يقوم بطبخ (المعدوس) أي الأرز بالعدس بماء المهاريس[١] العذب بل ونصنع منه الشاي وسط صخبنا وضحكنا وسخريتنا من بعضنا البعض .

كثيرا ًما نذهب في الصيف إلى مزرعة من مزارع المدينة القريبة، نذبح خروفاً نشترك في شرائه ونطبخه مع الأرز، ونشوي بعضه، لا يوجد غير ناصر من يجيد جميع أنواع الطبخ ، لذا كنا نسميه { طباخ الشلة } هو يقاربني في العمر، كان بارعاً في لعبة الكبوش ويهزمني دائماً ، وحين كبرنا لم يكن يشاركنا لعبة القشاع ، أمه تحذره من هذه اللعبة .. تخاف عليه من مصائبها ، نشأ على مساعدة أبيه في محل السبح بسوق { جوه المدينة } ، واحياناً كان يصلي معنا العشاء في صحن الحرم قرب

---

[١] ـ المهاريس : تجاويف صخرية في أسفل الجبل ، تجتمع فيها مياه المطر ، وتكثر المهاريس في جبل أحد .

حديقة ستنا فاطمة ويرافقنا إلى المناخة، لا أدري لماذا كانت ستي تحذرني منه .. وكلما جاء ذكره تقول لي :

ـ يا منصور .. انتبه من هذا الولد .. هذا « زي الحلاق يضحك على الأقرع بطقطقة المقص »

لعل سبب ذلك تعاركنا الدائم في الصغر بسبب لعبة الكبوش واتهامي له بالغش حينها كما أنه تسبب بجرح عميق في رأسي في ذلك الوقت .

قبل سنوات ترافقنا إلى إحدى المزارع في العوالي ، سبح في بركة الماء طويلاً .. فكلما أراد الخروج رغّبت إليه البقاء لفترة أطول .. في اليوم التالي أصيبت عينه بوجع مؤلم ، عادة لا نذهب إلى الخستخانة (المستشفى) .. شعرتُ بالذنب نحوه ، أشارت أمي إلى شراء توتيا زرقاء من العطار ليضعها على عينيه ، والحمد لله شفي بعدها بأيام .

من الصعب مفارقة كل هؤلاء الجيران جملة واحدة ، أقلب عيني في المنازل لتتناثر الحكايات والذكريات ، من هنا يمشي عم خالد أبو شامة في طريقه لمحله ، وهنا سقط جارنا سامي الكوفي ، وهناك يجلس عم ناجي عند باب منزله يقلب بصره في الصغار وهم يلعبون ، كلهم رحلوا .. رحلوا .. ولم يزل تراب الحوش مبللاً بخطواتهم .

كانت كوثر كلما سمعت بسفر أحد من الجيران والأقارب أو شاركت أمي في توديع أحد ، تعود لتبكي ساعة ثم تنكب على المنسج لتهرب من حزنها ، أمي بكت طويلاً لفراق جارتنا أم عدنان ، تصفها دوماً بأختها التي لم تلدها أمها ، لا تمل أمي الاجتماع معها كل صباح ، في بيتنا أو بيتهم ، يقومون بالحديث أثناء شرب الشاي وإعداد الخضار لطعام الغداء ، أذكر أن أم عدنان أول من حضرت حين طُرق الهاون في بيتنا عند ولادة ستيته سلمى ، فحين يطرق الهاون مساء .. فذلك يعني طلب النجدة أو المساعدة من الجيران، وحين سمعتْ صرخة كوثر يوم رأت الساكن (الثعبان) قدمت إلى بيتنا مسرعة ومتسائلة عما حدث .

ستي فاطمة آلمها كثيراً سفر خالة نجاة ، هي أيضاً لا تفارق ستي .. أراها بجانبها كل يوم ، امرأة قاربت السبعين من العمر، قصيرة ، تميل إلى السمرة ، لها عين ضيقة كأنما استعارتها من الجاوة في حج أحد الأعوام ، لم تزل تحتفظ ببقية جمال مع صرامة وشخصية قوية ، وفي حديثها تتسلل كلمات شامية لا تفارقها ، كثيراً ما صرخت فيّ حين كنت صغيراً وجمدت الدم في عروقي ، كانت كوثر تسميها توأم ستي ، لا يفترقان ، يجلسان طويلا ، يدخنان الشيشة ، لديها مخزون كبير من الأمثلة مثل ستي ، حين كنت صغيراً سمعتهما يتحدثان عن خالة سعدية التي تسكن في زقاق الحبس وفي نهاية الحديث قالت خالة نجاة :-

ـ لكن ما أقول غير« قالوا للقردة تبرقعي ،،، قالت وجهي متعود على الفضيحة » .

أعجبني كثيرا وقتها هذا المثل وإن كنت لم أفهمه تماماً ، واحتفظت به ذاكرتي حتى الآن ، كانت خالة نجاة خبيرة بالودع مثل ستي ، بل وتجيد عمل المندل وتحيير السارق أيضاً ، فكلما فقدنا شيئاً نطلب منها عمل المندل إن كانت موجودة عندنا وتخبرنا عن مكانه لنجده كما دلت عليه .

كانت تدعو على فخري بحرقة ، وتردد المثل « حكم عثمنلي لا يترك ولا يخلي » فهذا الحكم سرق خيرات المزارع كلها لجنده ..الأرز المهرب أسعاره مرتفعة جدا ، حاولت ستي أن تثنيها عن السفر و إقناعها بأن جنود السلطان لا بد وأن ينتصروا في النهاية ، وفخري له من القوة والجند ما يدحر الشريف وجيشه ، لكن خالة نجاة تجيبها :

ـ « تعلقي يا خايبة ،،، في الحبال الدايبة » .

تناقل أهل المدينة انتصارات الشريف فيصل بن الحسين ، فبعد أن نجح في احتلال ينبع والوجه ، توجه إلى تيماء وتبوك ، هذه الأخبار أرعبت القلوب ، فقد ينجح بإيقاف القطار ومنع مروره إلى المدينة وقد أصبح المورد الوحيد للتموين العسكري والغذائي ، بل هو الوسيلة الوحيدة للخروج من المدينة .

في ذلك المساء جاء عم يس بخاري إلى بيتنا ، كان يقف مع أبي أمام البيت ويرفض الدخول ، يبدو أنه على عجل من أمره ، نظره إلى الأرض وعليه علامات الانكسار ، علمت فيما بعد أنه جاء مقترضاً بعض المال من أبي لتعينه على السفر إلى الشام .
يا الله .. حتى أنت يا عبدالوهاب تنوي السفر ، تتركني يا رفيقي ، كبرنا معاً في الحوش ، تشاركنا في ألعابنا .. كنا يد واحدة ، أبوح لك بكل أسراري ، ندخن معا عند باب بيتكم كل يوم ولا يبعدنا غير النوم والوقت الذي أقضيه في محلنا بسوق الحبابة ، إلى أين يا رفيقي ؟ وأنت (عبدالوهاب النشمي) .. أنت من يبادر إلى نظافة الحوش وإدخال الأغنام إلى حظائرها وفرش السجاد حين يكون هناك مناسبة لأحد الجيران ، بل حتى في العراك الخاص بي أجدك تقف بجانبي ، تساندني وتتحمل معي تبعاته ، أتذكر قول أمي حين أرى وفاءك « اللي يوفي بمواعيده حط إيدك في إيده ». كثيراً ما كنت تنهاني عن السخرية من سيدي محمد علي ، فبالأمس حين مر بنا حافي القدمين ويردد بصوت عالٍ :
ـ يا رب ، يا رب ، جيران الحبيب في ضيق وكرب ، يا حي ، فرّج .
وبعدها صرخ فجأة كمن يحدث أحداً :
ـ حسناً .. حسناً ، فهمت ، ارحلوا الآن .
تملكني الضحك وكدت أن أتفوه بتعليق ساخر، لكن نظرة منك ألجمتني .
أصبح الحوش مثل قطعة قماش فقدت زخارفها ونقوشها ، لم يتبق غير عدة بيوت ولعل أصحابها يفكرون في السفر، أجزم أني كنت أطأ بقدمي دموع الجيران عند رحيلهم ، وأرى تناثر نظراتهم بحسرتها وألمها في الأجواء .
تعاقبت الأيام .. الحوش مكتنز بالوحشة.. بلفحات الوداع الساخنة ، أمي زادت أحزانها بعد مفارقة الجيران ، كلما أردتُ الدخول إلى الحوش

مررت ببيت عبدالوهاب ، تذكرت مكوثنا معاً .. ثرثرتنا .. ضحكنا وحتى خصامنا .

بالأمس .. تذكرت سيدي محمد على حين شاهدت طائرة انجليزية كافرة تحلق فوق القبة الخضراء .. فوق مرقد نبينا عليه الصلاة والسلام ، هي كما وصفها سيدي محمد علي ، طائر بلا ريش ، لابد وأن هذا تم بمعرفة الشريف حسين ، كيف سمح بأمر كهذا .. هو سليل دار النبوة ، هو من يدعي حماية الإسلام مما أحدثه الأتراك .. كيف هان عليه أن يلوث الكفار سماءنا الطاهرة ، حمدنا الله أن نجحت طائرة تركية في مطاردتها وإبعادها ، لكن الخوف زاد في النفوس ، فهل يأتي يوم يستبيح فيه الكفار مدينتنا .



(-٢٤-)

عدتُ مساء .. حوالي الثانية والنصف بالتوقيت الغروبي ، كثير من مقاهي المناخة أغلقت بسبب الأزمة التي نعيشها ، وما تبقى منها يقدم مشروباً أصبحنا نسميه فنجان أزمة .. ماء حار بقليل من السكر وحبة هيل أما الشاي فقد انعدم تماما.. عم شاكر الحكواتي سافر إلى الشام ، والأصدقاء رحلوا ، مشيت على ضوء المسرجة التي تحملها دادا حوا وهي تتقدمني في الدهليز ، صعدتُ إلى الأعلى وناديت على كوثر ، يبدو أن أبي كان ينتظرني فقد ناداني بدوره حين سمع صوتي ، ذهبت إليه ، كان يجلس بجوار الروشان والسيجارة يعبق دخانها حوله ، قبلت رأسه ويده وجلست عند قدمية منتظراً أوامره :-

ـ اسمع يا منصور ، أريدك أن تحرص على البقاء في البيت ، لا تخرج مهما كانت الأسباب ، بل لا يخرج أحد من البيت نهائياً .

رفع صوته في الجملة الأخيرة ليسمع الجميع أمره .

لم أستطع أن استفهم من أبي سبب ذلك ، لن يسمح لي بمراجعته ، هو يصدر أوامره .. رغباته .. لا يحب النقاش فيها ، أسلوب حديثه يجبرك على التنفيذ والتنفيذ فقط ، أردت تذكيره بالأذن الذي منحنا إياه فخري بالبقاء ، فلا حاجة بنا للخوف والسجن في البيت ، لكن هيبته في نفسي منعتني كالعادة من الحديث .

مرت أيام .. كنت أتساءل في داخلي ، لِمَ هذه الأوامر؟ هل يمكن لفخري أن يقوم بترحيلنا بالقوة كما أعلن المنادي الذي دار بالأسواق لمدة ثلاثة أيام .. لعله يفعل ذلك كما فعل بطلاب ومشايخ المدرسة المحمودية ، هل يخشى أبي من اقتحام جند الشريف للمدينة وقتل من يرونه أمامهم، كانت رأسي مليئة بالأسئلة ، أتحرق للمعرفة ولا أستطيع التغافل، كقطعة من جلدي تجبرني على حكها مهما حاولت النسيان .

لم أستطع مقاومة نفسي حين سمعت صافرة القطار تعلن بقوة عن وصوله، فهو يأتي بالجند .. بالمؤن .. بالغذاء و.. وبالأخبار أيضاً، انتظرت حتى انشغل الجميع وخلا الطريق ، تسللت عبر الأزقة بكل حذر حتى وصلت لأحد البيوت المهجورة المطلة على ميدان باب السلام، اختبأت خلف الجدار على بعد خطوات من القطار وهو يقف كإمبراطور كسيح .

كان الجنود ينقلون المؤن وصناديق الأسلحة إلى الحرم ، يدخلون بها من باب الرحمة ويودعونها الحجرات المجاورة لباب المجيدي ، لم تجد يا فخري مكاناً آخر غير الحرم ، إلى متى وأنت تطلب مؤن وذخيرة وكأنك ستحارب مائة عام ، مدينتنا أصبحت ثكنة عسكرية بامتياز ، فكلما جاء القطار جاء ومعه الذخيرة والجند .

شعرت بالملل يتسلل إلى داخلي ، والإجهاد بدأ في قدمي بسبب الوقوف، جلست لحين ينتهي الجند من مهمتهم وتغلق أبواب القطار ، لم تزل تحذيرات أبي تمنعني من الظهور أمام الجند ، تنفست الصعداء وأنا أراهم ينقلون آخر الصناديق على ما يبدو ، لكن من بعيد رأيت جنديين يقتادا رجلاً نحيلاً يميل إلى السمرة ، يحمل زنبيلاً بيده اليمنى واليسرى تحاول إبعاد الجند عنه ، كان يرجو الجند أن يتركوه ، فمعه طعام لأسرته التي لم تجد ما تأكله منذ الأمس ، يبدو أن الجنود الأتراك لا يفهمون كلمة واحدة مما يقوله الرجل .. دفعوا به داخل عربة القطار، ووقف أحد الجند على الباب لمنعه من الخروج .

فخري ينفذ وعيده إذن ، يقوم بترحيل الناس ، بلا رحمة .. بلا شفقة .. لابد أن أكشف يوماً عن صدره .. حتما لن أرى قلباً بين أضلاعه .. لابد أن مكانها قطعة حجر يابسة بلون أسود ولها حواف مسننة ، لقد أعلن سابقاً أنه غير مسؤول عن توفير الطعام لمن يبقى في المدينة ، ولم يطالبه الناس بالطعام ، لماذا لا يتركهم في حالهم ، يتدبرون طعامهم أو

حتى يموتوا جوعاً في وطنهم الذي أحبوه ، أو على أقل تقدير يقوم بترحيل مثل هذا الرجل مع عائلته ، أي رجل أنت يا فخري ؟ .
ملأني الرعب ، فلو سار أحد الجند خطوات سيجدني قابعاً وراء الجدار أراقب ما يصنعون ، لابد أنهم سيدفعون بي داخل القطار ، لثوان تخيلت حالة أمي وهي تنتظر وتنتقل من الروشان إلى الباب ، من البكاء إلى الدعاء ، كيف أستطيع إفهام هؤلاء الجند الأتراك أني ابن عبدالسلام القوصي وقد أخذ الإذن من فخري ببقائنا في المدينة ، لم أكن أعرف غير الكلمات التركية الضرورية في التعامل مع الحجاج الأتراك عند شرائهم بضاعة من محلنا ، لست كعبدالوهاب الذي يجيد اللغة التركية لأنه يرافق الحجاج الأتراك للمزارات المأثورة كما يجيد لغة أهل بخارى بحكم أصوله وتعامله معهم في الحج ، لم أجد حلاً غير الجلوس في مكاني لحين انتهاء الجند من مهمتهم وغلق أبواب القطار .
بعد ساعة قدم جندي آخر ، يجر امرأة تميل إلى البدانة وتلتف بالملاءة .. تتشبث بها ابنتها الصغيرة .. يبدو أنها في الثامنة من عمرها ، شعرها مرسل خلف ظهرها وملابسها تفضح فقرها وعوزها ، كان صوت المرأة باكياً .. تملأه نبرات الرجاء وهي تتحدث إلى الجندي :
ـ الله يحميك يا ولدي ، لديّ أطفال صغار في البيت ، ذهبت إلى عمي ومنحني جنيه عثمنلي لعلي أجد طعاماً أشتريه لأبنائي ، اتركني يا ولدي ، سيموتون من الفزع والجوع ، فليس لهم أحد غيري بعد الله .
بالطبع لا يفهم الجندي كلام المرأة ، وإن فهم سيرمي بها داخل القطار على أية حالة بلا شفقة ولا رحمة .
مرت ساعات زاد اللغط والصياح ، لا أحصى عدد الرجال والنساء الذين زجوا بهم في عربة القطار ، يغيب الجندي ساعة .. يدور فيها بين الأزقة والأحواش المحيطة ليقبض على أي شخص يراه ويدفعه في العربة التي أضحت كمقبرة كبيرة لا تشبع من التهام الأجساد .

ما هالني وافزعني طفل في العاشرة تقريباً ، يصيح في الجند ويحاول الهرب منهم ويهددهم بأبيه القوي الذي سيؤدبهم على فعلتهم هذه ، ليغيب صوته هو الآخر داخل القطار .

في النهاية أغلقت أبواب العربات ، اصوات الرجاء والبكاء تتعالى من النوافذ .. نبرات الألم تملأ الأرجاء .. يا فخري هناك أناس داخل القطار ، لهم قلوب تتعذب وتتلوى ، عيون زائغة دامعة تملؤها الحيرة ، لا تدري أين ستمضي ؟

بأي قلب تعيش يا فخري ، إن كان لك قلب ؟ أي حيوان داخلك يرى كل الناس حوله فرائس ؟ كل راحتك أن ترى الدم ينزف من العيون ، كيف ستواجه ربك وصفحتك مليئة بدعاء المظلومين في الليالي المتوضئة .



بعدما تفرق الجند . تسللت من مكاني والخوف يملؤني. انتقلت بين الأزقة للوصول إلى بيتنا متجنباً الشوارع الرئيسية ، لم تزل الصور التي رأيتها عالقة بعيني ، أقدام الطفل الصغير مرفوعة وترفس في الهواء يحاول الفكاك من قبضة الجندي القوية ، المرأة البدينة تتشبث بملاءتها خوفاً من انحسارها وظهور وجهها وجسدها ، لن أنسى نظرات ابنتها الفزعة وبراءتها لا تكاد تحيط بما يحدث .

عند وصولي حدجني أبي بنظرة قاسية ، جعلت داخلي يهتز ويرتعد ، وبخني طويلاً على عصياني لأوامره ، اتهمني بقلة العقل وعدم إدراكي لعواقب الأمور ، حمدتُ الله أني كبير بما يكفي لأن يوبخني فقط وإلا كانت العصا قد أخذت نصيبها من ظهري وتركته لوحة مختلفة الألوان ، كنت أسمع تأنيبه ورأسي مطرق للأسفل ، وداخلي مبلل بخجلي .. مبلل بالذنب الذي ارتكبته ، فقد تأخرت لساعات طويلة ، عاتبتني أمي على طاحونة الوساوس التي قاست منها ، عيناها تقول أنها درت دمعا كثيراً ، مضيت إلى أبي ، قبّلت رأسه ويده وطلبت منه السماح، وستي تردد :-

ـ سامحه يا عبدالسلام ، الحمد لله أنه رجع بالسلامة ، وأنه بخير .

ـ من أجلك يا أمي أسامحه ، هو لا يستحق إلا التأديب ، متى تصبح يا ولد رجلاً وتعرف كيف تتصرف ، طيلة عمرك وأنت تتعبني وتشقيني بأفعالك .

قبلّت أيضاً رأس أمي واعتذرت لها ، لاحت مني التفاتة نحو كوثر ، كانت تجلس على دكة الدهليز تبتسم وتمد لسانها لتظهر شماتتها بي .

وبعد أن هدأت العاصفة ، كان السؤال الذي أشعر به يدور في داخل الجميع :

ـ أين كنت يا منصور؟

حدثت أهلي بالفظائع التي رأيتها ، عن المرأة البدينة وصياحها ، عن الطفل الصغير ، عن الرجل الذي يحمل الطعام لأسرته ، عن العشرات الذين ابتلعهم القطار ومعهم دموعهم ورجاؤهم ، كنت أتحدث وأرى الذهول والدهشة مرسومة في العيون ، عبارات الشفقة تقطع حديثي بين حين وآخر ، الدعوات التي تصب على فخري وجند فخري ، والدعوات التي تطلب من الله أن يلطف بهؤلاء المساكين ، أمي رثت كثيراً لحالة الأم التي تركت صغارها للبحث عن طعام لهم ، كيف يتحمل قلبها هذه الفاجعة .. كيف تصل إلى الشام أو تركيا وصغارها وحدهم ، أي قسوة بلغت بك يا فخري ، إن البعض يلتمس لك العذر لخوفك على أهل المدينة من الجوع ، فأنت الآن تقتلهم ، ترتكب جريمة أكبر من الجوع ، أي حماقة وأي رعونة تركبك يا فخري .

بعد أن انتهيت من سرد قصص التسفير الجماعي أو ما أصبحنا نسميه فيما بعد بـ (سفر برلك) ، نظر إليّ أبي نظرة محذرة قائلا :

ـ رأيت بعينك يا منصور ، وكان يمكن أن تكون الآن في القطار متجهاً إلى الشام ، لا تكرر ما فعلته ثانية يا منصور ، أظنك تسمع ما أقوله جيداً .

وعدت أبي بطاعة أمره ، واعتذرت ثانية عن خطئي ، بعدها ساعدت أبي في غلق باب الحوش خوفا من دخول الجند وإخراجنا بالقوة خاصة وأن بعضهم لا يعرفون أبي ولم يبلغهم رخصة فخري لأسرتنا بالبقاء .

لم أجد مفراً من الالتزام بأمر أبي خاصة بعد المشاهد التي ما زالت صورها تتابع في رأسي وتتركني متأسفاً لحال هؤلاء المرحلين بالقوة ، في المساء تجولت في الحوش ، دخنت سيجارة ، سمعت صوت الأطفال ولعبهم وصراخهم من بيت أم ياسر ، حين اقتربت من بيت عم أبو سالم ، كان هناك صوت نسائي يناديني ، اقتربت فكانت أم سالم متوارية خلف الباب :

ـ كيف حالك يا منصور ، وكيف حال أهلك .

بخير يا خالة ، الحمد لله .
ـ ألم تر عمك أبو سالم أو صديقك سالم ؟ في الصباح خرج عمك وحين تأخر ذهب سالم في إثره ، ولم يعد هو الآخر وبقيت أنتظر حتى الآن وأنا قلقة عليهما ومعي اخواتك البنات .
ـ لا يا خالتي لم أر أحداً منهما ، ولكن عسى خير .
ـ خير يا ولدي ، رأيتك أنت وأباك تغلقان باب الحوش من العصر ، لماذا يا منصور ؟
ـ أبي يا خالة يخشى اقتحام جنود فخري وتسفيرنا بالقوة إلى الشام .
استأذنت منها وقد وعدتها بالبحث عن سالم وأبيه .. كان وعدي لبعث الاطمئنان في نفسها .. وإلا فمن المؤكد أن زوجها وابنها كان من ضمن المرحلين هذا الصباح . لكن لم استطع إخبارها بما حدث .
حين أخبرتُ أمي ، لبست القنعة[1] والبيشة وذهبت لأم سالم ، أكدت لها أن جند فخري قاموا بترحيل بعضاً من الأهالي بالقوة وكل من رأوه يمشي في الشارع زجوا به في عربة القطار المسافر إلى الشام ، وأن سالم وأبيه لابد وان يكونوا بينهم ، جلست أمي معها طويلاُ حتى تهون عليها مصابها .. تعهدت لها بأمر الطعام بل وأي شيء تحتاجه .
تحملتُ عناء ايصال كمية من الدقيق والأرز إلى أم ياسر وأم سالم كل أسبوع ، فلم يبق غيرنا في الحوش .
مضى ما يزيد عن الشهر وأنا لا أغادر حدود الحوش ، لعبتُ مع أخي إبراهيم ، لاعبت مصطفى ابن سيدي كمال ، كنت أجلس مع كوثر ونتحدث عن بدرية كثيراً.. بل حدثتني عن قصص عبثهما في صغرهما:
ـ كانت الشيخة فاطمة فولاني لا تتهاون في خطأ ولو بسيط ، توبخنا على طريقة إمساكنا لإبرة الخياطة أو إبرة المنسج أو خطأ في شكل الرسم على القماش، وتأمرنا بعدها بمساعدتها في أعمال المنزل، كأن نغسل لها الأطباق أو نكنس لها القاعة لأن هناك ضيوفاُ قادمين، كنا

---
[1] ـ تشبه العباية وتتكون من قطعة علوية وأخرى سفلية .

نكرهها أنا وبدرية وأصبحنا نتعمد تمزيق قطع القماش التي تُعلمّنا عليها ، أو نقوم بإشغال البنات عن عملهم في التطريز ، ودائما ما تشكونا إلى أمهاتنا حتى ملّت منا وطردتنا من بيتها .

ـ يعني يا كوثر ، بدرية ليست بتلك البراءة التي كنت أظنها عليها .

ـ تعرف يا منصور ، بدرية ارتاحت منكما الاثنين .

ـ من تقصدين .

ـ ارتاحت منك ومن فخري .

ـ يا شيخة ، متى يأتي ابن الحلال وتتجوزي ونرتاح منك ، لكن الظاهر ربنا ينجي عبيده منك .

كنا نحمد الله على سفر بدرية إلى مكة ، حيث طُهر المكان ووجود الأمان والغذاء ، خلال الشهر فعلتُ كل شيء ، كنت أكنس الديوان والقاعة ، اشعل الفحم في الكانون ، زرعتً بذرة نبق في الحوش وكنتُ أتعهدها بالسقاية صباحاً وقبل الغروب ، مرات قليلة خرج فيها أبي .. أخبرنا بالأمس أن المدينة أُفرغت من أهلها تقريباً ولم يبق غير المئات ، والقطار أصبح يصل في فترات متباعدة ، لعل خللاً أو عطباً أصابه ، وأنه يمكنني الخروج دون الابتعاد عن شارع الساحة .

كانت فرحتي كبيرة ، أخيراً يمكنني التجول والانطلاق، مشيتُ إلى حوش التكارنة القريب منا، لمحتُ صديقي عيسى ينوي الدخول إلى بيتهم ، ناديته بصوت عالٍ، لم أصدق أن أحد أصدقائي بقي في المدينة ، رؤية عيسى كانت كمن حصل على ماء بارد بعد عطش، كطفل ضائع وجد أمه بعد طول بكاء ، عانقته بحرارة ، قلت له :

ـ رؤية صديق لي كان حلماً ، وتحقق الحلم .

يمكن للحياة أن تمشي بلا أصدقاء ولكنها ستكون مشوهة .. ستكون لها مشية عم حسن الأعرج ، يسير من بيته في السلطانية إلى محله في سوق الفلتية ، يستريح خلالها عدة مرات بسبب آلام قدمه العرجاء ، لا يستطيع الوقوف طويلاً ، فرحت كثيرا برؤية عيسى ، هو من أوفى الأصدقاء وله مكانة كبيرة في نفسي ، كثيراً ما تورط معي في مشاجرات وعراك مع أبناء المناخة ، كان ضمن شلتنا الرباعية التي لا تفترق ، نسمر في المناخة معاً بصحبة خالد قطان وعبدالوهاب بخاري ، نقّيل في المزارع أو عند جبل أحد ، أقرضه بعض المال واسترده منه حين تتيسر معه ، يجيد التحدث باللغة النيجيرية والعربية ، ولكن هناك حروفاً عربية مثل الحاء والعين لا ينجح في نطقها ، سألته عن حاله فأجاب :-

ـ الهمد لله ، الهمدً لله يا منصور ، الله يئين .

ـ ظننتك سافرت مثل البقية، لم أكن أصدق أن أحداً من الأصدقاء بقي هنا .

أوضح لي أن الشيخ ألفا هاشم الفوتي وهو من علماء المدينة وشيخ الطريقة التيجانية ، قد طلب من فخري الإبقاء على جماعته الأفارقة ليعينوه في الدفاع عن المدينة ، وافق فخري وها هو عيسى يتدرب في الثكنة العسكرية بالعنبرية { القشلة } ، وبعد أن يُنهي تدريبه يلتحق بأحد المعسكرات حول المدينة لحمايتها من هجمات جيش الشريف حسين ، استحضرت صورة الشيخ ألفا هاشم وهو يسير حافياً ويتحاشى ركوب دابة داخل سور المدينة ، زيادة في الأدب مع نبينا عليه الصلاة والسلام.

أخبار كثيرة سمعتها من عيسى وجرت في الفترة السابقة ، فقد تم اختيار فخري باشا محافظاً للمدينة بديلاً عن بصري باشا ، فأصبح يجمع القيادة العسكرية والمدنية .
كما حدثني عن قصص كثيرة مؤلمة لمن تم ترحيلهم بالقوة ، حفظت منها قصة الرجل المسكين الذي خرج يبحث عن طعام لزوجته وقد ولدتْ حديثاً ، فتم جره إلى عربة القطار، وحين تأخر قامت زوجته بالانتظار عند باب البيت وهي تتعكز على سقمها وآلام ولادتها .. لمحها الجند واقتادوها إلى عربة أخرى غير تلك التي فيها زوجها ، مضت وزوجها إلى الشام وفي اليوم الثالث مضى رضيعهما إلى حفرة حُفرت لدفنه في زاوية من زوايا حوشهم .. لابد أنه عاني من البكاء والجوع حتى الموت .
أكد لي أن ما بقي في المدينة لا يتجاوز المئات . فقد تم ترحيل أكثر من تبقى في المدينة .
تركت عيسى ، كانت فرحتي بوجوده كافية بحيث لم أكمل جولتي كما كنت أنوي ، تواعدنا على اللقاء بعد عودته من التدريب .
أصبح اهتمامي كبيرا بشجرة النبق التي زرعتها في حوشنا ، أريدها أن تكبر مثل شجرة الساحة ، لتكون تاريخاً لما حدث لنا .. سأحكي لأبنائي عما فعله بنا هذا الحصار ، وأوصيهم أن يرعوا هذه الشجرة من بعدي .
في اليوم التالي ، طلبتُ من عيسى مرافقتي إلى زقاق مظهر بحارة الأغوات ، فأمي قلقة على ستي ناجية وخالي محمد ، لا تدري ما حدث لهم ، ما زال خوفي من الجند كبيراً ، فهم لا يتحدثون العربية ولا يعرفون غير تنفيذ الأوامر رغم أن القطار لم يأتي بعد ، ولا أعرف أي سبب عقلاني لخوفي ، إلا إني طلبتُ من عيسى بإلحاح مرافقتي ، طرقت الباب ، فأطلت زوجة خالي من نافذة الروشان ، وبعد السؤال عن الحال ، أخبرتني أنه قد مضى أكثر من شهر على اختفاء خالي ، وهم في خوف من الخروج بعدما شاهدوا الجند يدخلون الزقاق ، بل أن

الجند اقتادوا عم عبدالكبير جارهم لجهة لا يعرفونها ، وحين سألتها عن كيفية تدبر أمورهم المعيشية أخبرتني أن الطعام بدأ ينفد .. هي في حيرة لا تعرف ما تصنع في الأيام القادمة .
نقلت الخبر إلى أمي ، كنت أحاول أن أنتقي الكلمات ليكون وقع الخبر على قلبها هيناً .. أمي التي قاست كثيراً من غياب خالتي وستيته عيشه وسيدي كمال ، فضلاً عن جيرانها وأحبابها ، لا ينقصها أن تعلم بخبر ترحيل خالي محمد إلى الشام ، يبدو أني لم أفلح في تلطيف الخبر فقد أجهشت أمي بالبكاء وكالت الدعاء على فخري ويوم فخري . حاولت أن أهدأ من روعها ولم أفلح .. عجزت ولم أجد من الكلمات ما تسعفني في حثها على الصبر ، تركت الأمر على ستي وستيته سلمى لتهونا عليها مصابها .
في المساء وبعد تشاورها مع أبي كما أظن ، أمرتني بالذهاب إلى بيت خالي وإحضار الجميع ليعيشوا معنا ريثما تنجلي الأزمة .
شعرتُ أن الروح عادت لبيتنا ، ستي فاطمة وستي ناجية تتحدثان في ذكرياتهما زمان ، أخي إبراهيم وجد في قرينه صادق فرصة للعب معاً أمام الباب بمتابعة من أم صادق ، كوثر فرحت ببنت خالي الصغيرة سعاد ذات الست سنوات وعزمت على خياطة فستان مناسب لها ، غادرتنا روح الكآبة والصمت ، أما أمي خرجت من حالتها التي كانت فيها ، سعدتْ بوجود ستي ناجية ، حتى أن ستي فاطمة مازحتها بقولها :
ـ « رائحة أمي تغديني ،،، تضحك سني وترويني » .
أما كوثر فكانت تردد :-
ـ « حلوة الجمعة ولو على فانوس وشمعة » .
كأننا كنا نعيش في مزرعة أحزان .. فنبتت شجرة تشع فرحاً .. عزاء عن كل ما نحن فيه ، لا أعرف لوناً للفرح لكنه حتماً يشبه بشرة بدرية ، هذه الروح التي غزت بيتنا لها بريق عيون بدرية حين نلتقي .. لم أزل

أختزن هذا البريق في ذاكرتي ، أخاف أن أفقده مع قوة الأحداث ، سألت عنه كوثر قالت :

ـ هذا بريق لا يراه غير المحبين ، أما الآخرون فمحجوب عنهم .

وسط هذه الجَمعة ظهرت مشكلة لم ننتبه لها ، فالمخزون من الغذاء لن يكفي أربع أسر لفترة طويلة . لم أنقطع عن إيصال كمية الدقيق والأرز الأسبوعية إلى أم سالم وأم ياسر التي تدعو لي دوماً بالزوجة الصالحة ، وأقول في نفسي :

ـ من غيرك يا بدرية ، الزوجة الصالحة .

كنت أتفكر في قطار المدينة ، البعض يرونه الحبل السري الذي ينتقل عبره الغذاء وإن كان أكثره يذهب للجند ، بل هو من ينقذ الناس من الجوع فينقلهم إلى الشام ، أما أنا فأراه بات شؤماً علينا ، كرهته يوم رأيت الجند يقذفون فيه الرجل ليجوع أهله ، يوم فرّق بين الأم وأطفالها ، أين ذلك القطار قبل سنوات ، كان كله خير ، زادت أغذية الشام في المدينة وأصبحنا نعرف أصنافاً لم نكن نعرفها ، كانت المدينة تعج بالحجيج والزوار طيلة العام ، زاد سفر الأهالي إلى الشام في الصيف ، فمن يصدق أن المسافة بين دمشق والمدينة يقطعها المسافر في ثلاثة أيام بدلاً من أربعين يوماً بقافلة الجمال المرهقة ، الكل كان سعيداً بهذا القطار ، حتى أبو جميلة المخبول ، كان يدور في حارات المدينة ويردد:

دا الوابور بيتمخطر علـ الجنبين ويترقّص

دول في العنبرية حطوه وعلـ الشام ودوه .

بل لا أنسى يوم افتتاحه .. كان ذلك في ١٣٢٦هـ ، سحبني سيدي كمال إلى محطة القطار .. كان افتتاحاً ضخماً .. حضره مسؤولون أتراك ووجهاء عرب .. هذا غير وجهاء المدينة وأعيانها .. خطب الشيخ يحي دفتردار شيخ الأئمة والخطباء بالحرم النبوي ، صدحت الموسيقى .. صوت المدافع كان يملأ الأرجاء ، الكل سعيد بالقطار ويحق لهم ذلك فكله خير .. حتى جاءت حادثة سفر برلك .. فكان له شأن آخر .

تمتلكني رغبة شديدة في معرفة ما آلت إليه مدينتنا ، رغم تجوالي في الساحة وزقاق مظهر .. طلبتُ من عيسى أن نتجول في شوارع وأزقة المدينة ، بدأنا جولتنا بعد مغادرة القطار مباشرة زيادة في الحيطة وخوفاً من جندي متعجرف قد يعترضنا ويحملني بالقوة إلى محطة القطار ، كان وجود عيسى يطمئنني ، فأكثر الجند يعرفونه بحكم تدريبه معهم ، وحين يسألون عني يخبرهم أني حفيد الشيخ عبدالله القوصي ، سرنا من شارع الساحة إلى زقاق سيدي مالك ثم الحماطة وعبرنا المناخة إلى السيح وزقاق الطيار وحوش وردة وحوش الراعي والجوهري في العنبرية ، كانت الطرقات خالية تماماً .. البيوت لا أحد يسكنها والمحلات مغلقة ، لا أرى أحداً ممن تبقى من أهل المدينة ، لعلهم يختبئون في المنازل خوفاً من الترحيل .. أو لا حاجة بهم للخروج وقد أغلقت الأسواق فلا أقوات ولا بضائع .

أثناء سيرنا مررنا بمحل عبدالحميد الصوفي الخياط ، كنت أقصده مع أبي وسيدي كمال لتفصيل ثياب العيد .

ـ لا بد أنه غادر إلى الشام يا عيسى .

ـ نعم ، وقبل مغادرته توقف عن الخياطة بسبب عزوف الناس عن تفصيل الثياب، فاضطرته الحاجة إلى العمل مع فخري في القلعة السلطانية مقابل قوت يومه ، وفي أحد الأيام زج به الجنود في القطار أثناء عودته من عمله .

ـ مسكين .

ـ زوجته كانت تعمل هي الأخرى في حمل التراب الناجم عن هدم بعض المساكن لشق بعض الطرق مقابل قرصين من الخبز الجاف وعند عودتها لبيتها التقاها أحد الجنود الجهلة وكان مصيرها مثل زوجها .

ـ ما فعل أبناؤه يا عيسى ، أذكر أن له ثلاثة من الأبناء ، أكبرهم خالد ، أليس كذلك ؟ .

ـ بلى ، أشفق عليهم عم صابر الفخراني وضمهم لأسرته ، ثم مع اشتداد الأزمة سافر إلى الشام وأخذهم معه ، لعلهم يلتقون بوالديهم هناك .
في اليوم التالي مررنا بسوق جوه المدينة وفيه محل أبي يعقوب الحلبي ، في السنة الماضية اشتريت منه قطعة قماش حريرية بلون أخضر وعليها زهور وردية وأغصان بيضاء نحيلة ، كانت هديتي إلى بدرية في عيد الفطر ، أوصلتها كوثر ومعها رسالة أرفقتها مع القطعة كتبت فيها :
إلى بدرية .. إلى التي جعلت الحياة حلوة بهية .. جعلت الحياة كلها عيد .. أصبحت أيامي تلبس كل يوم ملابس جديدة .. تعيش معي أشواقي وحبي وحنيني .. إلى التي جعلت لحياتي معنى ، إلى الهدية التي ساقتها إليّ الأيام كأثمن هدية .
مضيت بعدها إلى سوق الحبابة ، يا الله .. أين الضجيج الذي لا يهدأ من بعد الفجر وحتى صلاة العشاء ، أين الباعة والمشترون ، أين الناس ، أين الحياة ؟ أين عربات الكارو تحمل البضائع إلى مشترينها .. أين حذيفة النحاس بعربيته الكارو .. يجرها كمون وفلفل .. حماران أسودان كان حذيفة يدللهما بكثير من الأجراس والحبال المنتهية بكتل ملونة .. وحين يأتي السوق يثير الصخب وتتعالى الاصوات التي تناديه من كل صوب .. لم يبق غير هدوء مثل هدوء المقابر ، كأن السوق لم يكن يوماً عامراً بأحد ، ومحلنا كأنه عين أسبلت جفنها على دمعة كبيرة .
جاء شهر شعبان ، لم نحتفل بأيامه كما كنا ، لم تمتلئ الأسواق بأنواع الدقيق والحب وأصناف الأغذية الشامية والشربيت ، لم نحتفل بليلة النصف من شعبان .. كان سيدي عبدالله يقيم مولداً ويقرأ الحاضرون الأدعية .. يطلبون العون من الله .. أن يرزقهم مزيداً من الإيمان والصلاح في عامهم القادم .. أن يمنحهم مغفرة من عنده .
رمضان يثير الحزن .. أول رمضان يمر بهذه الحالة على من تبقى من أهل المدينة ، يمشون على أحزان وآهات وجوع وخوف ، حافظنا على

عادتنا في الحضور للحرم والإفطار فيه والجلوس حتى صلاة التراويح التي كانت عبارة عن مجموعة صغيرة ، أين الجماعات المنتشرة في كل مكان ، تعال يا سيدي كمال ، أنظر كيف أضحى الحرم ، لا حلقات علم ، لا جماعات في التراويح ، لا أئمة يتنافسون بأصواتهم الرائعة وقراءتهم الخاشعة .

علمتُ أن من بقي في المدينة كان بإذن من فخري أو شعلان باشا أو دعت الحاجة إلى وجودهم .

في اليوم الأول من رمضان ، جاء فخري باشا بعد التراويح للسلام على سيدي عبدالله ، تقدم بكل الأدب والوقار وانحنى ليقبل يد سيدي الذي سحبها مستغفراً ، جلس جلوس طالب علم أمام شيخه وطلب الدعاء من سيدي ، لأول مرة أرى وجه فخري باشا من قرب ، كان أبيض مشرب بحمرة ، طويلاً ممتلئاً باعتدال وله شاربان ، طالما كنا نشبهما بذيل الفأر ، يرتدي نظارة على عينيه التي توحيان بالصرامة والشدة ولا أبالغ إن قلت وبالطيبة أيضاً ، صوته حاسم وكلماته قاطعة رغم أنه يتكلم العربية بلكنة عجيبة ولا يحفظ غير الضروري منها .

اختلطت مشاعري بين رغبتي في التخلص منه وبين احترامي له وهو يقدم كل هذا التقدير والإجلال لسيدي .

كثيراً ما تناقل الناس حبه لرسولنا عليه الصلاة والسلام ، فيقف أكثر من مرة في اليوم أمام الحجرة الشريفة بكل أدب وخشوع يذرف الدموع محبة ومهابة وحمداً لله ان يسر له الوقوف في هذا المكان العظيم .

كان عيسى شديد الدفاع عن فخري باشا ، وكثيراً ما ارتفعت أصواتنا ، كل منا يدافع عن رأيه ، هو يرى أن فخري قام بالحل الوحيد وهو الدفاع عن المدينة ، فكيف له أن يسلمها إلى الشريف الذي خرج عن طاعة مولانا السلطان وتحالف مع الإنجليز الكفار وسمح لطائرة بريطانية أن تمر فوق القبة الخضراء حيث مرقد نبينا عليه الصلاة والسلام ، وخوفه على أهل المدينة دفعه لتهجيرهم عنها .

لا أدري كيف أنسى لهذا الرجل ما فعله في أسرتي ، قتل الرجال بالعوالي وأبيار علي وقربان ، المآسي التي خلفها ترحيله للناس .. أخذ الأقوات من بيوتهم وتركهم فريسة الجوع والعوز .
حضرنا صلاة العيد في الحرم ، هنأ الموجودون القلائل بعضهم البعض ، كان الشيخ عبدالقادر شلبي الطرابلسي والشيخ محمد العمري والشيخ ألفا هاشم يجلسون بجوار سيدي عبدالله ويرددون التكبير ، بعد خطبة العيد ظلوا يذكرون المشايخ والأصدقاء الذين رحلوا إلى الشام ، سمعت منهم اسم الشيخ عمر كردي الكوراني والشيخ مأمون بري ، كانوا يتواصون بالصبر ، سيدي عبدالله قال :
ـ إن للصبر لذة لا تعادلها لذة أهل النعم والشهوات ، فيه أنس وطمأنينة وراحة ولا يصل لها إلا العارفون بالله ومن منحهم الطمأنينة بقضائه .
وصل المحمل الشامي ومعه الصرة السلطانية بعد العيد .. كان المحمل يصل قديما عن طريق القوافل .. لكنه أصبح يصل بالقطار في السنوات الأخيرة ، هو رمز للهيبة العثمانية ، وإشعار الأعداء بأن المدينة لم تزل تمارس حياتها كما هي وأن لا نية أبداً في التسليم ، لا نرى فائدة فعلية من هذا المحمل .. فكسوة الكعبة لن تصل لمكة بعدما أصبحت تحت سيطرة الشريف حسين .. لم يبق من الأهالي من يتسلم الهدايا والمخصصات المالية التي تشملها الصرة السلطانية ، ورغم ذلك تمت الاحتفالات كالعادة في محطة العنبرية وتوجه الموكب بموسيقاه وجنده إلى داخل المدينة مروراً بباب المصري ليتم دخول الكسوة إلى الحجرة بمراسم وآداب خاصة .
في البيت أصبحنا نكتفي بوجبة واحدة فقط في اليوم ، وستي فاطمة تشرب الشيشة على فترات متباعدة خوفاً من نفاد الحُمي ، والمخزون من الغذاء بدأ ينقص كثيراً ، والقطار لا يمل المغادرة ببعض الأسر التي لا تجد مفراً من الرحيل ، ليعود محملاً بالذخيرة والجند .

أحياناً نكتم مخاوفنا عن الآخرين ، لعلنا نخشى أن تتحقق أو أن يأتي الله بفرجه فلا يكون هناك حاجة لإعلانها ، كلنا كنا نتساءل في داخلنا : إلى متى سيكفي مخزون الطعام ؟ وأربع أسر بأكملها تعتمد عليه ، صحيح أننا نكتفي بوجبة واحدة يومياً ونقضي بقية اليوم نشرب الماء واحياناً نضع حبة تمر نظل نلوكها وقتاً طويلاً ، في صباح هذا اليوم فجّرت أمي المخبوء من ظنوننا .. فالطعام لن يكفي أكثر من شهر .

حينها وجدت سيدي عبدالله يجادل أبي ويحاول إقناعه بالسفر إلى الشام وإنقاذ هذه العوائل من شبح الجوع ، لا يمانع أبي من السفر ولكنه يصر على مرافقة سيدي عبدالله للجميع ، كان أبي يجلس أمام سيدي عبدالله وقد أثنى ركبتيه تأدباً ، وصوته لا يكاد يرتفع ، دكة الديوان حوت هذا الجدال العقيم ، فكلنا يعلم أن سيدي عبدالله لا يمكن أن يترك المدينة .. بل كثيراً ما ردد على مسامعنا أمنيته بالوفاة في المدينة والدفن في البقيع بل ويكون دفنه نهاراً .. يُقال أنه جاء شاباً من صعيد مصر وحين لامست قدمه تراب المدينة خر ساجداً يلثم ترابها ويحمد الله أن حقق أمنيته بالوصول إلى المدينة المنورة .

اصبح واضحاً توتر أبي ، أصبح أكثر حدة ، لا يطيق حديثاً ، تبدو عليه الحيرة ، يخرج إلى الحوش ويدور ثم يعود ، يصحو مع سيدي للتهجد والدعاء بطلب العون من الله ، اين نظراته المهيبة ، اصبحت زائغة لا تستقر على مكان . لا يمكن المغامرة بحياة أربع أسر وتعريضها لخطر الجوع ، سوف يُسأل عنهم يوم القيامة ، وفي ذات الوقت لا يستطيع ترك سيدي وستي فريسة لمخاطر قادمة ، صحيح أن فخري وبعد أن توقف عن ترحيل أهل المدينة أصبح يرمي لهم فتاتاً من الطعام يسمى التعيين ، كان المرء يقف من الصباح وحتى العصر ليحصل على قرص أو أكثر بحسب عدد أسرته ، قرص صغير أسود يسمى القنيطة وربما

ينتهي التوزيع ويبات هو وأهله طاويين للغد بلا طعام ، هذا الفتات لا يكفي ولا يبعد شبح الجوع والموت .. ما العمل يا أبي ؟ كلنا نشعر بك ، نشعر بحيرتك ، بالألم الذي يعتصر قلبك ، أما زال لديك أمل بموافقة سيدي ؟ كلنا نعلم أنه ربما نصحو لنجد شاطئاً يحتوينا وبحراً أمامنا ، لكن لا أمل بموافقة سيدي .. هو لن يترك المدينة ، إننا نشتهي الحياة وهو يشتهي البقيع ، لن يفارق جوار نبينا عليه الصلاة والسلام ، لا تحاول يا أبي ، علينا أن نجد حلاً آخر ، وحيرتك لن تجدي يا أبي .

في المساء كان أبي يجلس في القاعة .. قدمت له كوثر الشاي ، أسميه شاي مجازاً ، فهو عبارة عن ماء حار وبه ورد جاف وقليل من السكر الذي بدأ ينفد كما نفد الشاي ، بعدما ذهبت كوثر ، جلست أمام أبي وقبّلت رأسه كما قبلت ظهر يده ووضعتها على جبهتي ، لم يحدث طيلة عمري أن آتي للجلوس معه إلا حين يأمرني بأمر ما أو يوبخني ، لذا كانت الهيبة تملؤني .. قلت له :

ـ كيف حالكم يا أبويا ، تحتاجون شيئاً ؟

ـ الحمد لله ، لا يا منصور ما أحتاج شيء .

ـ طيب يا أبويا ، هل يمكن أن أتحدث إليكم .

ـ ماذا تريد يا منصور ؟ قل بسرعة .

ـ ما بقي من الطعام لن يكفي أكثر من شهر للأسر الأربع .

ـ عارف يا منصور ، لا حاجة بي لأخبارك القديمة .

ـ لكن هذا الطعام يمكن أن يكفي ستة أشهر لأربعة أشخاص .

ـ ماذا تريد أن تقول ؟

ـ أبقى أنا هنا مع ستي وسيدي ودادا حوا ، وتسافروا كلكم تصحبكم السلامة ، وسيكفينا الطعام بإذن الله حتى تنتهي هذه الأزمة .

لا أدري كيف واتتني تلك الجرأة لمناقشة أبي ومحاورته ومحاولة إقناعه ، فجأة شعرت أن الهيبة والخوف يعودان لي ، خفت أن يقول لي { اذهب بعيداً عن وجهي ، منذ متى وأنت تشير عليّ ؟ } ، كان يضع يده

على ركبته المنتصبة.. صلعته تمنحه زيادة في الهيبة والوقار .. نظراته تخترق جسدي ، كنت أنتظر توبيخه وتقريعه ، لكن أشعر أنه يفكر فيما قلته له ، أخيراً قال لي { يصير خير } ، يبدو أنه على قناعة بما قلت ، لكن لا يحب أن يتنازل عن كبريائه ويعلن موافقته السريعة أمامي .
ما زالت ذاكرتي تختزن الكثير من المواقف مع أبي ، فقبل سنوات بدأتُ العمل معه في محلنا بسوق الحبابة ، كنا نبيع الأرز بأنواعه ، المزة والهوري والبنوري إضافة إلى العدس والفول والحب والشعير وغيرها من أصناف الحبوب ، وفي أشهر الحج مع توافد الحجيج من كل أنحاء المعمورة تنتشر عملات كثيرة ، فإضافة إلى الريال المجيدي والجنيه العثماني ، يتداول الجنيه المسكوفي والجنيه البنتو والجنيه أبو خيال أو الإنجليزي والريال الفرانسة والبشلك والروبية وغيرها ، كنت لا أعرف بدقة سعر الأرز مثلاً بالجنيه المسكوفي ، فكنت أضع سعراً تقريبياً وغالباً ما يكون السعر الذي افترضته أقل من سعره المطلوب ، ، وحين يعرف أبي فإنه يظل يوبخني ويرميني بعدم الفهم ، بعدم القدرة على تحمل المسؤولية وأني سأكون سبباً في خسارة تجارته ، وقائمة طويلة لا تنتهي من الشتم والسب ، حتى أني كثيراً ما فكرت في الهرب من المحل لأرتاح منه ومن تقريعه .
أما قبل عملي في المحل ، فكان الضرب شبه يومي بسبب لعبة القشاع في ساحة المناخة ، أو عراكي مع الشباب لأقل سبب ، وأحياناً بسبب سهري في المناخة والتأخير للساعة الرابعة بالتوقيت الغروبي ، كما يتهمني أني أصاحب أبو عرجه الأفينوجي وأبو دومة الحشاش وأني أتعاطي معهم المسكرات والعرق ، والحق أنه مرت بي تجربة تذوق هذه المسكرات ، فلم يكن الحصول عليها صعباً ولكني سريعاً ما كنت أبتعد عنها وعن شاربيها ، وأتذكر دعوة سيدي عبدالله الدائمة لي بالصلاح .

كانت كوثر هي الوحيدة التي تستطيع إنقاذي من خيزرانة أبي ، كانت تقف بيننا وترجوه :
ـ الله يخليكم يا أبويا ، لا تضايقوا نفسكم ، صحتكم يا ابويا غالية ، كفاية عليكم تعب السوق والوقوف الطويل في المحل ، والله يا أبويا أخي منصور ما يستحي ، دائماً يتعبكم ، من أجلي يا أبويا سامحه ، ارتاح .. أمانة لترتاح ، أعمل لك براد شاي ، هدئ نفسك يا أبويا .
لأجد أبي يتراخى قليلاً قليلاً ، ويجلس ، لأسمع منه الكلمة التي طال انتظاري لها :
ـ أقلب وجهك الآن ، لا أحب أن أراك أمامي .
فأدير ظهري ، وأكتم ضحكة في داخلي وأنا أردد :
ـ ساحرة يا كوثر ، والله ساحرة ، صحيح والله « القصير.. يا حكمة يا نقمة » .
أبي ، هذا الجبل الشامخ لا يستطيع أن يُسكت غضبه غير كوثر ، حتى أمي حين يثور تغادر الغرفة وتبعث بكوثر لتهدئته .
أسبوع مضى قبل أن يعلن أبي عن قرار سفر الجميع إلى الشام ، مع بقائي مع ستي وسيدي ودادا حوى ، تهلل وجه سيدي وبارك هذا القرار وإن كان لم ير داعياً لبقائي لكن أبي أصر على ذلك ، شعرتُ برضا ستيته سلمى .. ربما لتكون قريبة من سيدي كمال أو تحظى برؤيته هناك بطريقة ما ، أمي أبدت بعض الاعتراض .. فخوفها عليّ وفراقها لي ليس بالأمر الهين عليها بعد كل ما قاسته من فراق اخي وأختي وخالتي وخالي ، لكن لم يكن يبدو في الأفق غير هذا الحل ، والجميع كان يؤمل بالعودة القريبة ولن يطول مكوثهم هناك ، من يدري ؟ ربما .

شمسنا في الصيف تولد فتية ، قوية ، يقول مرجان إن الولادات مؤلمة فمع اشتداد الصيف يولد الرطب ، تذكرت قوله وأنا أمسح العرق عن جبيني وأحاول أن أرقق من حدة الصيف بتتبع الظل .. هذا الصيف يا مرجان لا يولد منه غير الألم .. غير الفراق ، محطة القطار يملؤها الضجيج ، اختلط صراخ الأطفال بنداء الكبار ، بالحمالين الذين يرفعون الأمتعة من العربات ، بعيون تسح الدموع ، بالألسن تلهج بالدعاء ، سماء العنبرية كأنها شيخ كبير يرثى لهؤلاء المساكين ، ينصحهم بالصبر ، يؤملهم بالعودة ، يعرف أنهم يفرون من الجوع الذي أضناهم الشهور الماضية ، يفرون قبل أن يتوقف القطار تماماً بعدما نجح الشريف فيصل بن الحسين وبمساعدة لورنس الإنجليزي الكافر في تفجير أجزاء كبيرة من سكة القطار ، لقد تأخر وصوله إلى المدينة طويلاً بسبب هذه التفجيرات ويبدو أن المهندسين الأتراك نجحوا في إصلاحه .

لم يكن هناك فرصة للتردد أو التلكؤ أمام العائلات ، فإما السفر الآن أو البقاء ، لذا اجتمع على ما يبدو آخر العائلات المسافرة إلى الشام .

كنتُ أقف بجوار عربية الكارو وأناول أمتعة السفر إلى أبي الواقف بجوار إحدى عربات القطار ، كان العرق يتصبب منه والحزن ظاهر على وجهه ، كنت أشعر بجسمه كتلة من القهر والألم ، يتحاشى النظر إليّ ، لا يريدني أن أراه ضعيفاً ، مرغماً على أمر أجبرته عليه الأيام ، كان وداعه لسيدي عبدالله وستي مؤثراً .. طلب منهما أن لا يصحبانا للمحطة ، لا يريد أن يتجشما عناء الحضور والانتظار والوقوف في حرارة الشمس وزحمة الناس ، فوقفا عند باب البيت لوداع الجميع ، قبّل رأس سيدي وأنحني يقبل يده ، عانق ستي طويلاً ، طلب منهما

السماح والمغفرة ، امتلأ المكان بالدعوات ، بالتوصيات ، بالدموع ، بالصمت حين نشعر أنه أبلغ من الكلام .
كانت كوثر وستيته سلمى وأم ياسر داخل عربة القطار ، يتناولن الأمتعة ويقمن بترتيبها ، كن في غاية النشاط رغم الإعياء البادي عليهن ، بعدها تناولن الأطفال وأمروهم بالجلوس فوق الأمتعة وعدم التحرك ، دب في الأطفال الفرح والرغبة في اللعب لكن نظرة واحدة من أم ياسر أبقتهم في أماكنهم .
احتجنا لوقت طويل حتى انتهينا من ترتيب أمتعة أربع أسر بأكملها ، وجاء وقت الوداع الذي تمنيت لو أهرب منه وأنفرد بالبكاء ، وداع أراه كثور هائج انفلت من مزرعتنا وجاء ليفترسنا هنا ، أو كأشجار السلم الشوكية المتناثرة في أطراف المدينة تجتمع هنا لتعصرنا بينها .
تقدمتُ إلى أمي لأودعها ، رفعت البيشة عن وجهها ، الدموع الطاهرة تملأ عينيها ، ضغطت على يدي ، كل حنان العالم اجتمع في وجهها ، أشعر أن عشر أمهات يسكن قلبها ويريدن أن لا أفارقهن ، نظرتْ إليّ طويلاً ، كان في نظراتها الحب والخوف والقلق ، نظرتها حديث طويل فيه الدعاء والأمل والألم ، في النهاية انطلق لسانها بالتوصيات :
ـ اعتن بنفسك يا منصور ، قبل النوم تقرأ آية الكرسي ، في الصباح تبدأ باسم الله ، تركت في الطيرمة وعاء به تمر ، تأكل منه عند الضرورة ، ربنا يحميك يا ولدي ويُمضي الأيام على خير وأراك ثانية .
ـ لا تشغلي بالك يا أمي ، كل الأمور هنا مطمئنة ، أنت اعتن بنفسك ، والله يعينك على الجيش المرافق لك . وابتسمت أحاول التهوين من أمر الوداع .
بعدها أرسلتْ نظرة نحو الحرم ، نحو بيتنا ، كم قصة وكم وصية أودعتها نظرتها تلك ، كم دمعة نزفت وفي كل دمعة معنى وألم ، كان يبدو عليها الإعياء ، فقد قضت الأيام السابقة في ترتيب الأمتعة .. في عمل الحيسة والمعمول وخبزها في الفرن ، في إفهام دادا حوا ما عليها

فعله نحو من سيبقى ، رعاك الله يا أمي ، اطمئني ، سأعتني بنفسي ، امنحيني ابتسامة قبل أن تذهبي ، ليتك تأخذي نظري معك لأراك في كل حين وكل مكان .
عانقني أبي وضمني إليه ، نظرته فخر واعتزاز وحب ، ذهبت نظرات التوبيخ والازدراء، النظرات التي تقول أنت لا تنفع لغير العراك والقشاع والمزمار والسهر ، بالأمس ناولني عشرة جنيهات عثمانية كاملة ، قلت له :
ـ ما أفعل بمبلغ كبير كهذا ، في بلد لا قوت فيه ولا سلع .
ـ ابقها معك يا منصور ، لا تدري ماذا يحدث في الأيام القادمة ، لعلك تحتاج إليها .
كرر أمامي ثانية عنوان صديقه أبو كرم في حلب الذي سينزل عنده بإذن الله ريثما يجد بيت كبير يسع هذه العوائل ، ولربما ساعده في بدء تجارة هناك ، فقد حمل معه مبلغاً كبيراً من المال ، كان يفصح لي عما ينوي عمله في حلب وكأني صديق له ويتباسط معي في الحديث ، شعرتُ بالرضى عن نفسي بعدما أصبحت لائقاً بهذه المكانة في نفس أبي ، الأيام الماضية كان يكرر دوماً عنوان أبو كرم ، لعله يريدني أن أحفظه ، فقد يأتي يوم يقتنع سيدي بالسفر واللحاق بهم ، أخيراً أرسل نظرة باتجاه الحرم عادت بدمعة حارة على خده .
سلمت على أخي إبراهيم ، أوصيته أن يلعب مع صادق بدون أن يزعجا أبي وأمي وأن لا يخالف كلامهما ، أخيراً نزلت كوثر لوداعي ، قالت وهي تغالب دمعة وتحاول أن ترسم بسمة على شفتيها :
ـ كلها شهور يا منصور ، وربنا يجمعنا ثانية ، أنا متأكدة من ذلك ، قل إن شاء الله .
ـ إن شاء الله يا كوثر ، ربنا ييسر طريقكم ، وأجد الطريقة لأطمئن عليكم .

صعدت كوثر ، ولمحتُ من بعيد صديقي طاهر ، أعطيته عنوان أهلي في حلب على أن يمضي لهم كلما سافر إلى هناك ، أخبرني أن أهله أيضاً في حلب .
أطلق القطار صافرة انطلاقه ، كانت عالية أكثر من العادة ، مزعجة ، كأنما هو يعنف هؤلاء المودعين ويطردهم بعيداً ، أو هو إعلان فوزه بهؤلاء الأحباب الذين ابتلعهم في جوفه .
رفعت صوتي ونظرتي نحو المسافرين :
ـ مع السلامة ، الله يعيدكم سالمين .

*** ***

في الليلة السابقة وبعد أن قمنا بتجهيز أمتعة السفر ، سهرتُ مع كوثر طويلاً ، صعدنا إلى السطح برغبة النوم ، لكن شعورنا بالفراق جعلنا نحرص على الجلوس معاً والحديث في ركن من السطح بحيث لا نزعج أحداً ، كوثر أعجبتها فكرة بقائي مع ستي وسيدي وسفر البقية ، تقول إنه الحل العقلاني الوحيد ، امتدحت أبي على فكرته هذه ، وحين علمت أن ذلك كان اقتراحي ، التفتت إليّ بجدية قائلة :
ـ والله كبرت يا منصور ، وأصبحت رجلاً .
ـ رجل رغماً عنك يا بنت .
بالطبع جاء الحديث عن بدرية ، ذكرت لي كوثر أن بدرية بدأت في كتابة مذكراتها أو توثيق حبها كما ترجح كوثر ذلك ، وقد أنهت مقدمة المذكرات ، وقدمتها إلى كوثر لأخذ رأيها ، وفي زحمة الأحداث نسيت استعادتها ، رجوت كوثر أن أطلع عليها وأبقيها لديّ حتى نلتقي ثانية ، فوافقت بعد إلحاح ووعد مني أن أحافظ عليها لأنها أمانة ، تقول مقدمة مذكراتها :ـ

{{ أنا بدرية البهية ، من العين والحسد بإذن الله محمية ، ففي حفلة الصرافة[1] التي أقامها لي أبي عند حفظي ثلاثة أجزاء من القرآن الكريم ، عوذتني أمي ليلة بأكملها بما يكفي باقي العمر ، بل جعلتني استحم بماء مقروء عليه وحشرتْ حجاباً داخل ملابسي التي ألبسها .
في الضحى تقف الشمس عند بابنا ، وحين تجده مفتوحاً تدخل لآخر البيت ، أظنها تتجسس عليّ وأنا أضفر شعري ضفائر رائعة ، كأن العمدة الخاص بالشمس يجلس في بيت السروجي ، فعند غروبها تجثو عند بابهم طويلاً تستأذن في الغروب ، ابنتهم حورية تقول إني أشبه القمر حين يمتلأ وجهي بالضحك .. وأشبه النخلة في كرمها وعطائها .. هي أيضاً تقول ذلك .
حين يسقط نور الشمس على دكة الديوان في الصباح ، أحمل الغسيل إلى السطح لأجد أمونة بنت الجيران تنثر القمح للدجاج في سطحهم ، ولأن جدار السطح قصير فإننا نظل نتحدث عن كل شيء حتى أسمع أمي تناديني وتأمرني بالنزول .
أبي أحضر لي عصفور النغري الجميل في قفص بنصف ريال مجيدي ، أضعه بالقرب من الروشان ، وكلما وجدتُ وقتاً ثرثرت معه وأشعر أنه يفهمني .
في الصيف نذهب إلى مزرعتنا في قربان ، زرعت ريحانة هناك وأوصيت عليها زوجة عم حسن النخولي ، في المرة الأخيرة علمتُ أن الريحانة عاتبة عليّ بسبب غيابي عنها ، اعتذرت لها ، رويتها بالماء ، أمررت يدي عليها ، فعادت لها نضارتها وجمالها وقبلت اعتذاري .
أمي تراني أجيد غسل زير الماء وتبخيره بالمستكة وتعطيره بماء الورد بالقدر الكافي أفضل من أختي فريال التي تجيد الخياطة والتطريز .
في صغري كنت أحسب أن بيت المنياوي يخطفون القمر ويخبئونه في سطحهم طيلة النهار ، حتى ينهاهم عمدة حي الساحة ويأمرهم بإخراجه

[1] ـ حفلة الصرافة : تُقام عند اتمام الطفل أو الطفلة حفظ القرآن أو أجزاء منه .

، ستيته عليا أختي الكبيرة تقول أن زوجة المنياوي امرأة حسود ، فقد تساقط شعرها بعدما امتدحته زوجة المنياوي في حفلة زواج .
أخي خالد لم يزل يراني صغيرة ، بالرغم من أنه يخاف الكلاب التي تعوي بعد العشاء ، هو لا يفصح عن ذلك ويحاول أن يخفي هذا الأمر .. لكنني أعرف .. ذات مرة دخل البيت في المساء وأنفاسه تتلاحق .. سألته عن السبب .. أدعى خوفه من استبطاء أبي له .. فكان يركض في الطريق .. كان الوقت مبكراً على ما أظن ولا حاجة به للركض .. كما أنه لم يستطع أن يجيد عمل التنجيد مثل أبي الذي يوبخه دائماً .
إنني فتاة جميلة ، رائعة ، ليس في حياتي ما يثير .. ليس فيها ما يستحق الكتابة ، سوى أن منصور يحبني .

٥/ صفر /١٣٣٥ من الهجرة النبوية



غاب القطار .. غاب الأحباب ، السماء فم كبير يدعو لهم بالسلامة ، طريق العنبرية يمتد طويلاً كئيباً ، صور الوداع تتلاحق في ذهني ، أمي تصعد إلى العربة مثقلة بالحزن والبكاء ، كوثر تجلس على كرسي وتلوح لي مودعة ، وأم سالم بجوارها ، الأصوات المختلطة لم أزل أسمعها بأذني ، أبي بعدما جلس .. ألقى نظرة على المدينة ونظرة عليّ .. اطمئن يا أبي .. ستعود بإذن الله وتجدني قد قمت بالمهمة خير قيام .. ستجدني رعيت سيدي وستي .. اطمئن فحملك أيضا ثقيل .. كل هؤلاء النساء والأطفال تتحمل رعايتهم وراحتهم .

مسجد الغمامة يجثم كأم رؤوم فقدت أبناءها ، سوق الحبابة مقبرة للمحلات توعز لي أن أقف وأقرأ عليها الفاتحة ، في طريقي إلى البيت شعرت بالمنازل وكأنها صرخات أمهات تجمدت ، أو كدموع كبيرة بقيت معلقة على الأرض ، لم أر في طريقي غير بعض الجندرمة يتجولون هنا وهناك .

كانت ستي تجلس على دكة الدهليز ، وتمد نظرها إلى ساحة الحوش كأنها تأمل أن يعود الأحباب ، أو أنها تتأمل خطوات رحيلهم ، عيونها دامعة والحزن سحابة تغطي وجهها :

ـ هل ترى يا منصور« تعاشر تعاشر ومصيرك تفارق » .

قبل ساعات كان البيت مؤثثاً بالضجيج ، بصراخ الأطفال ، بنداء الأمهات ، بثرثرة النساء ، الآن كل ما في البيت يثير الوحشة ويوقظ الذكريات ، إنه يختزن أرواح أهلي ، هنا أمي تحمل الخضار تنوي إعدادها للغداء ، هنا تصعد كوثر ومعها سطل الماء ، إبراهيم يفتح الباب ويخرج إلى الحوش ، بي رغبة للهروب ، للحديث مع أحد لقتل هذا الحزن المتنامي في داخلي كالأعشاب الضارة ، لم أحتمل البقاء في البيت .. غادرته سريعاً ومعي غصة تقف في حلقي .

سرتُ إلى حوش التكارنة ، تحدثت مع عيسى في أمور شتى ، عن سفر برلك ، أو الترحيل الجماعي الذي ترك المدينة وكأنها قلب امرأة ثكلى ، عن أحبابنا وأصدقائنا وأهالينا الذين حملوا أوجاعهم وخوفهم ورحلوا ، عن كل الاحتمالات القادمة وما قد يحدث لنا ، أخبرني أنه ، وبعد أن يُكمل تدريبه سيرسلونه إلى أحد جبهات حراسة المدينة وأنه سيأتي ليراني في فترات متباعدة ، إلى أين يا عيسى ؟ لم يبق غيرك يهون عليّ ما أنا فيه ، إني موجوع يا عيسى ، أشعر أن عمري أصبح مختصاً بالوداع ، بالفراق ، أكثر من سنة وأنا أنتقل من وداع لآخر ، من ألم إلى مصيبة ، فقدت كل الأحباب يا عيسى ، وأنت من تبقى لأبوح له بألمي وضيقي .

مضت الايام ونحن نكتفي في البيت بوجبة واحدة من الأرز ، أو وجبة تعتمد على الدقيق تتفنن دادا حوا في تنويعه ، نحرص على زيت الإضاءة ، فنستخدم المسرجة أو اللمبة في حالات ضرورية ونجتمع في مكان واحد في المساء لهذا الهدف ، نشعل الفحم في الكانون ونقوم بعمل ما نريد من النار دفعة واحدة استغلالاً للفحم لأقصى حد ، نطهو الطعام ونغلي الماء للشاي أو الاستحمام أو لأي غرض آخر تحتاج له دادا حوا.

العجب أن سيدي عبدالله يكتفي بشرب الماء وثلاث حبات من التمر طيلة يومه ، ويبدو بصحة جيدة ، ستي وبعدما نفد الحُمي الخاص بالشيشة أصبحت تكتفي بتدخين الورد الجاف بين يوم وآخر ، وأصبحت أنا أصنع مثلها .

صحراء من الملل والفراغ تتمدد على صدري ، الوقت بلا رائحة .. بلا طعم ، لا معنى لوجوده ، لا أدري ما أصنع ، أروي شجرة النبق الصغيرة في الحوش ، أتجول في البيت ، أصعد إلى غرفة المؤخر لأقرأ في كتب سيدي كمال .. أثرثر مع ستي ، تذكرنا يوم سافرنا إلى الشام بالقطار ، كانت رحلة لا تنسى .

كان صيف المدينة في ذلك العام حاراً ، لعله خرج لتوه من فرن عم طه سمسمي ، أو قد أصابته حمى شديدة فيحتاج إلى عدة كيات من الشيخ سهل الجبيري ، في أحد الأيام وقد اشتد فيه الصيف وجاءت ستيته سلمى من بيت أهلها بعدما ودعتهم لعزمهم السفر إلى الشام وقضاء شهور الصيف هناك ، جاءتنا فكرة السفر مثلهم إلى هناك ، وافق الجميع على ذلك حتى سيدي عبدالله أعلن موافقته بشرط أن لا يزيد غيابه عن المدينة أكثر من شهر ، وبقيت العقبة الكبرى .. اقناع أبي بالسفر وإنابة صابر بدلا منه في إدارة المحل .. فهو ذا خبرة عالية ويعمل عند أبي منذ سنوات .

تكفلت كوثر اقناع أبي ، وطلبت لذلك مهلة أربعة أيام ، على أن نترك لها القاعة لتجلس مع أبي بعد تناول العشاء ، وكنا نتعجب من طلبها لكن لم يكن لدينا غير الموافقة ، فلن يستطيع إقناع أبي غيرها .. بل كنت متأكداً من نجاحها وأقول في داخلي « قد النملة وتعمل أكبر عمله » .

بعد أن أنهى أبي عشاءه قمنا وتركنا القاعة ، أتابع ما يجري من وراء الباب الموارب ، قامت كوثر بعمل الشاي التي تفوح منه رائحة النعناع، وعلى دخان سيجارته الاثيرة ، قالت كوثر :

ـ تعبتم والله يا أبويا اليوم ، يا عيني عليكم يا أبويا .. طيلة النهار وأنتم في المحل ، وفي هذا الحر الشديد .

ـ وماذا عساني أصنع يا ابنتي ، الرزق لا يأتي بسهولة ، لابد من التعب ، الحمد لله على كل حال يا كوثر .

ـ والله يا أبويا هذه الحرارة صعبة عليكم ، ماذا لو فتحتم محل في الشام وضحكت .

ومن هنا بدأت تحدثه عن صديقتها حياة الجندلي والتي تعبش في حوش الجمال وكيف امتدحت لها الشام حين زاروها في صيف العام الماضي ، وتسوقوا في سوق الحميدية وتنزهوا في الزبداني .

اليوم التالي وفي الموعد نفسه ، جلست كوثر بجوار أبي وهي تحرك الهواء عن وجهه بمروحة من السعف وتشكو من شدة الحر حتى وعند رش السطح قبل المغرب بالماء ، فإن النوم صعب مع هذه السموم، والاستحمام لم يعد يفيد في تلطيف الجسم .
أما اليوم الثالث فقد حدثته بأمنيتها في زيارة الشام والتمتع بجوها وهوائها وزيارة أسواقها ومزارعها ، فكثير من المعارف والأقارب قد زار الشام السنوات الأخيرة . في اليوم الرابع طلبت منه لو يحقق أمنية الجميع في السفر إلى الشام ، فصابر الذي يعمل في المحل يُمكن الاعتماد عليه فهو يعمل من سنوات ، والسفر بالقطار لا يستغرق أكثر من ثلاثة أيام ، وحتى سيدي عبدالله وافق وهو الحريص على البقاء في المدينة، وأظن رغبة أبي في بر والديه وإدخال السرور إلى قلبيهما ساعدت كوثر في انتزاع الموافقة من أبي .
مما يثير عجبي علاقة كوثر بأبي إلى هذا الحد والتباسط معه في الحديث ونقل طلباتنا ورغباتنا إليه وهو أمر ليس شائعاً في بقية الأسر ، تقول أمي إن كوثر أصيبت بالحصبة وهي صغيرة ، ولم يزل مرضاً يحصد العشرات من الأطفال ، ورغم أن أمي قامت بكل الطرق لعلاج هذا المرض ، من لبس كوثر للملابس الحمراء بعد غليها بالماء ، والاستحمام بالماء الدافئ ، إلا أن حالة كوثر كانت تزداد سوءاً ، وأيقن الجميع بموتها ، ولا تدري كيف نجت ، إن نجاتها معجزة إلهية أذهلت الجميع ، ومن بعدها أصبحت لكوثر مكانة كبيرة عند أبي .
في دمشق زرنا الجامع الأموي والقلعة وجبل قسيون وضريح صلاح الدين وسوق الحميدية والزبداني ، وقضينا أياماً في مزارع أبي كرم صديق أبي في حلب ، رحلة لا تُنسى استحضرت تفاصيلها مع ستي فاطمة وسرينا بها عن أنفسنا قليلاً .

التقيتُ عيسى قبل مغادرته إلى إحدى الجبهات للحراسة ومنع العدو من مهاجمة المدينة ، نقل إليّ أخبار عن تفشي الجوع بين من تبقى في المدينة بشكل مخيف ، فقد قبض الجندرمة على رجل حبشي يبيع لحماً مطبوخاً ، واتضح بعد التحقيق معه أنه نبش قبر امرأة توفيت حديثاً وقام بتقطيع جثتها إلى قطع وطبخها وباعها ليوهم الناس بلذة الطعم البقري الطازج .



جني أهوج يتلبسني ، يجعلني أثور على الهواء الساخن ، على النخل المغروس كالأعداء الشامتين ، على البيوت التي أدمنت البكاء والتحسر ، انتبهت لغضبي وأنا أكيل الشتم والتأنيب لدادا حوا ، ليس هذا من عادتي ، فمنذ صغري ، والكل يُحسن معاملتها ، اشتراها سيدي فاروق رحمه الله لتساعد أمي في أعمال البيت يوم زواجها من أبي ، كانت أمي تطلب مشورتها في أمور البيت كثيراً ، وتعمل برأيها وتأمرنا بمعاملتها بما يرضي الله .

لا أدري لِمَ كل هذا الغضب ؟ ، فما يعني تقصيرها في بعض أعمال البيت ، هي حتماً لا تستطيع أن تؤدي كل الأعمال السابقة ، كانت أمي وستيته سلمى وكوثر يساعدونها ، ولابد أن الجوع بدأ يؤثر فيها بل إني أرجعتُ إليه كل هذه الثورة والعصبية التي أعيشها ، فمن يومين بدأت دادا حوا تعمد إلى إنقاص الوجبة اليومية كثيراً ، تقول أن المخزون الغذائي بهذا المعدل يمكن أن يكفينا شهرين على الأكثر ، ومن وقتها والسؤال يلح داخلي :

ـ ماذا أصنع لو زاد الحصار على ذلك ؟

استطاع عيسى أن يحصل على اجازة لمدة يومين ليرتاح من عناء العمل والحراسة كما تقدم بطلب للبكباشي خيري يشرح فيه رغبته للعمل في القلعة السلطانية بباب الشامي ، ليكون قريباً من بيتهم ومن الحرم ، فدائماً يأخذه الحنين لأن يقذف نفسه في الروضة الشريفة ويبكي هناك ، كما يود أن يكون قريباً مني لنواسي بعضنا بعضا ونكون يداً واحدة ضد هذه الهموم التي تنهشنا ، فجميع أسرته سافرت إلى الأردن واستقرت هناك ، أخبرني عيسى بتلك الرسالة التي بعث بها الشريف علي بن الحسين يطلب فيها استسلام قوة الحجاز كشرط لإنهاء الحصار ، كما بعث الشريف زيد بن الحسين برسالة يطلب فيها اخلاء بئر الماشي التي تبعد أربعين كيلاً عن المدينة ، لكن فخري باشا بعث بخطاب إليهم يقول

فيه {{ إن جنودي البواسل مكلفون بالدفاع عن المدينة حتى آخر قطرة دم وأخر جندي وآخر رصاصة ، ولن ينكس علم العثمانيين الأحمر من على أبراج قلعة المدينة والقبة الخضراء ومنارة المسجد النبوي ما لم يدرج هؤلاء الجند في أكفان حمر مضرجة بدمائهم تحت أنقاض المدينة وتحت التربة الخضراء للروضة المطهرة }} .
الحق أني لا أنكر اعجابي بهذا الجواب ، بهذا الصمود وهذه الإرادة ، تمنيت أن يكون هذا الموقف من رجل آخر غير فخري .
ترافقت مع عيسى إلى العنبرية حيث حضرنا احتفالاً كبيراً لتهنئة فخري باشا بالسلامة بعد أن اطمأن على سكة حديد الحجاز في مدائن صالح ، زُين مركز القيادة بالأعلام والزهور وأغصان النخيل وعُلقت لوحة كبيرة كُتب عليها (مرحبا) وعند وصول القطار الذي يُقل فخري باشا أُطلقت الألعاب النارية في الهواء ، وتعجبتُ من احتفال كهذا وسط الحصار والجوع والألم والخوف ، لكنّ عيسى أوضح لي أن ذلك لرفع معنويات الجند وإظهار القوة للعدو وليدرك أننا لا نفكر بالاستسلام .
في طريق عودتنا وجدنا الجند منكفئين على رجل في الشارع ويعتزمون حمله ، اقتربنا منهم يدفعنا الفضول ، كان أبو جميلة المخبول رحمه الله ، مسكين ، يبدو أنه مات جوعاً ، يتضح ذلك من هزاله الشديد وعظامه البارزة ، عيناه الغائرتان ، لابد أنه بقي أيام طويلة بلا طعام ، كان يشيع الضجيج في أزقة المدينة وأحواشها كلما مر فيها ، الصغار يجرون وراءه .. يقومون بعمل حركات بوجوههم فيقلدها أبو جميلة بشكل مضحك مما يثير مرحهم وسعادتهم .
ذات يوم جاء إلى أبي في سوق الحبابة يشكوني إليه ، يدّعي أني ألتقيته في شارع الساحة وبيدي العصا وكنت عازماً على قتله ، ولولا أنه تدارك نفسه بالهرب لكنت أوسعته ضرباً حتى الموت، أخذ أبي يسايره بالكلام ويطمئنه أنه سيقوم بتأديبي ، أبي يدرك أن هذه من أوهام وتخيلات أبو جميلة التي لا تنتهي .

كثيراً ما كنا نراه يتحدث بصوت عال ثم يضحك ويعود بعدها إلى الصمت كأنما انتابته حالة اكتئاب شديدة ، كان الكبار يمنحونه قطع الخبز وحبات التمر وأحياناً (المعمول والغُريبة) وينهون الصغار عن أذيته .
رحمه الله ..أعجب لهذا الموت .. يتغلغل في حياتنا.. إنه يتغلغل فينا .. ، إننا نحتفل به في كل حالاتنا ، حتى ونحن فرحين ، نقول عادة « أكاد أموت من الفرح .. أو أكاد أموت من الضحك » .
أكملتُ طريقي مع عيسى إلى المناخة ، مررنا بسيل أبو جيدة وقد سال هذا العام ودخل على المنازل القريبة من مجراه في السيح ، كثيراً ما لعبنا فيه ونحن صغار، نسبح ونلعب فيه كبركة ماء في مزرعة ، وعادة ما ينتهي لعبنا هذا بعقاب ساخن في البيت بسبب اتساخ ملابسنا ، كان يمتلئ بالحياة والصراخ والضحك ، كانت مواسم الأمطار فرصة للتنزه والمرح ، فكنا نخرج إلى العيون بالقرب من جبل أحد ونأكل المعدوس بالسمك سواء مع الجيران أو عندما نكون في ما يشبه الرحلة مع أبناء الجيران .
أثناء سيرنا تذكرنا قصة حذيفة النحاس ، فقد أحب فخري باشا تفريغ المدينة من شبابها ، فأمر أشرف بك (ولد الكشي) بجمع الشباب على أن لا يكون بينهم تركي ومهاجمة معسكر الشريف عبدالله بن الحسين ، فجمع أشرف بك شباب العصا ومحبي العراك أمثال حذيفة والدلوقة وأبو حلمه وهجموا على المعسكر ووقع حذيفة النحاس في الأسر وعاتبه الشريف عبدالله ، فأجابه :
ـ يا سيدي ، يقول المثل « كل عيش النثراني وأضرب بثيفه » أي عليك الأكل من خبز النصراني والضرب بسيفه ، لكنه ألثغ بالسين .
في المساء خرجت إلى الحوش أمام بيتنا ، كان القمر متوهجاً بالضوء ، كنت أشعر بيتمه ، بفراق أحبته ، لكنه وفي لهم ، يأتي كل ليلة للسؤال

عنهم ، أغبطه فهو لا يجوع مثلنا ، ابتسمت وقد تخيلته ينام ويأكل طيلة النهار ليستلم حراسته الليلية .

أخذت ورقة ولففتها وأشعلتها بديلاً عن السجائر التي انتهت من زمن بعيد ، فجأة لمحت ثلاثة رجال بثياب ناصعة البياض وعلى رؤوسهم عمة المشايخ ولحاهم شديدة البياض ، يسيرون سير الشباب بصحة وقوة ، دخلوا بيت يس بخاري ، تساءلت في داخلي متى سكنوا هنا ، ولِمَ لم أرهم غير اليوم ؟ ، داخلني الخوف وأسرعت إلى البيت ، وجدت سيدي منكب على مسبحته ، ألقيت عليه السلام وحدثته بما رأيت ، شعرت أن صوتي يرتجف والخوف يظهر في نبراتي ، قال لي سيدي :

ـ هؤلاء (الصُلّاح) أي جن مسلمين يسكنون أحياناً البيوت المهجورة ، ولا يؤذون أحداً ، وعليك أن تُحصن نفسك بالمعوذات وآية الكرسي .

وعاد بعدها إلى تحريك شفتيه مع حبات مسبحته .

حين كنت صغيراً قلت لسيدي :

ـ من هذا الذي توشوشه طيلة الوقت .

ـ أذكر الله يا منصور ، ليحفظني ويمنحني القوة ، فلا أخاف أحداً ، حتى أبو مروحه لا أخاف منه .. قالها وعليه ابتسامة تغطي وجهه .. أبو مروحة مِشكل مشهور يهابه كل لاعبو المزمار لقوته وجبروته .



البيت يتنفس أرواح أهلي ، الجدار لوحة ترتسم عليها الوجوه ، ها هي كوثر تدخل علينا من باب المجلس وتتجه ناحية ستي وسيدي وتقدم لهما براد الشاي وتمضي ناحية المطبخ وكأنها لا تراني ، أسمع صوت أمي ينادي على دادا حوا ثم ينقطع صوتها ، صورة ستيته سلمى مع مصطفى ثم تختفي ، أبي يجلس بالفانيلة البيضاء وأمامه براد الشاي المغطى بقطعة قماش مطرزة بألوان زاهية والسيجارة بيده ، أشعر به امبراطور يحكم ويأمر، ينتظر كأس الماء تأتي به أمي ، أخي إبراهيم يدخل بثيابه المتسخة من الحوش وهو خائف من توبيخ أمي ، قلت في نفسي : لعل أرواح أهلي تفر من حلب وتبقى ساعة في بيتنا وتعود ، أو لعل الشوق والألم والفراغ يصنع ما أرى .

نزلتُ إلى المقعد بالأسفل ، فسيدي كمال يضع كتباً قليلة هناك ، فحين يكون البيت مليئاً بالجارات ويسهرون حتى يتناولوا طعام التعتيمة مع أمي ، يطرد الانتظار بالقراءة ، أخرجت أحد الكتب ، لوهلة ارتسمت صورة بدرية بشعرها المنسدل على ظهرها ، كلما دخلتُ إلى المقعد تذكرت ذلك المنظر واليوم تذكرتُ معها { يوم المزرعة } .

ففي العام التالي لسفرنا إلى دمشق ، أحببنا قضاء شهور الصيف في مزرعتنا بالعيون ، وكالعادة تولت كوثر إقناع أبي ونجحت في ذلك ، بشرط أن نتناوب الجلوس أنا وسيدي كمال في المحل مع أبي ، كنا ننزل بعد الفجر من المزرعة لنعود بعد العصر في أيام مناوبتنا .

في ضحى أحد الأيام كنت أثرثر مع مرجان بالقرب من السانية التي يديرها ثور كبير ، وأشاهد الماء الصاعد من البئر .. وقطراته التي تتلألأ حين تلامسها أشعة الشمس ، سمعت كوثر تناديني من بُعد ، أخبرتني بوجود بدرية وأمها في ديوان المزرعة المطل على البركة ، حيث يقضون معنا سحابة النهار ، اعتدتُ على زيارة الجارات طيلة

مكوثنا في المزرعة ، لكن زيارة بدرية كانت حلماً .. وبعض أحلامنا تتحرر من تخيلات قلوبنا إلى مشاهدة عيوننا .

بعد أن تناول الجميع طعام الغداء ، خرجت من الديوان إلى مكاني الأثير تحت النخل لأدخن سيجارة وأفوز برائحة الزهور ، جلست على حصيرة مصنوعة من سعف النخل ، سمعت صوت أقدام ، كانت بدرية مقبلة ، هي تخطو في قلبي وتثير فيه أنغاماً وضجيجاً وجنوناً ، تجعل النخيل من حولي أناساً طيبين يهنئوني ويفرحون لي ، زهور الفاغية القريبة منا تنثر ضحكاتها المعطرة ، صوت السانية يصلني من بُعد وكأنه زغرودة مائية ناعمة .

جلستْ بعيدة عني مسافة متر، ملأناها بنظراتنا .. بأشواقنا .. بالصمت المشحون .. بكلام لا تفهمه غير النفوس العاشقة ، كشفت عن وجهها ، بياضها رضع من حليب الأمهات الرائعات .. حنون ودافئ ، استدارة وجهها تذكرني بضحكة أمي ، صوتها يركض داخلي كسحر أسود لا أشفى منه ، يكفي أن تلقي السلام لأكون أكثر ثراء وغنى من بيت الصافي ، وأن تنطق اسمي لأظل أجري شهراً كاملاً بلا توقف .

مرحباً .. قلتها متأخراً ريثما لملمتُ ما تناثر مني ، سألتها عن حالها ، أخبرتها بالشوق وصرامته معي ، انتظاري لليوم الذي أراها في بيتنا زوجة رائعة ، كان الحياء يتغشاها و يزيدها جمالاً ، أشعر أن ماء يغوص في أعماق أعماقها ليعود بطعم الذهب ، لم تتجرأ أن تناولني رسالة كتبتها لي .. تركتها مكان جلوسها .. أجرأ منها خصلات الشعر التي فرت من المحرمة .

كيف أنتِ الآن يا بدرية ، هل استقر بك المقام في مكة ، هل زارتك ليلة ملأتك بالحنين والشوق ، وصغرت الدنيا شيئاً فشيئاً حتى عادت وجه حبيب ، فيه الأمس بلقاءاته .. بحديثه ، فيه الغد بآماله وأحلامه ، فيه الربيع والصيف ، الغنى والفقر ؟ كثيراً ما تأتيني هذه الليلة وترميني كقطعة قماش مهترئة لا تنفع لشيء .

يا لسذاجتي يا بدرية ، ظننتُ أن الحب سلماً ارتقيه لأفوز بك ، فإذا بي أقف في وسط السلم ، أنظر للأسفل بفرحة وللأعلى بحسرة .
في اليوم التالي التقيت بعيسى ، أخبرني بانتقاله إلى القلعة مثل كثير من الجند رغبة من فخري في انتقالهم لزيادة الحصون والقلاع ، فتكون المدينة عصية على أي عدو ينوي اقتحامها ويصبح مجبراً على محاصرتها حتى يمل ويرحل ، بل إنه قام بأعمال من كان في حالة السلم فهدم البيوت لتوسعة الحرم الشريف وأقام مركز أبحاث زراعية في الداودية كما أنشأ مصنعاً للثلج ، كل ذلك ليفهم الأعداء أن فخري باشا لن يستسلم أبداً .
الأيام تمضي هادئة.. رتيبة، ليس فيها غير هذا الجوع، فالوجبة البسيطة لا تكفيني ، لكن حمدت الله على وجودها ، وكل الخوف أن يطول هذا الحصار ، وحينها سنفتقد حتى هذه الوجبة .
بشرني عيسى بوصول القطار ، منذ زمن بعيد لم يأت ، كان هو أملي في الاطمئنان على أهلي ، ستي كل يوم تسألني عنه ، عن الأخبار التي ربما أسمعها من هنا أو هناك .. عن الأحباب الذين رحلوا ، اجتمع عليها الكبر والألم والجوع فجعلوا من صوتها بقايا صوت ، كلما تحدثت أثارني وهنها حتى أني ألبي طلبها سريعاً خوفاً من زيادة وهنها بتأخري ، كنت دوماً أكذب عليها وأطمئنها :
ـ في الشام يا ستي يوجد الطعام والأمان .. والناس هناك تنتظر انتهاء الحصار كي تعود .
مشيتُ إلى العنبرية ، التقيتُ بطاهر ، وجهه قطعة من حزن عميق ، صوته مغسول بنبرات الألم ، الإجهاد بادٍ عليه ، وكأنه خارج لتوه من معركة ، واضح أن النوم جافاه أياماً ، أخبرني بوفاة والدته بمرض التيفوس .. مرض انتشر في حلب وحصد العشرات ، الجثث في كل مكان ، يسقط الإنسان صريعاً عند باب مسجد ، في بيته ، على الأرصفة

، كانت العربات تسير في الشوارع .. يقودها الجند .. يضعون عليها الجثث فوق بعضهم البعض ليتم دفنهم في حفر جماعية خارج حلب .
قدمتُ له واجب العزاء ، قرأنا الفاتحة على روح والدته ، دعونا الله أن يرحمها ويدخلها الجنة ، تعجبتُ من إصراره على مرافقتي إلى بيتنا ومن ثم العودة إلى بيتهم رغم الحالة التي هو عليها ، حدثني عن أحوال أهل المدينة هناك بعدما استقر بهم المقام في حلب ، مساكين .. تركوا أموالهم ومتاعهم هنا في المدنية ، قامت الحكومة هناك بعمل بطاقة لكل رب أسرة لاستلام وجبة طعام يومياً أو ما يسمى الجراية ، عبارة عن قرص من الشعير .. قرص جاف يسمونه القنيطة ، شئ يسد الجوع ، كانوا يتزاحمون على استلام قوتهم ، تجد العالم والشيخ ومن علية القوم يتزاحمون على مكان استلام طعامهم في منظر يدعو للرثاء .
أكمل حديثه عن الشوطة ، هذا الوباء الذي يحصد الناس حصداً ، يُصاب المرء بسخونة عالية لا تنخفض وهزال شديد حتى يموت ، كثيراً من الأهالي أصيب به ، بل أن أختي كوثر ومصطفى ابن سيدي كمال لم يسلما منه ، وإن كان بعض المصابين قد شُفي منه.. أكمل حديثه عن محاولات الشريف فيصل بن الحسين قطع السكة الحديد عن المدينة بمساعدة الإنجليز وعلى رأسهم لورنس ، كان يتحدث لكن في داخلي حديث آخر .
هل تنجو كوثر ومصطفى من هذا المرض وألتقيهم مرة أخرى ، سأقول لكوثر حينها اني اشتقتُ إليها كثيراً ، وإني قلقت عليها وأكلتني الوساوس وخشيت عليها الموت ، سأجعل لسانها الطويل يقول ما يريد ولن أحاول إسكاتها ، وأحضر لها القطيفة الحمراء التي سمعتها تتحدث عنها مع أمي ، سأغني يوم زواجها وأحضر لها أسورة ذهبية هدية لها ، أما مصطفى سأعطيه كمية كبيرة من حلوى السكرية واللوزية والبليلة ، سأصحبه إلى المناخة ليركب على حمار يدور به حتى بداية العيون ،

وأتركه يلعب مع الدجاج الذي حتماً سنقتنيه ثانية في مزرعتنا بعد أن ينتهي هذا الحصار اللعين .

ما زال طاهر يثرثر حتى وصلنا إلى البيت ، التفت إليّ قائلاً :

ـ منصور ، أنت رجل مؤمن ، وإيماننا يطلب منا الرضى بما كتب الله وقدّر ، كوثر ومصطفى أصيبا بهذا المرض ، علمت أن أباك أحضر الكثير من الحكماء .. اشترى العلاجات والأعشاب من العطار كلما أرشده أحدهم إلى علاج ، أمك كما علمت كانت تسهر بجانبها الليالي الطوال ، لقد بذلوا كل ما يستطيعون ، لكن الأجل مكتوب ، أراد الله أن يسترجع وديعته ، وكلنا له يوما راجعون ، هون الله عليك مصيبتك يا منصور ، توفيت كوثر ومصطفى رحمهما الله ، ألهمك الله الصبر يا منصور .

قال طاهر كلمات تعزية طويلة ، لم أكن أسمعها ، كنت أسمع صوت الفجيعة في داخلي ، دوي المصيبة التي تقع على رأسي الآن ، حرقة آهات وصرخات أكتمها ، ذهب طاهر بعدما عانقني وقال كلمات .. لا أدري ما هي .



ما زلت غارقاً في ذهولي وصدمتي ، ، غصة بكاء تقف في حلقي لا هي تخرج دموعاً فأشفى ولا تغور داخلي فتنسى ، لعل طاهر أخطأ ، فنقل له أحدهم موت آخرين من عائلة أخرى ، فالتبس عليه الأمر ، لعله لم يتأكد من الأمر ، ووفاة أمه بهذا المرض ألصقه بكل من أصيب به ، وضعت أمامي كل الاحتمالات التي تكذب هذا الخبر ، وحين وجدتها لا تقبل عقلاً ولا منطقاً ، استسلمت للأمر .

دخلت إلى البيت بعد أن لملمت نفسي ، كانت ستي تتكئ على وسادة وتثير الشفقة ولا أدري كيف ستتحمل هذا الخبر .. سألتني إن كان القطار وصل من الشام ، أو أن هناك أي أخبار عن المدينة وأحوالها ، حدثتها عن وصول طاهر في القطار ، نقلت لها كيف هي الاحوال الصعبة التي يعيشها الناس هناك ، عن مرض التيفوس وإصابة الكثير به بل إن أم طاهر قد أصيبت بالمرض نفسه وتوفيت متأثرة به .. بل وأصيبت به كوثر ومصطفى ، تغيرت ملامحها ، علاها الجزع :

ـ (وه يا منصور) ، حتى كوثر ومصطفى أصيبا بهذا المرض ، يا رب أكتب لهما الشفاء السريع ، كن معهما يا رب .

ـ طاهر يا ستي يقول إن أبي يبذل غاية جهده في علاجهما ، أحضر الحكيم ، اشترى العلاجات من العطار ، بل إنه لم يترك وصفة أو علاج إلا جاء بها ، لكن حالتهما تزداد سوء .

ـ ربنا يا منصور قادر يشفيهما من عنده .

ـ الله أخذ وديعته يا ستي ، الله يرحمهما ، ادعي لهما يا ستي .

ألقيت بالخبر .. شعرت أن حملاً فوق الحمل قد أزحته عني .. ماتا يا ستي .. كيف للأخبار السيئة أن تختبئ طويلا .. كيف لها أن تكون حنونة .. تكون ناعمة .. في النهاية ستكون مثل جبل يسقط على قلوبنا ويحشر فيها البكاء ،

وقفت ستي ، لا أدري كيف استطاعت وهي بذلك الوهن أن تقف سريعاً ، أن تتحامل على ضعفها ، تحاول أن تُكذب الخبر ، الصدمة أذهلتها .
ظلت تردد وهي تصك صدرها بيدها :
ـ كوثر ماتت يا منصور ، مصطفى مات ، الموت لمن هو مثلي وفي عمري ، استغفر الله ، حكمتك يا رب .
نبرات صوتها كأنما خرجت من تحت صخرة كبيرة ، نبرات مخنوقة ، مبللة بالدموع ، بالدهشة ، بعدم التصديق ، انخرطت بعدها في نوبة بكاء ، مع صريخ وعويل .. سيدي ينهرها .. يستميت بتذكيرها بالله والرضى بما كتب .
لا أدري لماذا حينها لمعت في ذهني صورة فخري باشا ، هو من اضطر أهلي للسفر إلى الشام ، هو من سرق التمر والخضار واحتكرها لجنده ، لو كانت كوثر هنا لما أصيبت بهذا المرض ، وجدت نفسي كالمجنون ، أجري إلى المطبخ .. أتناول سكيناً وآخذ العصا.. قطعت المسافة إلى بيت عيسى ركضاً .. خرج عيسى وأنا أطرق الباب طرقاً شديدا ..قابلني ووجهه يملؤه العجب ، ابتدرته قائلاً :
ـ أين أجد فخر الكلاب .. فخر الطين ، أريد قتله ليرتاح هذا العالم من وجهه البغيض .
ـ خير يا منصور ، ما بك ؟
ـ أختي ماتت يا عيسى ، ماتت في حلب ، ومصطفى بن سيدي كمال مات ، ذهبوا في الشوطة التي تحصد الناس هناك ، كله بسبب فخر الزفت .
ـ صل على النبي يا منصور ، لا فخري ولا مئة فخري يستطيع أن يُنقص يوماً من عمر أحد ولا أن يزيد يوماً، سبحان الله ، أراد فخري من ترحيلهم أن ينقذهم من الموت جوعاً ، لكن أراد الله لهم الموت مرضاً ، استغفر الله يا منصور ، سبحان الله عم حسن البنا سقط من الدور الثاني إلى الأرض أثناء عمله في بناء بيت ، ونجا واحتفل الناس

بنجاته وقاموا بتوزيع الشربيت ، وفي المساء وجد ميتاً في فراشه ، لكل منا الساعة والطريقة التي سيموت فيها ، مكتوب ذلك على جبيننا يا منصور ، صل على النبي واذكر الله .
كلامه ماء أطفأ نار ثورتي ، صليت على النبي ، استغفرت الله ، اغرورقت عيني بالدموع ، تركني عيسى في حجرة المقعد ، بكيت ، بكيت طويلاً ، لم أبك من سنوات واليوم أبكي بكاء عمر بأكمله ، كان بكائي حزناً .. ألماً على فراقهما .. حسرة .. فلم ألق عليهما النظرة الأخيرة ، تتراءى لي كوثر وهي تعالج سكرات الموت ، ومصطفى وهو يهذي تحت وطأة الحمى ، بكيت حتى اشتفيت ، وخرجت من عند عيسى وصلاة العصر قد اقتربت .
في اليوم التالي زارني طاهر ، قد ذهب عنه عناء السفر والإجهاد ، وجهه يشع رضى وإيمان ، حين رأيته قلت في داخلي { كيف صبرت يا طاهر على فراق أمك ، كيف تحملت موتها ، كيف استسلمت لأمر الله ، قبل أن تحثني على الصبر فإن وجهك يعلمني الصبر } ، أخبرني أنه سيغادر في الغد ، طلب مني أن أدعو له بالسلامة ، فالسفر بالقطار أصبح مغامرة خطرة .. الشريف فيصل يقوم بتفجير السكة الحديد على طول الطريق إلى الشام .. بل إن الكثير من أبناء قبائل الشمال تعلموا من لورنس الإنجليزي استخدام الديناميت في تفجير سكة الحديد ، يُجزم الجميع أن القطار لن يعود ثانية ، حتى أن الضباط والجند الأتراك تسابقوا على إرسال رسائل لأهاليهم وذويهم لاعتقادهم أن هذه آخر الرسائل .
أيام طويلة مرت ونحن غارقون في الحزن ، لا شهية لنا للحديث ، ستي كلما هدأت تعود للبكاء ، كان سيدي عبدالله يجمعنا لقراءة القرآن ثم نؤمن على دعائه ، نهدي ثواب قراءتنا لأمواتنا وأموات المسلمين ، ندعو لكوثر ومصطفى بالرحمة ، كانت وجبة روحية أشعر معها بارتياح كبير، أنني أقدم شيئاً لكوثر ومصطفى ، ورغم ذلك لم يتوقف

سخطي على فخري ، منذ أن وطئت قدماه مدينتنا والمصائب تتوالى ، وها هي دادا حوا تقف على رأسي لتخبرني أن الطعام لن يكفي أكثر من أسبوع .
ما كنت أبالي بنقص الغذاء لولا وجود سيدي وستي ودادا حوى ، مسؤوليتهم تقع على عاتقي .. توفير الغذاء لهم من مهامي ، لم يعد لدي رغبة في استمرار الحياة ، كل ما كان يجعلني متشبثاً بالحياة قد مضى ، ولا أدري أن كنت سأرى أهلي ثانية ، هل أرى بدرية ، هل تنتهي هذه الأزمة وتعود ذكرى ، أم تنتهي بنا ؟
من أين آتي بالطعام ؟ في بداية الحصار استطاع البعض تهريب أكياس الأرز والدقيق من ينبع عبر المزارع بعيداً عن أعين الجند وبيعها بأسعار عالية جداً ، حتى أن عم زاهد الكولندي باع بيتاً له في زقاق الزرندي مقابل كيس من الأرز ، أما الآن فلا يوجد طعام مهرب ، نعم .. أملك عشرة جنيهات عثمانية ، ولكن أين أجد الطعام الذي أشتريه .
في الفترة الماضية استطعت التغلب على نفاد الفحم والحطب ، كنت أجد بعض قطع الخشب وسيقان الشجر في الطرقات ، بعدها لجأت إلى خزانة الملابس وجزأتها إلى قطع ، ثم لجأت أخيراً إلى أبواب الحجرات في الشتاء الماضي واستخدمناه للتدفئة بل ويمكن تدبر المزيد ، ولكن الطعام كيف أحصل عليه .
مضيتُ إلى عيسى لعله يجد لي حلاً ، في طريقي وجدتُ شاباً يطارد قطة ويحاول الإمساك بها ، سألته ماذا يريد بها ، فأجابني بعنف وحدة :
ـ أتظنني أريد اللعب معها ، أم تحسب أن لدي هواية تربية القطط ؟ ، بالطبع أنوي ذبحها وأكلها ، فمنذ يومين لم أذق أنا وأهلي أي طعام .
أعترف أن للجوع ذائقة غير ذائقة الشبع ، اشتهيت وقتها لو أشاركه أكل هذه القطة ، لأكثر من سنة لم أذق طعم اللحم ، لابد أن شوي جزء منها سيكون له لذة لا تنسى ، وجزء آخر نصنع منه شربة فاخرة ، وربما يتبقى جزء منه يكون اداماً رائعاً مع بعض البهارات ، فكرت أن

أعرض عليه مساعدتي لقاء مشاركته في أكل القطة ، حدست أنه سيرفض حتماً ، وتركته لأجد اثنين من الجند يحملون رجلاً ميتاً ويخرجون به من حوش البري ، هذا المنظر أصبح يتكرر كثيراً ، وفي كل مرة أقول :

ـ النهايات التي تقع لغيرنا ، قد تقع لنا .



أرشدني عيسى إلى الأنباشي إسماعيل في القلعة للحصول على أقراص من الخبز الجاف (القنيطة) ، ونبهني إلى طلب أكبر قدر ممكن من الخبز فقد يتوقف وصول القطار وينقطع إرسال المؤن ، حصلت على ثلاثين قرصاً من الخبز.. دفعت فيها ست جنيهات عثمنلي ، كما اشتريت بجنيه سكر وشاي ، كان ذلك يعتبر ثمناً كبيرا جدا ، فكل ما حصلت عليه لا يساوي عدة قروش أو ريال مجيدي على الأكثر ، لم يتبق معي غير ثلاثة جنيهات فقط . كان القرص على صغرة يكفي الواحد منا أربعة أيام ، فكسرة الخبز مع الماء تُبعد عنا شبح الموت ، أما الشبع فكان ترفاً دونه زحزحة الجبال .

حدثني عيسى عما فعله رشيد الكنو وشلته ، فقد أمسكوا بكلب في إحدى الخرائب .. صنعوا منه وجبة شواء وسط فرحهم وضجيجهم وظلوا بعدها يشيعون عن لذة لحم الكلب ونكهته العجيبة ، أثناء تجوالي مع عيسى ، لاحظت اختفاء القطط والكلاب تماما ، ذهبت كلها طعاماً لجوعى يقاومون الموت ، تذكرنا قول سيدي محمد علي عن اختفاء الكلاب ، ولكن أين هو الآن ؟ هل سافر إلى الشام ، هل مات جوعاً مثل المخبول أبو جميلة رحمه الله ، أم انتقل لبلد آخر بطريقته الخاصة ، الغريب أننا لم نسمع شيئاً عنه أبدا ، تذكرنا حادثة زقاق سيدنا مالك ، فحين كان يجلس بعض الشباب بجوار بيت متهالك مهجور ، جاءهم سيدي محمد علي يجري ويصرخ فيهم ويحثهم على ترك مكانهم وهم يسألونه عن سبب ذلك ، لكنه لا يجيبهم .. في النهاية تركوا مكانهم تحت إصراره وإلحاحه ، ليجدوا الجدار المستندين عليه يتهاوى أمام أعينهم .. لو تأخروا ثواني لكانت قبورهم تحته .

حين تجوالي مع عيسى راقبنا مجموعة من الأطفال يجرون خلف أحد خيول الضباط التي تمضي إلى القلعة ، كانوا يجمعون روث الخيل في

حقيبة قماش .. سألت عيسى عن تفسير فعلهم هذا ، قال انهم يجففون الروث ثم يستخرجون حبات الشعير منها ليسدوا بها صرخات الجوع . بل إن بعضهم عثر على خف جمل نافق وقام بغليه مع بعض الملح ليكون شوربة تسد شيئاً من الجوع .
هكذا هم الأصدقاء ، حدثت نفسي بذلك وأنا أتذكر صنيع عيسى معي .. شفاعته لي عند الأنباشي اسماعيل مكنتني من توفير أقراص الخبز، تذكرت مثلاً تقوله ستي .. بعض الأصدقاء « زي الجنيه الذهب ،، ينّسي الهم والتعب » ، لعل حالي سيصبح مثل هؤلاء الأطفال أو مثل رشيد الكنو أظل أبحث عن قط أو كلب أسكت به جوعي وجوع ستي وسيدي ودادا حوا ، إن الأصدقاء لنا كعضو من أعضائنا ، نشعر بعاهة إن فقدناه ، بدونهم تسير الحياة ولكن بصعوبة ، نستطيع أن نتنفس الهواء ولكن بغصة تقف في حلوقنا ، كنت كثيرا ما أطلب من سيدي عبدالله أن يدعو لعيسى في تهجده وصلواته . بل زاد اعتزازي بصداقته بعد أن أصبح عضواً في دفتر أحباء الحجاز .. دفتر أنشأه فخري باشا بكتابة اسم كل من يتعهد بالدفاع عن المدينة لآخر قطرة من دمه ، أخبرني عيسى أن الجند والضباط قد تسابقوا لتسجيل أسمائهم لنيل هذا الشرف ، بل إن فخري باشا وضع في إصبعه خاتم الجهادية ووقع على الدفتر بالأحمر كناية عن فداء المدينة المنورة بدمه ، تمنيت لو كان اسمي في دفتر أحباء الحجاز ، ليتناثر دمي فداء لها .. فداء للحرم الشريف والمرقد النبوي على صاحبه أفضل الصلاة والسلام ، سأطعن كل إنجليزي يقترب من سورها ، لن يطأ ترابها الطاهر بقدمه النجسة وعيني تراه ، هنيئا لك يا عيسى ، هنيئا لك هذا الشرف ، هذا الوسام الذي تضعه على صدرك .
تركت عيسى ، أصبحتُ كلما أقبلتُ على الحوش ، تخيلت إبراهيم يسبقني إلى البيت ليغسل يديه ووجهه ويزيل الأوساخ عن ملابسه ، كنت أوبخه دوماً على قلة عنايته بنظافته ، ذات يوم أنساه اللعب بالمدوان

وهي لعبة محببة إلى نفسه .. يلعبها كثيراً مع أبناء الجيران .. أنساه العودة للبيت مبكراً ..تأخر حتى انتهت صلاة المغرب .. كان هذا أمراً مستنكراً .. فالأولاد في مثل سنه عليهم الدخول للبيت قبل الآذان ، حين شاهد أبي قادماً جرى إلى البيت وأختبأ وراء أمي التي ترجو أبي أن يسامحه هذه المرة ، كان إبراهيم يردد :

ـ والله أتوب يا أبويا ، آخر مرة يا أبويا ، سامحني يا أبويا .

دخلتُ إلى البيت ، كان سيدي يقرأ في المصحف الكبير ، لم يزل وجهه مشرقاً بنور روحاني نقي ، لم يؤثر فيه الجوع كثيراً ، رغم أنه يكتفي بكسرة خبز صغيرة جداً بعدما نفد التمر ، يظل يمضغ الخبز طويلاً ويتبعها بكمية كبيرة من الماء المتوفر من بئر البيت وأحياناً أجلب معي من منهل عين الزكي في باب الشامي كمية من الماء للشرب ، ستي تجلس بالقرب منه ، هزالها يزداد يوماً بعد يوم ، سألتني بصوت خافت وعينيها غارقة بالدموع إن كان القطار قد وصل من الشام ، تريد أن تطمئن على أهلي هناك ، لم أرد أن أقطع الأمل من نفسها وإن كان قد تأكد توقف القطار تماماً ، أخبرتها بأنه يأتي على فترات متباعدة وربما يأتي قريباً .

مضيت إلى غرفة المؤخر وقد تراصت فيها كتب سيدي كمال ، قرأت قليلاً ، بزغت في ذهني فكرة كتابة رسائل إلى بدرية أبوح لها ، بعضاً مما أعانيه ..لا يهم إن كانت رسائلي ستصلها أم لا .

رسالتي الاولى :-

بسم الله الرحمن الرحيم

رحل الجميع يا بدرية ، أضحت مدينتنا كفم امرأة عجوز بلا أسنان ، كحبل غسيل طويل ممتد لا ملابس عليه ، إنها تدعو للأسى .. شوارع صامتة لا أحد يسير فيها ، منازل لا يسكنها أحد ، أشعر أن الهواء يزور

مدينتنا وفاء ، فلا أحد يحتاجه غير قلة ، هل تعرفين .. بالأمس حين رأيت مدينتنا بلا سكان ، قلت أن الشمس والقمر بعض سكانها .

ماتت كوثر ، ماتت هناك في حلب ، إن الموت مثل هواء محمل بالغبار ، لا ندري أي عين تصيبه وأي عين تنجو منه ، ، إنه يأخذ الجسد ويترك الروح ، فروحها تأتي كل صباح وتسأل عني ، تدور في البيت بشوق وحب ، أراها فوق رأس ستي ، أراها تشرب الماء من الزير ، وفي المساء تعود ثانية لتطمئن عليّ ، تزورني في أحلامي ، روحها رائعة يا بدرية ، خفيفة الظل ، رحمها الله و رحم مصطفى الصغير الذي رافقها في موتها ، ورحمنا أجمعين .

أنهكنا الجوع ، لدينا أقراص جافة لن تكفينا كثيراً ، ولا أدري ما يحدث بعدها ، أنموت جوعاً أم يرزقنا الله ما يبقينا ؟ ، يقول سيدي إن الجوع حقيقة الحياة ، فمنذ ولادتنا ونحن في جوع ، جوع إلى الطعام .. إلى الصحة .. إلى المال .. إلى السعادة ، لن يخلو أحد من جوع ، إنه يمنح الأشياء قيمة كبيرة ، لذا لن تدركي قيمة كسرة الخبز عندي ، وكيف أن فتاتها يتراءى لي كذهب متناثر .

حين نلتقي يا بدرية سأشكوك إلى القاضي الحنفي ، فأنت تحتلين أكثر ذاكرتي ، أصبح يحلو لي الجلوس في حجرة المقعد .. كلما دخلتها وجدتها مؤثثة بالسجاد والوسائد وأنتِ ، أذكر يوم وقفتِ في وسطها كضحكة طفل كبرت مع الأيام ، بشعرك المسدل على ظهرك .. ما أروعه .. كلما تذكرته .. تذكرت ليلاً غاب قمره لكن داخله ضوء خفي ، شعرك المدلل يا بدرية يشعرني بطهارته وكأنه خرج لتوه من صلاة العشاء ، حجرة المقعد يا بدرية تتعمد الشمس أن تزورها قبل غروبها ليكون آخر عهدها بهذا الكون .

ما زلت أذكر يوم المزرعة .. وجهك المطل كجوهرة رائعة من الروشان ، يوم سفرك ، لقد أصبح يتعاقب عليّ الليل والنهار وأنتِ .

حين يستبد بي الشوق إليك أذهب إلى شجرة النبق في شارع الساحة ، ، أتأملها ورقة ورقة ، أقول هنا نظرت بدرية ، بل هناك ، بل إلى تلك الورقة فهي أكثر نضارة وإشراقاً ، حتى أجدني ألمس جذعها لعل مكان يدي يوافق يدك ، إني كلما اشتدت بي قسوة الحياة ، تذكرتك .. تذكرت روعة حبنا وغفرت للحياة قسوتها .

منصور

٢٠/ ربيع الثاني /١٣٣٦ من الهجرة النبوية .



اصبح عيسى يتردد عليّ بين الحين والآخر ، فالجوع والإعياء جعلاني أفضل ملازمة البيت ، زارني اليوم ، قضينا الوقت بالحديث عن فخري باشا ، لم يزل عيسى يثني على فخري ، ويرى صموده حتى الآن نموذجاً عسكرياً خارقاً لا يكون إلا للقادة الأبطال قلما يجود بهم التاريخ ، ورغم الحصار وتوقف القطار إلا أن اهتمامه بمعنويات الجند تثير العجب .. أقام احتفالات صاحبتها الموسيقى والألعاب وإطلاق الصواريخ النارية بمناسبة معاهدة الدولة العثمانية مع روسيا ، بل أقام احتفالات أخرى بمناسبة تولي السلطان العرش .

كنت أرى صمود فخري باشا ضرباً من الجنون ، دفع ثمنه سكان مدينة بأكملها ، رُحلوا .. جُوعوا .. ماتوا ، وأي مدينة ، إنها مدينة رسولنا العظيم عليه الصلاة والسلام ، وأياً كان اختلافي مع عيسى إلا أننا أتفقنا على حتمية التسليم في نهاية المطاف ، لقلة الطعام وتوقف الإمدادات بواسطة القطار .

استأذن عيسى ومضى لبيته .. صعدتُ إلى المجلس ، كان سيدي يجلس وحده بالقرب من الروشان ، أما ستي فكانت مع دادا حوا في المطبخ على ما يبدو ، حين رآني قبلّ المصحف الكبير ووضعه بجواره على الوسادة ، وناداني ، جلستُ بجواره ، سألني عن أحوال المدينة ، وهذه عادته بين الحين والآخر ، ثم قال :

ـ كلما رأيتك يا منصور تذكرت نفسي .. كنت في مثل سنك .. أعيش في صعيد مصر ..في أحد الأعوام عاد قريب لنا من الحجاز..أخذ يكثر من وصف الروضة والحجرة النبوية والسعادة الروحية التي ملأته في زيارته لها ، رغبت في الحج والقرار في المدينة ، أخذت ليالي بأكملها وأنا أدعو الله أن يحقق أمنيتي ، وقد أكرمني الله وقضيت ثلاثة شهور في رحلتي إلى هنا .

ـ الحمد لله يا سيدي .

ـ ومضت أيامي في المدينة كأسعد إنسان .
ـ هو فضل الله يا سيدي .
ـ ولدي يا منصور ، الموت علينا حق ، بالجوع .. بالمرض .. بلا شيء ، فالله على كل شيء قدير ، ولكل منا ساعته .
ـ نعم يا سيدي ، الله يعطيك العمر الطويل .
ـ ولكل أجل كتاب يا منصور ، وقد جاء كتابي ، يوم الثلاثاء بعد العشاء ، أي بعد ثلاثة أيام يا منصور ، وكل رغبتي أن أدفن في البقيع .
تلعثمت .. الدهشة تملؤني .. التكذيب أقرب إلى نفسي .. ما يدريك يا سيدي عن موعد موتك .. يقولون أن الحجاب مكشوف عنك .. أيقصدون هذا ؟ أن تخبرك رؤياك أو أي طريقة أخرى بالقادم .. عرفت هذا عنك يا سيدي .. أما موعد وفاتك .. فالتصديق صعب ..لا أحد يستطيع أن يصل لهذا .. وجهك الهادئ وصدقك المسبق يجعلني أرتعش من داخلي .. إلى أين تمضي يا سيدي .. يكفي فراق .. يكفي وداع كل حين .. أبقى يا سيدي .. لا تحتمل قلوبنا أكثر .. أي ابتسامة هذه التي تملأ وجهك وأنت تنتظر الموت .. ها أنت تتمتع بصحة طيبة .. لا أرى عليك الوهن الذي أراه علينا .. ، يا للموت أصبح مثل الماء والهواء ..أصبح يرافقنا يومياً بلا خوف أو جزع .. فالجند يموتون بالحمى والأهالي بالجوع .. لكن لم يستطع أحد تحديد موعد موته .. أرفق بستي .. لن تحتمل فراقك ..ستتكالب عليها المصائب .. يكفيها فراق أهلي .. موت كوثر ومصطفى .. استغفر الله .. لم أجد كلمات أرد بها عليه :
ـ يا سيدي ، ربي يطيل في عمرك .
أكمل سيدي .. كأنه لا يسمعني .. الأمر يقين عنده :
ـ لذا أريدك أن تذهب لنجيب بك ، تستأذنه في دفني بالبقيع . ولا تخبر ستك بشيء .

كنت أعدّ الساعات ، إن سيدي عبدالله لا تخيب رؤيته ، حتى أنا وقع في قلبي اليقين بموته ، قبل يومين كنا نتحدث عن أحوال المدينة وجاء ذكر الجوع ، وصفه سيدي كعادته بالموت الأبيض .. قال إن الجوع يميت النفس عن شهواتها ويتركها بيضاء نقية .

ذهبت إلى نجيب بك في القلعة .. دخلت بعد رجاء طويل للجندي الذي يحرس بوابة القلعة ، أخبرتُ نجيب بك برغبة سيدي ، أصابه الأسى ، حوقل وأوكل الأمر لله ، وصف جدي بالرجل الصالح .. رجل فتح الله عليه بفتوحات عظيمة .. طلب مني إبلاغه حين وفاة جدي ليرسل معي بعض الجند لمساعدتي ، شعرت أنه حزن جداً لفراق سيدي لكنه لم يكن متعجباً من تحديد سيدي لوقت وفاته كتعجبي .

بعد عصر الثلاثاء طلب سيدي الاستحمام ، جهزت له دادا حوا الطشت والماء الدافئ والاشنان [1]، ارتدى ملابس جديدة وسط تعجب ستي وذهولها ، بل فاحت من جسده رائحة دهن العود الفاخر الخاص بالحجرة الشريفة وكان شيخ الحرم قد أهداه إياه .. يبدو أنه أحتفظ به لهذا اليوم ، لم تجرؤ ستي على سؤاله ، دوماً كانت تحترم رغباته بلا نقاش ، الهيبة منه تملؤ قلبها ، طلب مني مرافقته إلى الحرم ، قلبي تنهشه الأسئلة ، لم يبق غير ثلاث ساعات تقريباً على الموعد الذي حدده سيدي ، كلما تحدث نظرت إليه بكل حواسي ، أريد أن أملأ عيني منه قبل أن يفارقني ، في طريقنا ذكّرني بالآخرة وهوان الدنيا ،أعاد على مسامعي الأنوار التي سيمنحها الله لقلبي حين يشاء ، كنت التقط كل كلمة يقولها وأرددها في داخلي لتكون عصية على النسيان .

صلينا المغرب في الروضة وتلا بعدها أذكاره .. تعكز على يدي وهو يقف أمام نبينا عليه الصلاة والسلام بكل الأدب والخشوع ، سمعته يشكر الله عز وجل على هذا الجوار ، على هذا الموقف الذي يسعى إليه كثير من المسلمين ، لم يكن بالحرم غير القليل من الجند ، عدنا إلى البيت ،

---

[1] ـ الاشنان : نوع منا الأعشاب البرية تستخدم كصابون .

كان التعب بادياً عليه ، تشع من عينيه ابتسامة الرضا ، كان يوصيني بالعناية بستي ودادا حوا التي حملت المسرجة أمامنا لتنير لنا الدهليز ، أعجزه التعب أن يصعد إلى المجلس العلوي ، جلس في المقعد وأتيت له بفراش ، تمدد عليه ، نزلت ستي وعاتبته على المجهود الكبير الذي بذله في الذهاب إلى الحرم ، ابتسم لها ولم يناقشها في عتابها ، بصعوبة بالغة أدى صلاة العشاء ، عاد إلى فراشه ، تحدث مع ستي عن أيام شبابهما .. كيف أن أبيها رفض تزويجه لأنه شاب فقير من المهاجرين ولا يُعرف أهله ، لكنه وافق أخيراً بعد شفاعة الشيخ محمد الصادق الشنقيطي وبعض الوجهاء .. كيف كانت فرحتهم كبيرة بابنهم الأول عبدالسلام ، بعد الحديث طلب المسامحة من ستي عن أي خطأ أو تقصير ، سامحته ستي بين تعجبها وذهولها ، فهي لا تضمر له غير الحب والود ، ناولته ستي كِسرة خبز .. شرب بعدها الماء وخلد إلى النوم .

قضيت الليل إلى جواره .. كنت أراقب صدره يرتفع وينخفض لأتأكد أنه لم يزل حياً .. كنت أغفو قليلاً وأصحو وألقي نظرة عليه ، حتى أذن الفجر ، فرحت كثيراً .. معذرة يا سيدي .. رؤياك لم تصدق هذه المرة ، مضى الثلاثاء .. مضى العشاء وأنت لم تزل حياً ، نعم يا سيدي ابق معنا ، يا رب أطل عمره حتى ننعم بصحبته ،

أيقظته .. ليست عادته أن ينام للفجر .. كان دوماً حريصاً على قيام الليل ، بعدما توضأ وصلى الفجر .. جاءت ستي بعد صلاتها وجلست بجواره .. ألقت عليه السلام وتحية الصباح .. سألته عن صحته وكيف هو بعد التعب الذي قاسى منه في ذهابه للحرم .. طمأنها .. وأعاد عليها طلب السماح .. زاد تعجبها وهو يلقي عليها السلام وينطق بالشهادتين ويغمض عينيه وابتسامة رائعة على شفتيه .

نادته ستي ، هزت كتفيه ، تأملت حركة صدره ، لكن هو الموت قد فرد أجنحته وطار بروح سيدي ، حينها شرعت ستي بالبكاء ، ناديت دادا حوى لتكن مع ستي وتهدئ من روعها .. جريت إلى نجيب بك أخبره ،

أرسل معي أربعة من الجند لمساعدتي بعدما ترحم على سيدي وقرأ عليه الفاتحة ، في البيت قمنا بغسل سيدي وحمدت الله أن أحد الجند خبير بغسل الموتى ، لففناه بالكفن ووضعنا الحنوط ، ورششت عليه ماء الورد الذي ناولتني إياه ستي ، مسحت على جسده بعطر الورد ، وفرشنا له في الديوان .. طلبتُ من الجند الجلوس على دكة الدهليز .

دخلت ستي عليه ، كانت غارقة في دمعها وحزنها وألمها ، أخذت المصحف الكبير وشرعت تعيد قراءة يس كلما انتهت منها ، وبين الحين والآخر تكشف عنه الغطاء وتودعه نظراتها ، كان وجهه قد ازداد بياضاً ونوراً روحانياً يشع منه وعلى شفتيه تلك الابتسامة الرائعة التي تقول أنه التقى بأحباب قد اشتاق إليهم طويلاً .

قبل ساعة من آذان الظهر حملنا سيدي إلى الحرم ودخلنا من باب الرحمة ، وضعناه بالروضة الشريفة وصلينا عليه بعد أن أدينا صلاة الظهر ، شعرت أن جميع الجند حضروا من مواقعهم ، بل هناك أناس كثر لا أعرفهم ولم تقع عيني عليهم قبل ذلك ، حملناه إلى البقيع ، أجزم أننا لم نكن نحمله ، بل ملائكة تحمله معنا أو عنا ، كان خفيفاً ويسرع إلى مكان دفنه متعجلاً لقاء ربه ، بعدها أسلمت نفسي للبكاء ، سأفتقدك يا سيدي ، سأفتقد ذلك القمر المختبئ بين ثنايا وجهك ، سأفتقد هذا الإيمان الذي يتجسد فيك وكان يعيش بيننا .



شهر مضى على وفاة سيدي عبدالله .. أصبحت ستي تلازم المجلس العلوي .. تجلس بجوار الروشان ، تبكي أحياناً وتسرح كثيراً .. أنزل الله سكينة عجيبة على قلبها ، تقول كلنا سيأتينا الموت ، وما دام ذلك النور كسا وجهه عند موته ، فهو في الجنة بإذن الله ، تظل ساعات تقرأ في مصحف سيدي الكبير ، اليوم تذكرتْ سيدي كمال ، كان يحنو عليها كثيراً ، ربما احتاجت لشيء فتحجم عن طلبه مني أو من أبي وتطلبه من سيدي كمال ، كان يجلس إليها وتفيض معه بالحديث عن طفولتها وشبابها وشظف العيش القديم ..اليوم كان حديثها معي عن هذه السنوات قبل أن يأتي فخري باشا .. عمّ فيها الرخاء ، وكثر الناس الذين يتوافدون على المدينة من كل مكان ، جرت الأموال في أيدي الجميع ، حقيقة كان الوابور يا منصور نعمة عظيمة ، زادت تجارة أبيك .. زادت الأموال وأصناف الطعام التي تأتي من الشام وفلسطين ، زاد سفر الأهالي .. ها هو القطار يا ستي عاد نقمة علينا .. بعدما كان يملؤ المدينة بالبشر ، عاد فأخلاها من البشر .

كان اعتقال وترحيل سيدي كمال قاسياً عليها.. دوماً تذكر المثل « من حلاوة لسانه وريقه ،، أصبح الكل صديقه » حين يأتي ذكره ، بعد رحيله توالت النكبات على بيتنا آخرها وفاة سيدي عبدالله وهذا الجوع الذي أنهكها وجعلها تكبر عقدين من الزمان ، غاضت ابتسامتها وبشاشتها . أصبحتُ بعد وفاة سيدي ألازم البيت أكثر وأجلس إلى جوارها ، لذا اعتذرت لعيسى عن الذهاب معه للعنبرية لحضور تنفيذ حكم الإعدام بأفراد خلية سرية .

فقد انتشر فرار الجند من الخدمة العسكرية ، وجبهات القتال تتناقص منهم كل يوم ، كان يُظن السبب قسوة الضباط أو خوفاً من زيادة أمد الحصار فلا يستطيعون العودة إلى أوطانهم ، لكن بعد البحث

والاستقصاء تبين أن السبب خلية سرية فيها بعض الأهالي يحثون الجند على الفرار وترك مواقع الخدمة . تم التحقيق مع أفراد هذه الخلية وثبت إدانتهم بخيانة الدين والتخلي عن العهد بالدفاع عن المرقد الشريف والمدينة المنورة ، وكانت عقوبتهم الإعدام .
هروب الجند يعني انهيار معنوياتهم ، على أي شيء أصبحت تراهن يا فخري باشا ؟ فالشريف أحكم الحصار والقطار توقف ونفاد الطعام أمر مؤكد ، بل إن نقص الطعام أضعف مناعة الجند وباتوا ينهارون صرعى بسبب حمى انتشرت بينهم .
حاولت الحديث مع ستي لكنها عاكفة على القرآن ، خرجت إلى الحوش ، سقيت شجرة النبق ، ودخلت إلى حجرة المقعد ، تذكرت بدرية وارتباكها حين اقتحمتُ عليها المقعد أثناء وقوفها مع كوثر ، وتذكرت حين أصابتني حمى شديدة ، كانت تعاودني في ساعات معينة من اليوم ، وتفارقني حين يبدأ جسمي بالتعرق الشديد ، أحضر والدي الحكيم سهل الجبيري واكتويت في رأسي ، لكنها ظلت لا تفارقني هذه الحمى أبداً وشعر الجميع باليأس، كنت أدخل في هلوسة وأحاديث لا أعيها .. يخبرونني عنها حين أفيق ، في أحد الأيام شعرت أن حرارتي قد زادت كثيراً ، وأمي تكثر من الأغطية على جسمي ، لا أدري ما حدث بعدها ، لكن أفقت وجسمي مبلل بالماء ، يبدو أن العرق خرج بغزارة ، انتبهت لصوت بدرية :
ـ لا بأس عليك يا منصور ، أكلني القلق عليك يا منصور ، كن قوياً على المرض ، ربنا يشفيك يا منصور .
كان صوتها ماء بارد يهزم سخونتي ، شراباً يجري مع دمي ليمنحني القوة والصلابة ، وجهها الباكي قمر تنبه فجأة لغزارة المطر ، ظننتها هلوسة من هلوسات الحمى ، فلا يعقل أن تكون فتاة كبدرية في غرفة بيتنا مع شاب غير محرم لها ، عطست .. قرصت يدي اليسرى .. كل الدلائل تدل على أني في وعي تام ، دخلت كوثر وتعجلت بدرية في

الخروج قبل أن ينتبه أحد ، يبدو أني كنت في حالة يرثى لها وأن الجميع توقع موتي ، فالملاريا منتشرة وتحصد العشرات ، شكرت لكوثر صنيعها هذا ، شفيت بعدها ، علمت حينها أننا نتداوى بالكي والأعشاب .. لكن الحب أقوى أدويتنا ، يا لروعتك يا كوثر .. ما أشد حبي لك .. ما أشد فقدي لك ... لم أسمع أبدا بيتيم الأخت ، لكن بفقدك أشعر أني يتيم .
عاد عيسى من العنبرية ، وصف لي مشهد الإعدام .. سيق المتهمون إلى الساحة الملاصقة لمحطة السكة الحديد ، أيديهم مقيدة إلى الخلف ، أعينهم مغطاة بشريط قماشي ، ذكّرهم الشيخ بالشهادتين ، كان الخوف والرعب بادياً عليهم ، بل إن أحدهم أصابته هستيريا وبدأ بالصراخ لكن الجند أوثقوا فمه ، وبعد تلاوة بيان الإعدام ، أُطلق الرصاص على رؤوسهم ، جمع غفير من الجند والأهالي كان حاضراً ، ومن المؤكد أن فخري تعمد جمع أكبر عدد من الجند ليكون هذا القصاص عبرة لهم .
اليوم أخبرتني دادا حوا بقرب نفاد أقراص الخبز .. لن يكفي سوى أيام قليلة ، أف لك يا دادا .. من أين لي بالطعام ؟ .
في الصباح أكلت كسرة خبز وأبقيتها في فمي طويلا .. خرجت لا أدري أين أمضي .. صحبت معي سكيناً حادة .. لعلي أجد قطاً أو كلباً أذبحه وآتي بلحمه .. سرت في الأزقة .. مررت على الخرائب التي أعرفها .. اقتربت من أسوار المزارع القريبة التي يحرسها الجند جيدا .. فرحت كثيرا وأنا أسمع مواء قط .. كان الإعياء يفترسني .. السير بات صعباً وأخشى السقوط من الوهن .. مشيت إلى مصدر الصوت .. وجريت وراء القط .. تتبعته طويلا .. أكاد يغمى عليّ .. أخيراً تسور القط أحد أسوار مزرعة واختفى داخلها .. عدت إلى البيت .. بالكاد أستطيع المشي .. حين دخلت .. كان الإعياء يمنعني من الكلام .. أشرت لدادا حوا أن تأتيني بكأس ماء وكسرة خبز .. لا أدري ما حدث بعدها .. فقدت وعيي .. وصحوت وكسرة الخبز في فمي .. ودادا حوى بقربي

تبكي وتنتحب .. لابد أنها أيقنت موتي .. حمدت الله حين رأتني أفتح عيني وأستعيد وعيي .
زارني عيسى في العصر .. هاله منظري وبعدما شرحت له السبب . وعدني عيسى أن يتدبر الأمر ، بعد يومين نفد الطعام تماماً .. كانت ستي لا تستطيع الوقوف من الجوع .. تحرص على نطق الشهادة في كل حين .. خوفاً من مفاجأة الموت لها .. لا يبين صوتها وكانت دادا حوا تساعدها في الوضوء والمشي لمكان صلاتها وجلوسها .. أيقنا جميعنا بالموت .. وكنا نترقب تلك الساعة التي تنقلنا إلى آخرتنا .
قبل المغرب .. جاء عيسى .. طرق الباب وفتحت له دادا حوا .. كان الجوع يجلسني .. خرجت إليه بصعوبة .. ناولني قطعة لحم كبيرة لعلها تزن عشرة كيلوجرامات تعود لخيل نافق من خيول الضباط الأتراك ، رموه الجند خلف السور لكن خمسة من الجند ومنهم عيسى علم بالأمر .. خرجوا واقتسموا لحم الخيل وكان ما أحضره لي عيسى هو القسم الاكبر من نصيبه ، أخبرني أن بقية الجند باعوا نصيبهم بأغلى الأثمان ، بل أعطاني عيسى أيضاً كمية قليلة من التمر ، يقول إن فخري زاد من توزيع التمر لدخول شهر رمضان قريباً .
ناولت قطعة اللحم لدادا حوا ، أفهمتُ ستي أنها لخيل هزيل خُشى عليه من الموت فقام الجند بذبحه وتوزيع لحمه ، خفت أن أقول الحقيقة فتعافه نفسها وتمتنع عن أكله ، قامت دادا حوا سريعاً بتقطيعه لتحويله إلى لحم مجفف (قديد) .
من يصدق يا بدرية أن بيت عبدالسلام القوصي ، الرجل المعروف بثرائه يأكلون الجيف ، يأكلون لحم حصان ميت ويعتبرونه غذاء مترفاً ، أخاف أن تتهمي ذائقتي يا بدرية حين أقول لك كم هو لذيذ ، بل له نكهة ليل يحييه قمر يغني ويرقص ، إن للجوع يا بدرية اعتبارات كثيرة ، إنني أنتظر هذا اللحم بفارغ الصبر للذته .

كان إفطارنا في رمضان لكل منا حبة تمر وشوربة تسبح فيها فتات من اللحم، أما السحور فنكتفي بالماء ، كنا نعتبرها وجبة فاخرة لم ينلها إلا القليل ، لقد بلغني أن فخري باشا عمد إلى أكل الجراد كتعويض عن اللحم ، وأجبر كبار ضباطه على أكله ، بعضهم امتدح الجراد المقلي وبعضهم امتدحه كسلطة بعصير الليمون وزيت الزيتون ، بل طلب فخري من جنده جمع الجراد وتقديمه له على سبيل الهدية . هكذا وصل الحال وقد أصبح الحصار خانقاً ، حتى المؤن التي كان يبعث بها ابن رشيد من حائل قد توقفت ، وبدا أن الاستسلام واقع لا محالة .

حين يأتي رمضان أتذكر سيدي كمال كثيراً ، قد يكون السبب إمامته للمصلين في التراويح ، كان دوماً يرافق أصدقاءه في شهور الصيف لإحدى مزارع المدينة ، قبل سنوات استأجروا دكة مزرعة ماجد هاشم خارج باب الجمعة ، كانوا يقضون وقتاً طويلاً في مناقشة أحد كتب الأدب أو مناقشة معاني قصيدة من قصائد المتنبي ، بينما كنت أنا وأصدقائي نستأجر بركة المزرعة ونقضي سحابة يومنا في السباحة كلما اشتد الحر ، لا أدري ما صنعت الأقدار بسيدي كمال ، لكن يطمئنني وجوده في تركيا ، أي بعيداً عن الجوع والحرب ، لذا فأنا أشعر أنه بخير ، وأنه لو كتبت لي الحياة ونجوت من هذا الجوع وانتهى الحصار على خير سألتقيه بإذن الله .



تمر الأيام ولا يبدو لما نحن فيه نهاية ، بالأمس كان عيسى يائساً .. حزيناً ، هو يرى حتمية السقوط ، لكن متى ؟ أخبرني عن كتيبة الإخوان التابعة لابن سعود في الرياض .. تعاهد أعضاؤها على فك الحصار ، هم يروون في تصرف الشريف حسين خيانة لخليفة المسلمين بل يعتبرونه وزمرته كفرة مارقين يجب محاربتهم والتضحية بالنفس والمال في سبيل القضاء على فتنته ، عيسى يرى عدم قدرة هذه الكتيبة على عمل شيء ، فالشريف حسين وبمساعدة الإنجليز أصبح يمتلك أسلحة متطورة ومدافع ويسيطر بها على جميع المناطق الممتدة حول المدينة لذلك ففرصة وصولهم وفك الحصار ليس بالأمر الهين ، بل إن الأمر بلغ بفخري أن بعث برسائل استغاثة لقادة حامية درعا ومعان وعمان ودمشق والأستانة إلا أنهم لم يحركوا ساكناً ، وتركوه وحده يقاوم هذا الحصار مقاومة الرجال .

إن السقوط يعني الهزيمة ، لكنه بعد كل هذا الحصار يعني المقاومة ببطولة حتى النهاية .. يعني الهزيمة بشرف ، يعني غروب الشمس خلف الجبل بكل جمال وبهاء .

انضم عيسى إلى دوريات الحراسة حول القلعة بعد انتشار السرقة والقتل .. صدر نظام يمنع التجول بعد الظهر حتى على الجنود من غير دوريات الحراسة ، لعل هذه الدوريات تنجح في حفظ الأمن لكن هل تنجح في انقاذ المدينة من لحظة الاستسلام ، فلم يبق لدى الجند غير معنويات منهارة وبعض التمر .

جلست بجوار ستي وهي تقرأ القرآن ، بعد انتهاء قراءتها سألتني عن المدينة وأحوالها ، أوجزت لها الأخبار ، الجوع الذي يفتك بمن بقى .. يأس الجنود من النصر ، ولم أتعرض لاحتمال الاستسلام ، فهي ترى هزيمة جنود السلطان أمراً مستحيلاً ، فهو من هزم الكفار ووحد بلاد المسلمين ، وحين أذكر الشريف حسين وتنامي قوته تقول :

ـ يا ولدي يا منصور« بيضة ما تداقش حجر » .
سألتها عن سيدي عبدالله وحياتها معه ..قصدت بسؤالي الخروج من نقاش عقيم والتخفيف من وطأة الأحزان ، لاحت ابتسامة على وجهها وبدأت بالحديث :
ـ رحمه الله يا منصور ، كان يرى الدنيا مثل قشرة موز لابد أن تُرمى بعيداً فلا يتعثر بها أحد ، أو كالحصى لا منفعة له غير أن يُداس بالأقدام ، كنت في بداية زواجنا أتمنى لو كان لنا بيت كبير بنافورة في وسطه وبه حديقة جميلة مثل تلك البيوت التي أسمع عن بعضها في العنبرية وبعضها في مقعد بني حسين ، كان لديه محل يصنع فيه الفخار ويبيعه ويحرص على الجلوس فيه حتى العصر ، لا يزيد عن ذلك أبداً ، ينصرف بعدها إلى الحرم ، ينضم لحلقات الذكر والعلم وربما ذهب إلى الزاوية بعد العشاء لحضور ختمة قرآن أو مولد .. يقوم قبل الفجر بساعة للتهجد والدعاء ويدرك دوماً الصف الأول في الحرم ، كنت أتذمر أحياناً من قلة المال في يده، حاولت مراراً أن أقنعه بالتأخر في المحل حتى العشاء ، لعل ربحه يزيد وتتحسن أحوالنا ، لكنه كان يضحك ويقول :
ـ يا سلام عليك يا فتو ، « الله من محبته في عبيده ، جعل العمر والرزق بيده » .
بعد سنوات بدأت تتضح اشراقاته الروحية ، ومنحه الله أحلاماً لا تخطئ ، فكل حدث هام يحدث لنا يراه في ليلته ، ودعني أذكر لك هذه القصة يا منصور :
ـ في صباح أحد الأيام وقد مضت ثلاث سنوات على زواجنا ، أخذ يذكرني بالاستسلام لقضاء الله فينا ، والرضى بما كتب الله هو طبع المؤمن الحق ، والإيمان لا يتجلى إلا في المصائب والشدائد .. فمرض والدي رحمة من الله يخفف بها ذنبه ويطهره من آثامه ليليق به لقاء ربه

، كنت أتعجب من تذكيره لي بكل هذا في ذلك الصباح ، لكن طرق الباب وإبلاغ أخي سالم لي بوفاة أبي أزال عجبي .
بعدها تعودت يا منصور أن أراه وقد استيقظ متهلل الوجه ، ضاحكاً تظهر الفرحة في نبرات صوته وفي عينيه فأعلم أنه رأى رسولنا وحبيبنا عليه الصلاة والسلام ، فإن كان مهموماً منكباً على مسبحته ، يكثر من قراءة القرآن فذلك دلالة غياب رسولنا عنه في ليلته ويظل هكذا حتى يراه ويعود البشر إلى وجهه . بعدها التزم الطريقة السنوسية وأصبح يتردد دوماً على زاويتهم في الكاتبية ووهبه الله القدرة على الكشف ، فربما أجاب عما في خاطرنا دون إفصاح منا .
ذات مرة سافر أبوك إلى الحج ، يومها استيقظ سيدك وأخبرنا أن أباك مرض في مكة ثلاثة أيام ، وأنه شفى الآن ، وحين عاد أبوك أخبر بصدق ذلك .
بعدها أصبحت لا أناقشه في أحوال عمله ، وأسلمت أمري لله ، فلا أعارض عزوفه عن الدنيا وضيق ذات الحال ، حتى شاء الله وفتحت لنا الدنيا حين اتجه أبوك إلى التجارة ، فامتلكنا هذا البيت والمزرعة التي تعرفها في العيون والمحل في سوق الحبابة .
يوم دار المنادي في الأسواق يحث الناس على السفر ، كان يستخير ربه كل ليلة في السفر ، حتى جاءني ذلك الصباح :
ـ لم يؤذن لي يا فتو .
حين مات علمت أن الله أراد أن يحقق له أمنيته بالموت في المدينة والدفن في البقيع .
كثيراً ما تخاصمنا بسبب الشيشة ، فكنت أنتظر ذهابه إلى الحرم وأدخنها ثم أطلق بخور العود والمستكة حتى لا يشم رائحتها ، كان يعرف ذلك ولكن يغض الطرف .
ظلت ستي تتحدث بأنس وسعادة زهاء ساعتين ، كان البِشر بادياً على وجهها رغم هزالها الشديد .. حديثها يكسوه الحب ، كأنما هي تصغر مع

حديثها سنوات ، تريد لو تستعيد كل لحظات حياتها مع سيدي ، تريد أن توقظه من موته ليكون معها ولو بالحديث .



يتقاسمني الجوع والفراغ .. الأول يجبرني على الجلوس للاحتفاظ بقوتي ، والثاني يحثني على الخروج والتجول ، إن الفراغ والملل تعذيب لا يطاق ، الوقت عنيد لا يمر ، الشمس تعلمت أن تجبر الظل على التمدد لساعات طويلة ، خرجت من البيت .. قطعت شارع الساحة إلى الحماطة ونزلت إلى ميدان المناخة ، اقتربت من القلعة ، كنت سارحاً في أفكاري ، الطرقات شرايين رجل ميت .. المنازل كلمات متراصة تنفع في مجالس العزاء ، أثناء تأملي لحالنا سمعت صوت انفجار قنبلة ، ابتعدت سريعاً .. عدت إلى البيت ، أوضح لي عيسى في اليوم التالي أن المتمردين نجحوا في التسلل إلى القلعة وزرع قنبلة لكن انفجارها لم يحدث ضرراً .

رغم أن هذه الحادثة مرت بسلام لكنها دلت على مقدرة الأعداء على حصار المدينة .. على اختراق سورها .. على الوصول إلى قلعتها، على استماتتهم في هزيمة الحامية التركية في عقر دارها ، أجزم أنهم على يقين بعناد فخري باشا .. بصلابته .. بامتناعه عن التسليم مهما يكن ، كل من يشاهد المشاريع الكبيرة التي يقيمها يدرك هذا .

فقد أنشأ كتيبة الزراعة للاهتمام بالمزارع حول المدينة وزيادة محصولها ، بل قام بتجربة زراعة الذرة والشعير بكميات كبيرة تكفي الجند .. قام بشق الطرق وبدأ في مشروع إنشاء طريق يمتد من باب قباء حتى مسجد قباء أي بطول ٤ كيلومتر تقريباً ، قام بالتشجير حول الحرم والمدرسة المحمودية المحاذية لباب الرحمة .

لكن في ذات الوقت لن يغيب عن جيش الشريف حسين الحمى العجيبة التي انتشرت بين الجند وتقضي على مئة من الجند يومياً ، تبدأ هذه الحمى بحرارة في الجسم يعقبها آلام في الرأس ثم الوفاة ، كما أن هناك كتائب عسكرية تشتكي من قلة الطعام وزاد عدد الجنود الذين يستأذنون

ولا يعودون، لذا قام فخري بمنع الاستئذان لأي أحد إلا في حالة الضرورة القصوى .
سألتني ستي عن أخبار المدينة وأحوالها ، لا أدري كيف قلت لها :
ـ لم يبق يا ستي غير الاستسلام ، لعلنا نرتاح مما نحن فيه .
ـ استغفر الله يا منصور ، جنود السلطان لن يُهزموا بإذن الله ، ربنا يريد أن يختبر صبرهم .
استأذنتها وصعدت إلى غرفة المؤخر ، كنت أخبئ رسائل بدرية في أحد كتب سيدي كمال ، وذلك بعد رحيله ، أعدت قراءة تلك الرسالة التي ناولتني إياها في المزرعة .
بسم الله الرحمن الرحيم
حبيبي منصور
بالأمس يا منصور حين أدت الشمس صلاة العصر في وسط القاعة ولملمت سجادتها ومضت ، نادتني أمي :
ـ بنتي يا بدرية ، بعد الغد نذهب إن شاء الله إلى خالتك خديجة في المزرعة ، ونأخذ معنا معمولاً وغريبة .
شعرت أن قلبي ينتفخ وينتفخ حتى احتواني كلي ، خشيت أن تلمح أمي شدة فرحتي .. غبت عن وجهها ، البيت أصبح مرايا لك ، ضحكتك تدغدغ الجدار وتفوح منه رائحة المطر ، صوتك يبني أعشاشه في الهواء ، النافذة تمسك بثوبك وتناغي بياضه ، صعدتُ إلى السطح ونثرت كمية أكبر من الحب للدجاج ، أطلقتُ البخور وملأت مرشة ماء الورد وكأن هناك ضيوفاً قادمين ، ولا تسألني لماذا ِأصنع كل هذا ؟ .. أصبحت أحتاج لوقت أطول في شرب الماء ، في الأكل ، في ترتيب غرفة الديوان .
كنت أُمسك الدنيا في يدي وأحشوها في حبة طماطم رائعة الاستدارة وألتهمها بلذة ونشوة ، أو كأني ورد مديني رائع ، تلتف أوراقه الوردية على بعضها البعض لتكتم فرحتها وسعادتها .

منذ زمن بعيد لم نلتق ، كنت أتلصص على حديث أمي لعلي أجد فرصة أُبدي فيها رغبة زيارتكم دون أن تنتبه ، .. أقف أمام خالد طويلاً لعله يتذكر أن يطلب مني الانتباه لطرق الباب لوجود موعد بينك وبينه ، فإن خاب رجائي هربت إلى السطح ، لا رغبة لي بالحديث مع أحد ، وأمكث أراقب الدجاج وأتلهى بحركاتهم ، إنها كائنات نقية ، سرها كعلانيتها ، تمارس حياتها كما فطرها الله ، سيان إن كانت وحدها أو مئة عين تراقبها ، أظل أعاتبك على هذا التأخير وأعاتبك لأنك لم تبعث لي برسالة وأعاتبك لأنك جعلتني أحبك كل هذا الحب .

حين تغيب يا منصور، يصبح روشان بيتنا عيوناً صغيرة تترقبك، والباب يتيماً يتلهف للمسة حنان من يدك، والمساء مطروداً عن مائدة القمر .

لطالما حرصت يا منصور على عمل ضفيرتين لشعري ، تعودت أثناء ضفرهما أن أفكر فيك .. وأستحضر كل لقاءاتنا الماضية .. أصبحت عادة عندي وتتهمني أمي أن لا عمل لي سوى ضفائري .

أصبحت يا منصور لا يعزيني عن غيابك مثل حديثك عن مستقبلنا ، تريد أن يكون لك محلٌ مستقلٌ في سوق الحبابة ، وبيتٌ في العنبرية ننتقل إليه بعد أن يكبر أبناؤنا ويضيق بهم بيت أبيك في الساحة ، أن توصي الشيخ عبدالمجيد في كُتاب القبة على أولادنا ، أن تمنعهم من القشاع والمزمار فلا يليق بأبناء منصور أفندي أن يلعبوها .. عليهم أن يكونوا مشايخ وتجاراً .

أتعرف يا منصور ، أصبحتُ بارعة في المنسج ، النساء يقصدنني لتطريز محرمة الرأس والمدورة ، بل أن بعضهن يدفعن كثيرا لتطريز فستان كامل ، وتفوقت على أختي فريال .

لعلك تتعجب أن أكتب رسالة لك ونحن سنلتقي في المزرعة ، إن الخجل والحياء يتغشاني حين ألقاك ، يقف سجان على لساني يمنعني البوح بما

في قلبي ، لذا أكتب لك هنا ، ما أجمل أن أتخيل حروفي وهي تتراقص تحت عينيك .

ربي يحميك

بدرية

٢١/ رجب / ١٣٣٣من الهجرة النبوية



في الحرب يصبح الموت أقل ألماً .. أقل فجيعة ، لن تكون للمحارب أحلامٌ جديدة ، بل يعيش أحلاماً قديمة إن أحب أن يهرب من قسوة الحرب ، يرى الجلوس لقراءة الذاكرة ترفاً .. ليس هذا مكانه ، هكذا يصنع بنا الجوع ، يكون الموت هو الأصل والحياة احتمال .

بالأمس تدبر لنا عيسى كمية من التمر ، دفعت ثلاثة جنيهات ثمناً لها ، فاللحم اقترب من النفاد كما أعلنت دادا حوا ، كان نصيب كل منا ست تمرات في اليوم مع شوربة اللحم ، كنت أضع التمرة في فمي طويلاً وأبقي النوى قدر استطاعتي ، كان ذلك يبعد عنا شبح الموت .

شكرا لك يا عيسى .. شكرا لك يا صديقي ، كلما انتهى الطعام وجدت عندك الحل ، باي يد أجازيك وأنت تقف معي وتزيح عني الوحدة والوحشة ، إن الصديق الوفي كنز .. لن تحصل عليه مهما سعيت لكن الله يهبه لمن يشاء ، زارني بعد خروجه من صلاة العشاء .. أصبح حريصا على الصلاة في الحرم ، ففخري يحث الجنود على الجلوس في الروضة وقراءة القرآن ، كان يقول لهم :

ـ إن الله منحنا روضة من رياض الجنة ، فلِمَ لا ننعم بهذه الحظوة التي لم يحظ بها غيرنا ؟! ، إن الله كريم معنا حين اختارنا لنكون في جوار رسولنا العظيم عليه الصلاة والسلام ومنحنا شرف الدفاع عن مدينته .

أخبرني عيسى أن الجند ارتفعت معنوياتهم بعدها وباتوا أكثر إصراراً وعزيمة على الصبر حتى الموت .

بعد أيام قليلة يأتي موعد غسل الحجرة الشريفة في الرابع عشر من ذي القعدة ، تزايد عدد الجند والضباط حول الحرم ، استدعاهم فخري لكي يحظوا بهذا الشرف العظيم ، الذي لا يناله في العادة غير الأغوات والأمراء والسلاطين ، باركت لعيسى هذه الفرصة ، ولكنه فاجأني بقوله:

ـ منصور ، إني متسخ بذنوبي ، أجر ورائي أكواماً من الخطايا ، كثيراً ما تكاسلت عن الصلاة ، لا أريد أن أحدثك بعيوبي وقد سترها الله ، كيف أطأ بقذارتي حجرة نبينا العظيم عليه الصلاة والسلام ، كيف أقترب منه فلا يكون بيني وبينه غير متر ورائحة ذنوبي تفوح مني ، إن تقصيري في اتباع سنته لا يخفي عليك ، لن أجرؤ على ذلك أبداً .
في إحدى السنوات يا منصور قدم أحد أقربائنا من نيجيريا ، عُرف بصلاحه واستقامته ، دخل من باب السلام وحين شاهد الحجرة توقف ، لم تحمله قدماه ، الهيبة أعجزته عن السير يا منصور ، أقام شهراً بالمدينة ، يدخل من باب السلام كل فرض من فروض الصلاة ويلقي السلام على رسولنا العظيم عليه أفضل الصلاة والسلام وهو يبكي وتظل عينه معلقة على الحجرة .
لم أكن أعرف هذا الحس الإيماني العميق في عيسى ، هذه المصارحة مع النفس ومعرفة قدرها إلا اليوم ، نعم .. عرفته شهماً .. شجاعاً ، فقبل سنوات أقمنا مزمار في المناخة ، أُشعلت النار، استعد الصفان ، تهادى المكان بطرقات العِدة .. بدأ الزومال ينشد الأهازيج المعروفة ، أثناء اللعب جاء شباب من حارة بعيدة ، كونوا صفاً وحدهم ، وصدح الزومال:
ـ حبا .. حبا .. باللي جا .. يا مرحبا .
يبدو أنهم كانوا ينوون شراً ، فحين نزلتُ مع عيسى إلى ميدان اللعب لنؤدي دورة الجوش[1] بالأصول المعروفة ، دخل أحد الشباب الأغراب إلى الميدان مما يعتبر إهانة لمن هم في الميدان ، قام عيسى بضربه على الرأس ضربة احترافية تؤلم ولا تقتل ، نزل رفقاؤه يريدون الثأر لصاحبهم ، وشاع الهرج مما أجبر كبارية الصفوف إلى التدخل وإيقاف اللعب قبل أن يسيل دم أو تزهق روح .

[1] ـ الجوش : دوران لاعبين من الصف حول النار وإظهار المهارة في الرقص مع نغمات الطبول وأهازيج الزومال .

في اليوم التالي لغسل الحجرة أخبرني عيسى أنه سيشارك في تنظيف قناديل الروضة الشريفة ، بل وسيقوم بكنس سجاد الروضة ، فذلك شرف لن يدعه يفر منه .

حين أخبرت ستي عن امتناع عيسى عن غسل الحجرة قالت :

ـ حين زار الخديوي عباس حلمى الثاني المدينة ، طلب علي الركابي محافظ المدينة من سيدك مرافقة الخديوي في أداء شرف خدمة المقصورة الشريفة ، كان على من يقوم بهذه الخدمة أن يلتزم بأوامر شيخ الأغوات ، فيلبس اللباس الأبيض وعليه حزام يلتف في وسط الجسم ويلبس عمة خاصة ، كان ذلك لبس من يتشرف بالخدمة ، ويتسابق عليها الأمراء والسلاطين ، يدخلون قبل المغرب إلى الحجرة ويقومون بإسراج القناديل ويطفؤونها في الصباح ، كان سيدك يستحم ويرش ماء الورد على ملابسه ويتبخر بالعود ، كان يطلب مني فرش سجاجيد الصلاة من خارج دورة الماء وحتى مجلسه للبس الجورب والحذاء ، كل ذلك ليضمن طهارة ملابسه ، كان يبكي ويقول : يا رسول الله لست مستحقاً للوقوف قريباً منك ، ولكن حبي لك يجعلني أجرؤ على ذلك .

كان صوت ستي واهناً وخافتاً ، فالجوع لم يبق منها غير عظام ، اتفقت مع دادا حوا أن تزيد حصة ستي من التمر لعلها تستعيد صحتها ، وإن كان التمر لن يكفي طويلاً .

جاء العيد .. عيد الأضحى ، كان الجند ومن تبقى من أهل المدينة يملؤون الروضة الشريفة ، كان اليأس والإحباط بادياً على الجميع ..الجند زاد فرارهم من مواقعهم ، وعشرات غيرهم يموتون بالحمى ، الطعام قلّ كثيراً ، أما الخيول والبهائم لم يبق منها غير القليل .. فلا يوجد طعام لها ، كان الاستسلام هو المتبقي ، لكن من يقنع الصخرة القابعة في رأس فخري باشا بذلك .

(-٤٠-)

كان سقوط دمشق في يد الشريف حسين صدمة لم يتوقعها أحد ، بل أن جيشه استطاع طرد الأتراك من معان وعمان ، كان فخري حريصاً على إخفاء هذه الأخبار ، وكنت أقول ربما هي شائعات يبثها المندسون بين الجند لزرع الوهن في نفوسهم ، لكن أحد أصدقاء عيسى ويعمل في محطة اللاسلكي وهي الوسيلة الوحيدة لمعرفة ما يجري حولنا ، أكد له هذه الأخبار .

إن الجيش الذي سيطر على أراضي مكة وجدة والطائف ومن شمال المدينة وحتى دمشق ، عجز عن المدينة ، أي صمود هذا يا فخري ، أي وسام تضعه على صدرك ويكتبه لك التاريخ بماء الذهب ، ولكن على أي شيء تراهن الآن يا فخري ؟ الشريف أحاط بك من كل جانب ، أصبحت المدينة كقطعة خشب في طريق السيل ، سيأتي يوماً ويجرفها ، أصبحت قطعة معزولة عن هذا العالم الكبير ، كرة معلقة في الفضاء ، أنت تجعل مدينتنا تنتحر ببطء ، جنودك يموتون كل يوم ، إمدادات العتاد توقفت ، الطعام لن يكفي وليس هناك أحد سينقذك ، فمن كنت تعول عليهم إنقاذك هُزموا .. خسروا المعركة يا فخري .

كنت أقول لعيسى ، لن يحتاج الشريف أن يهاجم المدينة ، هو يتركها زمناً لتموت ببطء ، تستسلم بذل ، كنت لا أخفي إعجابي بفخري ، بثباته ، برجولته ، إن لعبة القشاع علمتنا أن لا نستسلم للخصم بسرعة ، أن نتعرف على نقاط ضعفه ، أن نراوغ ونتفادى ضربة العصا ، كنا نعجب بأبو سعدية من شباب زقاق الطيار ، كان لا يجيد اللعب بالعصا ويتعرض لبعض الضربات من خصمه ، إلا أنه يصمد .. يخرج السكينة من الحزام المحيط بوسطه .. يقاوم للنهاية .. حتى يتدخل الآخرون ويوقفون اللعب ، أما اللاعب الذي ينسحب سريعاً عند تفوق خصمه ، فعليه تحمل السخرية والاستهزاء أمداً طويلاً .

أخبرتني دادا حوا بقرب نفاد التمر ، فالموجود لن يكفي سوى أيام ، دارت بي الدنيا ، فستي لن تحتمل انقطاع الطعام يوماً واحد ، بالكاد استعادت شيئاً من صحتها بعد زيادة حصتها من التمر ، لن استطيع الطلب من عيسى ، الكل أصبح يعاني من الجوع ، فخري يحتفظ بمزيد من التمر خوفا من استمرار الحصار ، أصبح نصيب الجند من الطعام لا يكفيهم ، لم يعد هناك شيء يؤكل حتى القطط والكلاب اختفت من الشوارع تماما ، ، هل سأموت أنا وستي ودادا حوا جوعاً في البيت ، يُفتح الباب بعد زمن ليجدونا جثثاً قد بدأت بالتحلل ، من أين آتي بطعام يمكن أن ينقذنا من الموت ، لا يمكننا العيش على الماء فقط .. لابد من تدبر الأمر .. ففخري لا يبدو أنه سيسلم المدينة مهما حدث ، لا يبدو في الأفق حل غير المزارع .. بعض التمر يتساقط تحت النخل ويتبقى بعضه في أعلى النخل ، ولكن كيف ؟ المزارع التي في داخل السور لا يمكن الاقتراب منها ، فالجنود الأتراك يحرسونها ولا أمل في الوصول إليها ، أما المزارع خارج السور في العوالي وقباء مثلاً ، فيصعب السير إليها وأبواب السور مغلقة ومحروسة بالجند طيلة الوقت .
لمعت في ذهني فكرة الدبول ، تلك الأنفاق التي يجري فيها الماء من العين الزرقاء في جنوب المدينة خلف مسجد قباء وتسقي جميع أحياء المدينة عبر فتحات تًسمى المناهل ، ينزل الناس إليها لأخذ الماء ، كان السقا عثمان يجلب لبيتنا الماء من منهل باب الشامي بعلبتين من الصفيح أو ما يسمى الزفة .
كدت أصرف النظر عن تلك الفكرة ، فهذه الأنفاق تكثر فيها العقارب والثعابين ، لكن ما الحل ؟ إما الموت جوعاً أو المغامرة لعلي أحصل فيها على تمر يبقينا أحياء لبعض الوقت ، عزمت على المغامرة في الغد ، بعد العشاء ، حين يخلد الجند للراحة .

في المساء كتبت رسالة إلى بدرية ، لعل شعوري باحتمال الموت في تلك الدبول جعلني أكتبها ، لا أدري ما قيمة هذه الرسائل وهل ستصل إليها أم لا ؟ ، لكنها تواسيني كثيرا في محنتي ، كتبت الرسالة وحرصت أن لا أذكر فيها الجوع والموت والحصار ، لا أريد لها أن تتألم وهي تقرؤها ، أريد أن يشع داخلها الابتسام والسلام .

الرسالة الثانية ...

بسم الله الرحمن الرحيم

حبيبتي بدرية .....

أول مرة رأيتك فيها ، كنتِ تطلين من النافذة الصغيرة للروشان ، شعرت أن قلباً آخر ولد في داخلي ، كبرتْ أنا ، لكن ذلك القلب لم يزل يتعثر حين تنظرين إليه ، يتلعثم حين يلتقيك ، وإذا عاتبته على تأخيره .. وقف مرتبكاً كصغير يقف أمام توبيخ أمه ويعد بالتوبة .

يومها ، كان الوقت عصراً ، ظلي تحتي يمتد طويلاً ، بعدما رأيتك ، مضى هو ليقضي أمور الحياة .. يجلس في محلنا بسوق الحبابة .. يرافق الأصدقاء ، وبقيت أنا حيث أنا ..... تحت الروشان .

أيامي بك كلها عيد ، أيامي تلبس كل نهار شمساً جديدة ، تزرع عند صحوي زهرة جميلة .. وفي المساء ينبت أمل رائع في هذه الحياة .

تردد ستي دوماً « المتمنى شوفة حبيبه مثل المريض المتمني شوفة طبيبه » وأنا مريض بالشوق ، أهرب منه إلى تفاصيل تافهة ، كأن أسقي شجرة النبق في الحوش أو أتفقد ما بقي من طعام ، أتخفي عن الشوق في زي رجل شغف بالقراءة ، لكني في النهاية أقع في قبضته ، ليجرني إلى ساحة الذكريات ، أسمع صوتك ينساب في المكان كأنفاس الأمهات ، يتجلى وجهك كقمر ويشع نوراً في داخلي .. ويجعلني أترقب اليوم الذي تعودين فيه إلى المدينة ونلتقي ثانية .

ثريٌ أنا بك يا بدرية ، فأنا أمتلك إطلالات الروشان ، ويوم المزرعة .. يوم المقعد .. يوم الحمى ، قبل أيام أعدتُ قراءة رسالتك في يوم المزرعة ، كنتِ تناولينني إياها ونظراتك ترسلينها في كل مكان إلا مكاني خجلاً وحياء ، فتقع دون أن تقصدي في قلبي .. كنت تقفين أمامي كحلم لا ينتهي ، كقمر سقط بين أشجار النخيل لا ليمنحها الضوء بل ليعلمها كيف تعيش وكيف تفرح . حفظك الله ورعاك

منصور

٢٨/ محرم /١٣٣٧ من الهجرة النبوية



شعوري بدنو الأجل ، جعلني أجلس بجوار ستي أطلب منها السماح ، أوهمتها برغبتي في سماع قصة لوح الخبز الذي اسقطته ، ابتسمت ستي وشرعت بالحديث :

ـ كان عمرك يا منصور في حدود الثامنة .. يصر والدك أن تأخذ طاولة العجين إلى فرن طه سمسمي وتعيدها بعد الخبز ، يريدك أن تتحمل المسؤولية مبكراً وتكون رجلاً يكسب رزقه بجده وسعيه ، كثيراً ما اعترضت أمك ورجت والدك أن يعفيك حتى تكبر ، لكن لا فائدة .. فهو عنيد ، وفي أحد الأيام سقطت منك طاولة الخبز في الشارع ، وقام أبوك بعقابك ، قمت لأبعده عنك ، لكن خيزرانة منه أصابتني بدلاً منك ، صرخت من الألم مما جعل والدك يتركك ويعتذر مني ويقبل يدي ورأسي .

ـ سامحيني يا ستي على ما سببته لك ، وعلى كل خطأ صدر مني .

ـ يا حبيبي كنت صغيراً ، وكي تطمئن .. فإني سامحتك على كل خطأ صدر منك .

هذه العبارة الأخيرة هي ما كنت أسعى إليه من هذه القصة وتفاصيلها ، وجاءت دادا حوا بكوب الماء ، طلبت منها السماح هي الأخرى ، ضحكت ستي وتابعت :-

ـ كان سيدك يقول : منصور سيكون من الصالحين ، وها هي البدايات .

أخبرت ستي أني سأزور عيسى اليوم بإذن الله ، وقد أبيت عنده إن تأخر الوقت ، فالجند أصبحوا يقبضون على كل شخص يرونه يتجول بعد الظهيرة .

ذهبت إلى الحرم .. بقيت طويلاً أمام سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .. أدعو الله النجاة مما أنا مقدم عليه .. صليت العشاء بخشوع وحضور قلب ، فلعلي لا أصلي ثانية وتكون نهايتي في هذه الدبول ، ظللت

أستغفر طويلاً ، لطالما كنت أرى في داخل كل منا إنساناً سيئاً .. سيئاً جداً .. يكذب .. يسخر .. يخون ، يرتكب وساوس لا يجوز الإفصاح عنها ، هذا الإنسان لا نراه لكنه يتمدد داخلنا كظل متسخ ، كنت أعترف أمام ربي بهذا الإنسان وأسأله أن يغفر لي كل زلاتي .

أخذت حقيبة قماشية وسرت بين الأزقة التي لا يحتمل وجود جند فيها ، وصلت إلى منهل باب الشامي ، قرأت كل الأدعية والأذكار التي تعلمتها من سيدي ، قرأت آية الكرسي والمعوذات .. بسملت ونطقت بالشهادتين ، ربطت وسطي بحبل وطرفه الآخر ثبته في جدار المنهل خوفاً من الضياع أثناء العودة في تفرعات هذه الأنفاق .

كان عليّ السير منحنياً والماء بارتفاع نصف متر تقريباً ، في كل لحظة أتوقع لدغة ثعبان أو قرصة عقرب وسط ذلك الظلام ، وفي كل لحظة أكرر عشرات الآيات والأدعية ، بدأ ظهري يؤلمني ، أتمنى لو أنصبه قليلاً ، بين مسافة وأخرى يتسلل شعاع القمر من فتحات المناهل على طول النفق ، كان نطق الشهادة لا يفارقني ، فالموت قريب .. بالأمس رأيت حلماً فسرته بنهاية حياتي ، رأيت كوثر مبتسمة تفتح لي ذراعيها لاستقبالي ، جريت إليها فرحاً ، لكن عند اقترابي منها استدارت وابتعدت عني ، فجأة ظهر سيدي عبدالله ، شكوت له جوعنا وعجزنا فكان يلقمني حجراً وراء حجر ، ثم استدار هو الأخر وابتعد عني .

كأن هذا النفق لا ينتهي ، قدماي أجهدتا من المشي الطويل في الماء ، عضلات فخذي لا تحتمل السير أكثر ، أظنني سرت لساعات ، رددت من الآيات ما يردده الصالحون في شهر كامل .

رأيت أمامي فتحة كبيرة يتسلل منها شعاع القمر ، حدست أنها ولابد أن تكون بالقرب من العوالي ، ، جريت إليها ، خرجت منها .. كانت المزارع تملأ المكان حولي ، تمددت على الأرض لالتقط أنفاسي ، ليستقيم ظهري ، لترتاح ساقي ، بعدها وعلى ضوء القمر سرت تحت النخل ، ألتقط حبات التمر المتساقطة ، ملأت الحقيبة بكمية يمكنني

حملها والعودة بها عبر النفق ، رغم فرحتي بما أحمل إلا أن التعب أنساني فرحتي ، بالكاد صعدت من فتحة المنهل في باب الشامي ، راقبت بحذر، كان الوصول إلى الحماطة همي الأكبر ، فبعدها وعبر الأزقة أستطيع الوصول إلى البيت بأمان .
تسللت إلى داخل البيت ، ارتميت على دكة الدهليز ، محاولاً ألا أوقظ أحداً ، ألقيت حقيبة التمر إلى جواري ، نمت دون أن أنتبه لنفسي ، صحوت على صوت دادا حوا ، كان الضحى قد غزا المكان ، ألقيت نظرة إلى حقيبة التمر ، حمدت الله كثيراً ، سكيفينا هذا التمر شهرين قادمين بإذن الله ، استرجعت أحداث الليلة السابقة ، لم أصدق أني نجوت ، وقلت في نفسي .
ـ لم يزل فيك يا منصور بقية عمر .
حين علم عيسى بمغامرتي تلك وصفني بالجنون ، بقلة العقل ، بالتهور ، بالانتحار .
شعرت بالرضى عن نفسي .. إن الله يريد لنا الحياة .. حتما سينتهي هذا الحصار يوماً ويعود أهلي إلى المدينة ويلتئم الشمل ، آه يا كوثر لن تكوني معهم ، غيابك سيكون غصة تتمدد لتبتلع باقي العمر .
حدثني عيسى عن انتشار الانفلونزا الأسبانية بشكل كبير بين الجند والتكارنة ، يومياً يموت ما لا يقل عن مئة وخمسين جندياً بسبب هذا المرض ، لا توجد أدوية لمعالجتهم ، كان الباشا يزيد حصة الجند من الأرز والسمن يومياً بقصد زيادة مناعتهم ، لكن بلا فائدة .
قبل صلاة الجمعة ، رأيت فخري يدخل من باب السلام متجهاً إلى الحجرة النبوية ، ما زال بطوله الفارع وخطواته الفاخرة ووجهه المرفوع كمنارة تثير إعجابي . لا أنكر هذا . وقف طويلاً أمام باب الحجرة ، رأسه منخفض ، يداه على صدره ، الأدب والخشوع يملآنه ، يبدو عليه التقوى والورع ، أخرج منديله .. كفكف دموعه ، لم أكن أريد

له البكاء ، لكن في هذا المكان وأمام رسول الله عليه الصلاة والسلام يستحسن البكاء .
اتجه إلى الروضة .. صلى ركعتين بجوار اسطوانة السيدة عائشة ، كنت على بعد خمسة صفوف عنه ، عاد للحجرة يستأذن رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام في إلقاء الخطبة ، ثم ارتقى درجات المنبر ، كلماته بدأت واضحة لكن خنقته العبرات ، الانكسار بادٍ على وجهه ، حروفه مهزومة وكأنما وصل إليها الأعداء ، أخرج منديله وكفكف دمعه ثانية ، وأكمل خطبته ، قال إنه سيقاتل هو وجنوده لآخر رمق في حياتهم ، لن يسلموا المرقد الشريف للكفار ، لن يسمحوا للشريف أن يدنس الأماكن الطاهرة بصحبة الإنجليز ، وعاد للبكاء ، ضج المسجد بالبكاء ، الجند غارقون في دموعهم وأحزانهم ، نزل من المنبر ، التف حوله بقية أهل المدينة يعانقونه ، سمعت شيخاً وقوراً يقول له .
ـ أيها التركي العظيم ، إن لم تنل شرف السكن في المدينة فأنت منا ومجاور مثلنا ، بل أنت ابن المدينة البار المحب لها والمدافع عنها وعن كرامتها وقداستها ، أينما تذهب يا باشا فإن روحك وقلبك يبقيان هنا .
رغم كرهي لفخري باشا، إلا أني أكره سقوط الأبطال، اخبرني عيسى أن فرار الجند من مواطن خدمتهم قد زاد ، بل إن القائمقام أمين بك وكيل رئاسة هيئة الأركان أصدر بياناً شاع بين الجند ، يتعجب فيه من صمود لا معنى له ، فالجنود يموتون يومياً ، والأدوية والعتاد والطعام ينفد ، والاستسلام واقع لا محالة ، بل إن أمين بك هرب برفقة من وافقه من رفقاء السلاح ومعهم أهم قطع البنادق الآلية حتى لا يُطلق النار عليهم من خلفهم اثناء فرارهم ، وتركوا أهم مواقع القلعة خالياً .. هذه الواقعة كانت طعنة قاسية لفخري باشا ، بل قاصمة للظهر .
فأهم رجاله هرب وحتماً سيتبعه آخرون ، كان فخري مشحوناً بالغيظ .. بالقهر .. بالهوان .. وبدا أنه يدخل نفق النهاية .

صورة أمي وهي تصعد بحزنها .. بألمها إلى عربة القطار لم تغادر ذاكرتي ، شوقي إليها اليوم يكاد يشعلني ناراً ، أتمنى لو أطير إليها وأراها ، أملأ عيني منها ، إننا نشتاق إلى أحبابنا لكن ما أشعر به اليوم فوق الشوق ، إنني أذوب وأذوب حتى كأني خلقت من الشوق لا من الطين .

تعالي يا أمي .. تعالي لأعانقك ولو للحظات ، رأسي مثقل بالهموم .. أريد أن أضعه على فخذك وأنت تجلسين في القاعة .. ستقول ستي حينها « الكبير لمّا يدلع .. زي الباب المخلع » ، تعالي وتربعي كأميرة على دكة الروشان .. تعالي .. سأحضر لك ما تحبين من سوق جوه المدينة .. تعالي ووبخيني على تأخري في المساء ، أشتاق للهفتك حين تسمعين عن لعبة القشاع في المناخة ، تنتظرينني ، تخافي أن أكون قد شاركت فيها ، وتقفين عند الباب ، تلتقينني .. تفتشين رأسي لعل جرحاً مختبأ خلف شعري .. تتلمسين كتفي خوفاً من ضربة عصا قد أصابته ، تعالي لأرافقك إلى البقيع نزور سيدي فاروق وقبة آل البيت وقبة زوجات نبينا أمهات المؤمنين ، وأوصلك بعدها إلى الحرم ، اشتقت إلى صوتك المؤنث بالحنان والحب ، اشتقت لخصامك مع أبي وهو يرغب بالسفر والغياب شهوراً في الهند للتعاقد على بضاعة للمحل ، اشتقت للمعمول وأنت تعجنينه وتفوح منه رائحة أنفاسك يريد أن يقبلني حين آكله ، اشتقت للغُريبة والحيسة والأرز البخاري بتلك النكهة الرائعة التي تربت على جوعي بهدوء .

ما فعلتم يا أمي بعد الحرب ، سمعت أن جيش الشريف قد احتل الشام وطرد الأتراك منها ، يا ترى عانيتم في هذه الحرب ؟ سمعتم صوت القنابل وطلقات الرصاص ، فزعت قلوبكم وجنود الشريف يدخلون

الشوارع ، من يطمئنني عليكم يا أمي ، كان سيدي يبشرني بسلامتكم بين حين وآخر ، كانت أحلامه كالوجبات التي تهدئ روحي القلقة عليكم ، هل تعرفين يا أمي .. لطالما عرفت نفسي أعشق الأشياء الشفافة .. أشعر بحنانها.. بكرمها وهي تمنحني النظر من خلالها لأرى ما وراءها، إنني أعشق الماء والهواء والضوء وسيدي عبدالله ، فرؤياه كان يرى فيها أشياء مرتقبة لا نراها .. لكن أين هو سيدي الآن ؟ مات يا أمي .. مات في الموعد الذي حدده تقريباً، هل سمعت بميت يحدد موعد وفاته ؟ .

رغم قلقي يا أمي ، إلا أني أشعر أنكم بخير ، وأني سألتقي بكم قريباً .

لا أدري يا أمي كيف تحملتِ موت كوثر ؟ وأنت التي تقيمين البيت دعاء وبكاء ورجاء بسبب حمى خفيفة تصيب كوثر أو مصطفى الصغير ، كيف تحملت فراقها ، غياب ضحكتها ، قلبي معك يا أمي .. والله معنا جميعاً . حين تأتين يا أمي سأحدثك بما حدث لنا ، قاسينا الجوع والموت مرات ومرات ، ولا أدري إن كنا سننجو منه أم لا ، سأخبرك كيف هي المدينة ، بيوت بلا أناس ، شوارع تمشي فيها الرياح والذباب ، خاوية على عروشها ، اسواقها بمحلات مغلقة ، يعيش بها عدد قليل من الناس يسيرون على جوعهم وآلامهم ، ينتظرون الموت كل لحظة وكل حين .

كم قلتِ لي يا أمي : جند السلطان لا يهزمون ، ها قد هزموا في الشام وعما قليل سيهزمون هنا ، بل يتناقل الناس هنا قصة الصلح بين الباب العالي بالأستانة وقوات الحلفاء .. يتم بموجبه تسليم المدينة إلى الشريف حسين ، لا أدري إن كان قصة هذا الصلح صحيحة أم لا .. يبدو أن لكل شيء نهاية ، ونهاية ما عانينا لأكثر من سنتين قد اقترب ، لألقاكم ثانية ، ليتكم يا أمي تأتون لي بقليل من تربة كوثر ومصطفى ، اشتم منها رائحتهما ، رحمهما الله ، إني أقرأ لهما الفاتحة كثيراً .. أدعو الله أن تنتهي هذه الحادثة .. حادثة سفربِرلك سريعاً ، لألتقيكم ثانية ، كوني بخير يا أمي .

انتبهت من حديثي الذي ملأ داخلي ضجيجاً ونداء ورجاء على طرق الباب ، كان عيسى .. يبدو من تلاحق أنفاسه أنه كان يركض .. جاء ليخبرني بذهاب الميرالاي نجيب بك وعبدالرحمن بك واليوزباشي كمال بك إلى الشريف عبدالله بن الحسين في بير درويش (الفريش) للتفاوض معه في تسليم المدينة ، قلت لعيسى :

ـ أما كان يجدر بفخري باشا أن يتفاوض بنفسه ؟ .

ـ لا يا منصور ، إن كرامته وصلابته وعزته لا تسمح له بتفاوض سيكون مذلاً ومهيناً ، ، يقولون أن كبار ضباطه هددوه ، إما التفاوض أو التخلي عنه وتركه يواجه نتيجة عناده وحده . وافق بعدها وأعلن أنه سيمضي إلى بير درويش لتسليم نفسه .

اليوم التالي كان يوم الجمعة ، بكرت في الذهاب إلى الحرم ، جلست في الروضة الشريفة لقراءة القرآن ، قدم فخري يسير وكأنه يحمل جبالاً ، فظهره مقوس للأسفل ، عليه علامات الانكسار والحزن ، وقف أمام رسولنا العظيم مسلماً ، أجهش بالبكاء ، لعله يعتذر لرسولنا عن عجزه ..عن عدم الوفاء بوعده في الدفاع عن المرقد الشريف ، انتقل بعدها للسلام على صاحبيه سيدنا أبي بكر الصديق وسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنهما .. دخل الحجرة الشريفة من باب السيدة فاطمة رضي الله عنها وقبّل غطاء الضريح الشريف والدموع تبلل وجهه ، بعدها جلس عند اسطوانة التوبة بالروضة الشريف .. حين جاء ذكر السلطان في الخطبة وواجباته نحو رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام أجهش فخري بالبكاء وضج الحرم كله بالبكاء .

وقفتُ مع الحشود خارج الحرم التي تزاحمت لوداع الباشا وحاميته ، كان عيسى إلى جانبي ، أخبرني أن الصدر الأعظم وناظر الحربية أحمد عزت طلبا من فخري تسليم المدينة إلى الشريف من حوالي شهرين ، لكنه رفض .. بل لم يذعن لأوامر السلطان نفسه بعدما تمت معاهدة مودروس التي توجب التسليم .

خرج فخري باشا من الحرم، ركب العربة ببزته العسكرية ، كان يحاول أن يظهر التماسك والقوة .. أخيراً هذه نهايتك يا فخري ، تُقاد مهاناً ذليلاً جزاء ما فعلته بي وبأهلي وبمدينتي ، كم من الناس قضوا جوعاً ، كم من أم فارقت ابنها ، بسببك سافر أهلي وأذقتني الجوع والألم ، ولكنك بطل يا فخري ، صمدت صمود الأبطال ، بطل يا فخري وأنت تقاوم أكثر من سنتين ونصف ، وأنت تقاسي مع جندك الجوع والمرض .. الألم والغربة ، أحب الشجاعة يا فخري ، لطالما كنت أعشق الصامدين في لعبة القشاع ، صامد وأنت تتمنى لو تموت عند جدار الحجرة الشريفة مدافعاً عنها على أن تسلم المدينة ، بطل وأنت لا تذعن للصدر الأعظم وهو يطالبك بالتسليم ، ترفض أوامر السلطان ، تقاوم وحدك ، تخاف أن يدنس الإنجليز ثرى المدينة الطاهر ، نِعم الرجل أنت يا فخري ، وإن كانت فيك الحماقة والقسوة الظلم ، رجل أنت بثباتك يا فخري .

وجدت نفسي أجري إلى العربة .. نسيتُ كل المآسي التي سببها لنا فخري .. كل المصائب التي توالت على رؤوسنا بعد وصوله للمدينة ، اقتربت منه .. منعني الجند ، لكنه لمحني واشار لهم بالسماح لي ، ذهبت إليه ، ..صعدت إلى العربة .. قلت له :

ـ جئت أودعك يا سيدي .

قبلت رأسه ومضيت .

،،،،،، انتهت ،،،،